الدكتور منصور محمد منصور
كلية الحقوق – جامعة الزقازيق

قطوف من رياض القرآن

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م

مطبعة الأمانة – ٣ جزيرة بدران شبرا مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

الى الذين تاقت أنفسهم الى معرفة شيء عن كتاب الله ٠

.. الذين أحبوا القرآن فرضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا أن حزب الله هم المفلحون ٠

الى روح أبى الذى حرص أن يدلنى على طريق الله فوجهنى لحفظ النور المبين ٠

الى أبنائى طلاب العلم ومحبيه

الى أهل بيتى - زوجتى وأبنائى - عل الله ينفعهم بما شغلت به عنهم - أوقات كثيرة -

أقدم هذه الدراسة حول كتاب الله تعالى أشرف كتاب على الاطلاق ٠

أقدم قطوفا من رياض القرآن ٠٠٠

راجيـا من الله النفع بها والمثوبة لكل من قرأها مستلهما منه - سبحانه وتعالى - الهداية والتوفيق ٠

« وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » ٠

المؤلف

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، الذى أنزل النور المبين ، لا ريب فيه هدى للمتقين والصلاة والسلام على من اختاره ربه واصطفاه ، وعلمه وهداه ، وأنار به الكون ، وأخرج الناس برسالته من الظلمات الى النور ، سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ صاحب الخلق العظيم ، والقلب الرحيم ، وصدق رب العرش الكريم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

تعلق قلبى بالقرآن الكريم منذ حداثة سنى يوم بدأت حفظه فى قريتى .

فالقرآن العظيم أشرف العلوم ومنبع الهدايات ، وشمس المعارف وخاتم كتب الرسالات ، قراءته عبادة ، وتلاوته سعادة ، ودراسته والحياة مع آياته أنبل وأشرف دراسة وأنفع وأسمى حياة ، يحياه الانسان لدنياه وأخراه ، وصدق سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخبرنا به عن رب العزة ـ سبحانه وتعالى : يقول تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

فمن وفقه الله تعالى وانشغل بتعلم القرآن العظيم ومدارسته وتلاوته . فهو مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحفه الملائكة ، وتعمه الرحمة ، ويذكره الله فيمن عنده ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قاله : « من تفقه فى دين الله ـ عز وجل كفاه الله تعالى ما أهمه ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

« من أوتى القرآن فرأى أن أحدا أوتى خيرا منه فقد حقر ما عظم الله تعالى » .

« ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة »

« وان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع »

وصدق الله العظيم « هل يستوى الذى يعلمون والذين لا يعلمون » « انما يخشى الله من عباده العلماء »

حبا في هذا كله ، وطمعا فى رحمة الله ومعرفته ، وأملا فى أن أنعم بظله يوم لا ظل الا ظله • ورجاء فى الفوز العظيم بأن أزحزح عن النار وأن يدخلنى ربى الجنة برحمته « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز»(١)

وتضرعا أن أحشر مع الذين أنعم الله عليم من النبيين والصديقين والشداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما •

وبرا بأهلى عل الله ينفعهم ببركة القرآن العظيم ويرزقنى لما فيه البر بهم فان فاتنى شىء من ذلك فى الدنيا تداركته فى الآخرة ، بفضل القرآن وبركته • مستنيرا فى ذلك بما رواه الامام على رضى الله عنه تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قرأ القرآن وتلاه وحفظه أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار » •

وتأسيا بوالدى يرحمه الله رحمة واسعة الذى حفظت كثيرا من القرآن من خلال سماعى له وهو يقرأ ، ليل نهار وكنت وقتها طفلا صغيرا •

لهذا وغيره الكثير اتجهت الى القرآن وعلومه ارتشف من شهده وفيض رحيقه وانعم بنوره واستظل بهدايته وسط صحراء الحياة وقيظها وشعابها المتفرعة المدلهمة •

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران •

ووجدت فى علوم القرآن ما يريح القلب ويشرح الصدر وينير البصيرة ويقوى البصر ، اذ هى علوم ليست ككل العلوم ، وانما هى أرفعها وأجلها ، ومصـدرها وأمها ، « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (١) فالحياة معها هى الحياة ، والقرب منها هو القرب من أسرار الوجود وروح انسان الحياة . والبعد عنها - نعوذ بالله منه - هو الطرد من رحمة الله ، والحرمان من كل خير ، والجهل بها جهل بالحياة نفسها ومن فقدها فقد سر حياته وحقيقة وجوده ، فى تيه ذاته ، اذ بمعرفة علوم القرآن يصل الانسان الى معرفة ذاته وكنه نفسه وتنفتح له كنوز أسرار الكون ومكنون علم الأسرار الذى اختص الله به أولياءه ممن اتجهوا الى القرآن العظيم وعلومه فمن الله عليهم بفهمه ومعرفة ذخائره ونفائسه .

هؤلاء الذين أوقفهم الله على شىء من مراده العظيم فى كتابه الكريم . فعلموه وعمـلوا به وأصـبحوا من حملة سر الله المكنون الذين أبان الله لهم شيئا من علمه المخزون ، وجعلهم ورثة أنبيائه فالعلماء ورثة الأنبياء ، وهم أهل الله وخاصته من خلقه الذين اختارهم سبحانه وتعالى واصطفاهم وشـغلهم بالقرآن وعلومه ليقربهم منه ويرفع درجتهم ويعطيهم ما لم يعطه أحدا وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : « ان لله أهلين منا » قالوا يارسول‌الله منهم؟قال : «هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»(٢).

وصـدق رسـول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن رب العزة سبحانه وتعالى : « يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » (٣) .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ، وأبو بكر البزار فى مسنده .
(٣) أخرجه الترمذى عن أبى سعيد .

هذا هو عطاء الله غير المحدود لمن انشغل بالقرآن الكريم وأفضل كلام على الاطلاق نزل على أفضـل من فوقه السـبع الطباق ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربه • ويهديهم الى صراط العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض •

هذا الكتاب الكريم الذى لم تلبث الجن حين سمعته أن قالوا : « انا سـمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا • وانه تعالى جد ربنا ما تخذ صاحبة ولا ولدا » (١) •

هذا القرآن العظيم الذى هيأ الله الكون لنزوله وشهدت الجن بذلك حين رأت تغيرا طرأ على نواميس الكون ونظامه ولم تدر لذلك سببا « وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا » (٢) •

هذا القرآن الذى تخشع لعظمته الجبال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » (٣) •

هذا القرآن العظيم الذى هو الروح للكون انسه وجنه حيوانه ونباته ساكنه ومتحركه ، « وكذلك أوحينـا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » (٤) •

هذا القرآن العظيم الذى فيه وبه النجاة ولا نجاة بسـواه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول فيما يرويه على رضى الله تعالى عنه حين قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع

---

(١) من الآية ١ ـ ٢ من سورة الجن •
(٢) الآيتين ٩ ، ١٠ من سورة الجن •
(٣) الآية ٢١ من سورة الحشر •
(٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى •

الليل المظلم » قلت : يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى. فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة . ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء . ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ... » .

وحبا فى الهداية الى الصراط المستقيم وطلبا للأجر والمثوبة من الله تعالى يممت وجهى للقرآن وعلومه ، وآنست نفسى بقراءته والكتابة عنه فكانت هذه القطوف الندية الشذية والتى هى بداية أرجو من الله تعالى العون والعافية لأكملها وأوفيها حقها .

وقسمت هذه القطوف الى أربعة أبواب .

تناولت فى الباب الأول بعض ما يتصل بالقرآن من الناحية التاريخية لطلبه وقراءته والاستماع اليه من فضل ومنزلة .

أما الباب الثانى فقد أوردت فيه حديثا عن حكم القرآن ومتشابهه

وذكرت فى الباب الثالث جانبا من الحديث عن اعجاز القرآن الكريم والوان بلاغته .

وأفردت الباب الرابع للحديث عما ورد من صور التكرار فى القرآن الكريم .

أرجو من الله سبحانه وتعالى الهداية والتوفيق فى كل ما أكتب فهى من سبحانه وتعالى بهما فهو صاحب الفضل والمنة .

وان قصرت همتى عن بلوغ ما أطمع واتطلع اليه فعذرى أن همة البشر قاصرة الا من وفق الله وهدى .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

الباب الأول

القران نور وكتاب مبين

تمهيد : القرآن ذلكم الكتاب العظيم الكريم الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على سيد ولد آدم عليه السلام ليخرج الناس من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط العزيز الحميد (١) •

فالقرآن اسم لكلام الله ـ سبحانه وتعالى » (٢) ـ وعلم يطلق على

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى فى أول سورة ابراهيم : الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد •

لتخرج الناس من ظلمات الكفر والفجور والفسق ، والضلال والبهتان الى نور الايمان وشمس اليقين واشرافه المعرفة الحقة والعلم المبين • فالكفر ظلمات بعضها فوق بعض والايمان نور وهداية يوفق الله له من يرد به خيرا فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للايمان وصدق الله العظيم: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون •

(٢) والقرآن مصدر بمعنى المقروء ، ومنه قول الله سبحانه وتعالى : وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا » أى قراءة الفجر • وقد جرت عادة العرب على تسمية المقروء قرآنا أى تسمية المفعول باسم المصدر كقولهم للشىء المشروب : شرابا • ومن هنا كان القرآن اسما لكلام الله سبحانه وتعالى ـ ولذا قيل : القرآن غير مخلوق • أى المقروء لا القرآءة •

كما أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم كلمة القرآن قاصدا بها المصحف الذى كتب فيه كلام الله • فقال صلى الله عليه وسلم : « لا تسافروا بالقرآن الى أرض العدو » •

يراجع تفسير القرطبى ج ١ ص ٦٧٤ •

ذلك اللفظ العربى المنزل على سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم - عن طريق سيدنا جبريل - عليه السلام - المنقول الينا بالتواتر ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس ، المجموع بين دفتى المصحف ، الموحى به الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - باللفظ والمعنى ، المأمور بتبليغه للناس • طبقا لما جاء من أمر بذلك فى قوله سبحانه وتعالى - الموجه الى الرسول المرشد المعلم - صلى الله عليه وسلم - « يأيها الرسول بلغ ماأنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين » (١) •

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة •

وردت روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية ، منها ما روى عن ابن عباس من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شق عليه تكذيب الناس له ولرسالته فانزل سبحانه وتعالى هذه الآية ليخفف عن الرسول ما هو فيه من جهد ومشقة وخوف على الناس وحرص على نشر الدعوة الأمر الذى قال الله فيه : « •• فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » • كما روى أن أبا طالب كان يرسل كل يوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا من بنى هاشم يحرسونه وظل الأمر كذلك حتى نزلت هذه الآية « والله يعصمك » فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « يا عماه ان الله قد عصمنى من الجن والانس فلا احتاج الى من يحرسنى » •

وجاء فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - غزوة قبل نجد ، فأدركنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى واد كثير العضاه - شجر عظيم له شوك - فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها ، قال : وتفرق الناس فى الوادى يستظلون بالشجر ، قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « أن رجلا أتانى وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسى فلم أشعر الا والسيف صلتا فى يده ، فقال لى : من يمنعك منى - قال - قلت الله • قال فشام السيف فها هو ذا جالس » ثم لم يعرض له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى رواية فذعرت يد

والقرآن له أسماء كثيرة فهو الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، والنور المبين ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، هذه الأسماء الكريمة وغيرها أوردها القرآن الكريم نفسه ، فى آياته البينات فقد سماه الله سبحانه وتعالى قرآنا كريما وأكد ذلك الوصف وأقسم على تأكيده فقال سبحانه وتعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين » (١) ·

= الاعرابى وسقط السيف من يده ، وضرب برأسه الشجر حتى انتثرت دماغه ·

وروى الامام مسلم عن السيدة عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة فقال : « ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة » قالت فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال : « من هذا » قال سعد بن أبى وقاص · فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما جاء بك » ؟ فقال وقع فى نفسى خوف على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجئت أحرسه · فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نام ونزلت هذه الآية ·

تفسير القرطبى ص ٢٢٣٩ وما بعدها ·

(١) الآيات ٧٥ ـ ٨٠ من سورة الواقعة : أقسم الله تعالى على عظمة القرآن الكريم وهذا ما ذهب اليه أكثر المفسرين بدليل أن الله تعالى قال : « وانه لقسم » ونبه الله بذلك على فضل القرآن وحث على تدبره وأكد أن القرآن ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعم من أكل الحقد قلبه · « ومواقع النجوم » مساقطها ومغاربها · وقال الحسن : انكدارها وانتثارها يوم القيامة وقيل : نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا الى السفرة الكاتبين ، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ـ عليه الصلاة والسلام عشرين سنة فهو ينزله على الأحداث من أمته · وحكى عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن ·

=

وسماه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم ، والقرآن المبين فقال تعالى في أول سورة الحجر : « الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (١) ثم قال سبحانه وتعالى في نفس السورة في معرض بيان ما أتاه الله تعالى لرسوله وحبيبه ومصطفاه وصفوته من خلقه ومجتباه : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » (٢) .

=

« انه لقرآن كريم » قيل الهاء تعود على القرآن أى ان القرآن لقسم عظيم ، وقيل ما أقسم الله به عظيم « انه لقرآن كريم » ذكر المقسم عليه ، أى أقسم بمواقع النجوم ان هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترى بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله معجزة لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربهم . وشفاء صدورهم ، كريم على أهل السماء لأنه تنزيل ربهم ووحيه ، وقيل : لما فيه من كريم الأخلاق ومعالى الأمور ، ولأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه .

« فى كتاب مكنون » مصون عند الله تعالى . يحفظه الله سبحانه من أن يناله باطل . وقيل هو اللوح المحفوظ ، وقيل الكتاب المكنون هو المصحف الذى معنا . « لا يمسه الا المطهرون » قيل أى المطهرون من الذنوب وهم الملائكة ، وكذا الرسل من بنى آدم ، وروى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا تمس القرآن الا وانت طاهر » ولذا قالت أخت عمر لعمر ذلك يوم دخل منزلها يريد ايذاءها وزوجها . وقيل : لا يقرؤه الا الموحدون . أو لا يجد طعمه ونفعه وبركته الا المؤمنون بالقرآن .

وكذا لا يعرف تفسيره ولا تأويله الا من طهره الله من الشرك والنفاق . ولا يوفق للعمل به الا السعداء ، ولا يمس ثوابه الا المؤمنون .

تفسير القرطبى ج ٧ ص ٦٣٩٣ وما بعدها .

(١) الآية ١ من سورة الحجر .

(٢) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الحجر . وهما خطاب من الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيهما بيان لما أعطاه الله لرسوله وللمؤمنين .

=

فهذا الخطاب من الله سبحانه وتعالى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين معه والمصدقين بدعوته الى يوم الدين خطاب واضح جلى التأكيد والنص على أن ما أعطاه الله لرسوله ولأمته من القرآن العظيم أجل قدرا وأرفع منزلة وأكمل نفعا وأنفث جوهرا وأنقى معدنا وأطيب مذاقا وأشهر مطعما ، وأصفى شهدا وأشف موردا وأندى عبيرا وأرق شذا ، وأعبق نسيما عليلا ، بل هو عين الحياة ونفسها • وسر الوجود وروح الكون ومشرق شمسه ومنبع نوره ، فمن له هذا كله ـ أعطاه الله له وأرسله به الى عباده ـ لا يتحول بصره الى شيء من متاع الدنيا القليل ، وبريقها الزائل ، وسلطانها الموقوت • فالقرآن أعظم وأفضل من كل شيء مخلوق ،

=

وقد ذهب العلماء فى تفسير السبع المثانى مذاهب عدة ، فقد روى عن على بن أبى طالب وأبى هريرة وغيرهما أن السبع المثانى الفاتحة • وقد روى أبو هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى » •

وقال ابن عباس : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ، اذ ليس بينهما التسمية •

سميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثنيت فيها •

وقيل : المثانى القرآن كله ، قال تعالى : « كتابا متشابها مثانى » •

وقيل للقرآن مثانى لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه •

وقيل المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر ، والنهى والتبشير ، والانذار ، وضرب الأمثال ، وتعديد نعم ، وأنباء قرون •

وأصح هذه الأقوال القول الأول ، لأنه قد اعتمد على نص واضح صريح « لا تمدن عينيك » يقول الله لرسوله لقد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ، فانه ليس منا من لم يتغن بالقرآن ، أى ليس منا من رأى انه ليس يغنى بما عنده من القرآن حتى يطمح بصره الى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى وأنواره وجميل فضله وعظيم عطاياه •

ففضله على سائر ما عداه من كلام ونعم ومتاع كفضل الله على خلقه ، غنيهم وقويهم وحاكمهم وسائرهم (١) ٠

---

(١) أورد القرطبى أنه وافى سبع قوافل من البصرى وأذرعات ليهود قريظة والنضير فى يوم واحد ، فيها البر والطيب ، والجوهر ، وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم»، أى فالقرآن خير لكم من القوافل السبع فلا تمدن أعينكم اليها ٠ وصدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ القائل : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أى من لم يستغن به ٠

وقد ظن قوم أن هذه الآية تقتضى الزجر عن التشوف الى متاع الدنيا على الدوام ، واقبال العبد على عبادة مولاه وتمسكوا فى هذا الزعم أيضا بما جاء من قول الله تعالى : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى » الآية ١٣١ من سورة طه ٠ وهذا الزعم مردود على من ادعاه وزعمه ، وأول من رده الرسول ـ صلى الله عليه وسلم الذى قال : « حبب الى من دنياكم النساء والطيب ٠ وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ٠

وليس فى الاسلام شىء من الرهبانية والاقبال على الأعمال الصالحة بالكلية والانقطاع عن الدنيا ، كما فى غيره من الأديان من رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم وانما الزموا أنفسهم بها وكثير منهم فاسقون : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا » وصدق الله العظيم القائل فى كتابه : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » الآية ٣٢ من سورة الأعراف ٠ والقرآن العظيم أعظم رزق وأطيب طيب وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ القائل : « القرآن افضل من كل شىء دون الله ، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، فمن وقر القرآن ، فقد وقر الله ، ومن لم يوقر القرآن لم يوقر الله ، وحرمة القرآن عند الله كحرمة الوالد على ولده ، القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، فمن شفع له

=

وسمى الله — سبحانه وتعالى — القرآن أيضا : « القرآن الحكيم » وذلك فى قوله تعالى : « يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم ... » (١) فالله سبحانه وتعالى قد أقسم

=

القرآن شفع ، ومن محل به القرآن صدق .

ومن جعله أمامه قاده الى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه الى النار ، وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله من والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله ، يقول الله تعالى : يا حملة القرآن استجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا ويحببكم الى عباده .

تفسير القرطبى ص ٣٦٧٠ ، ص ٥٤٤٦ .

(١) الآيات ١ — ٥ من سورة يس . وهى من سور القرآن التى أنزلت فى مكة المكرمة وقد ورد فى شأنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان لكل شىء قلبا وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ان فى القرآن لسورة تشفع لقارئها ويغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس تدعى فى التوراة المعمة » قيل : يا رسول الله وما المعمة ؟ قال : « تعم صاحبها بخير الدنيا ، وتدفع عنه أهاويل الآخرة ، وتدعى الدافعة والقاضية » قيل : يا رسول الله وكيف ذلك ؟ قال : « تدفع عن صاحبها كل سوء ، وتقضى له كل حاجة ، ومن قرأها عدلت له عشرين حجة ، ومن سمعها كانت له كألف دينار تصدق بها فى سبيل الله ... الحديث » .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ان لكل شىء قلبا وان قلب القرآن يس ، ومن قرأها فى ليلة عطى يسر تلك الليلة ، ومن قرأها فى يوم أعطى يسر ذلك اليوم ، وان أهل الجنة يرفع عنهم القرآن فلا يقرءون شيئا الا طه ويس » .

وعن أبى هريرة — رضى الله تعالى عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه

=

« بياسين وأقسم بالقرآن الحكيم أن سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول الى الناس يدلهم باذن ربه الى الطريق المستقيم • وقد سمى الله تعالى القرآن هنا بالقرآن الحكيم ، أى المحكم الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١) •

=

وسلم ـ قال : « من قرأ سورة يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر له فى تلك الليلة » ـ أخرجه الدارمى فى مسنده ، وأبو نعيم الحافظ ـ •

وفى سنن أبى داود عن معقل بن يسار قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اقرءوا يس على موتاكم » وذكر الآجرى من حديث أم الدرداء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : ما من ميت يقرأ عليه سورة يس الا هون الله عليه » وعن أنس رضى الله تعالى عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفف الله عنهم يؤمئذ وكان له بعدد من فيها حسنات » • وعن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له » • وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا ، ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة ، ومن استمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش الى التخوم ، وان فى كتاب الله لسورة تدعى العزيزة ، ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة ، تشفع لصاحبها فى أكثر من ربيعة ومضر ، وهى سورة يس » •

يراجع تفسير القرطبى ج ٦ ص ٥٤٤٥ وما بعدها •

(١) أقسم الله سبحانه وتعالى بياسين ، وهو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى • أو هو اسم من أسماء سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم بدليل « انك لمن المرسلين » وما روى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « لى عند ربى عشرة أسماء » ذكر أن منها طه ويس اسمان له • وأقسم بالقرآن الحكيم ان سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرسل بوحى الله الى عباده ، وانه على طريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق • وذلك رد على كفار قريش الذين قالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لست مرسلا وما أرسلك الله الينا ، فأقسم الله بالقرآن الحكم أن محمدا من المرسلين •

=

وسمى الله ـ سبحانه وتعالى القرآن ـ القرآن المجيد ـ فقال سبحانه

=

وروى أن الملأ من قريش وأبو جهل قالوا : قد التبس علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبه بن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى على ان كان كذلك ٠ فقالوا : ايته فحدثه ٠ فأتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : يا محمد ! أنت خير أم قصى بن كلاب ؟ أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ فبم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، وتسفه أحلامنا ، وتذم ديننا؟ فان كنت انما تريد الرياسة عقدنا اليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت ، وان كنت تريد الباءة زوجناك عشر نساء من أى بنات قريش شئت ، وان كنت تريد المال جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك ٠ والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساكت ، فلما فرغ قال : « قد فرغت يا أبا الوليد » قال نعم ٠ قال فاسمع منى قال يابن أخى اسمع قال : بسم الله الرحمن الرحيم ٠ حم ٠ تنزيل من الرحمن الرحيم ٠ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ـ سورة فصلت ـ فوثب عتبة ووضع يده على فم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فجاءه أبو جهل فقال : أصبوت الى محمد ؟ أم أعجبك طعامه ؟ فغضب عتبة وأقسم الا يكلم محمدا أبدا ثم قال : والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، ولكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ثم تلا عليهم ما سمع منه الى قوله تعالى : « مثل صاعقة عاد وثمود » وأمسكت بفمه وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمت أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب ، يعنى الصاعقة ٠

يراجع تفسير القرطبى ص ٥٤٤٨ ، ص ٥٧٨٢ وما بعدها ٠

وتعالى : « ق والقرآن المجيد » (١) كما قال سبحانه وتعالى : بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات يقسم على صدق القرآن وما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويبين ان المكذبين به مثلهم فيما يعد لهم عند ربهم مثل ما نزل بالأقوام المكذبين من عاد وثمود وغيرهم وان ما أنزله الله عليك هو قرآن مجيد عظيم القدر والشأن (فى لوح محفوظ) عند الله سبحانه وتعالى (٢) ٠

---

(١) اختلف فى معنى ق فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض ٠

وعن ابن عباس قال : ق اسم من أسماء الله تعالى أقسم به ٠ أوهو افتتاح أسماء الله تعالى ، قدير ، وقاهر ، وقريب ، وقابض ، وقاض وقيل هو اسم من أسماء القرآن ٠ وقيل غير ذلك الكثير فى معنى ق ٠،

« القرآن المجيد » أى الرفيع القدر ٠ وقيل الكريم ، وقيل الكثير من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد ٠ وجواب القسم للعلماء فيه أقوال منها ٠

أن جواب القسم هو ما جاء فى من قول الله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » وقيل أن جواب القسم هو ان فى ذلك لذكر لمن كان له قلب فأقسم الله ب ق وهو اسم من أعظم أسماء الله التى خرجت للعباد ، وكل أسمائه عظيمة معظمة ٠ وأقسم بالقرآن المجيد ، ثم اقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين ، وأرزاق العباد ، وخلق الآدميين ، وصفة يوم القيامة والجنة والنار ثم قال : « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » وقيل غير ذلك فى جواب القسم ٠

يراجع تفسير القرطبى ج ٧ ص ٦١٧٢ ٠

(٢) وصف الله سبحانه وتعالى القرآن فى الآيتين ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج بقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » أى هو قرآن متناه فى الشرف والكرم والبركة ، فيه بيان لكل ما يحتاجه المخلوقين من أحكام الدين والدنيا ٠ وقال البعض « مجيد » أى غير مخلوق ٠ (فى لوح محفوظ) عند الله من أن تصل اليه الشياطين ، وروى عن ابن عباس :

=

ووصف الله سبحانه وتعالى القرآن بما جاء على لسان الجن حين استمعوا اليه • فقال تعالى : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا » (١) •

ان اللوح من ياقوته حمراء ، أعلاه معقود بالعرش واسفله فى حجر ملك ، كتابه نور وقلمه نور ، ينظر الله ـ عز وجل فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظره ، ليس منها نظرة الا وهو يفعل ما يشاء ، يرفع وضيعا ويضع رفيعا ، ويغنى فقيرا ويفقر غنيا ، يحى ويميت ، ويفعل ما يشاء ، لا اله الا هو • وقيل اللوح المحفوظ الذى فيه أصناف الخلق والخليقة ، وبيان امورهم ، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم ، والأقضية النافذة فيهم ، ومآل عواقب أمورهم ، وهو أم الكتاب • وقال ابن عباس : أول شيء كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ (انى أنا الله لا اله الا أنا محمد رسول ، من استسلم لقضائى وصبر على بلائى وشكر نعمائى كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين . ومن لم يستسلم لقضائى ولم يصبر على بلائى ولم يشكر نعمائى فليتخذ الها سواى •

تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٧٠٨٩ •

(٢) الآية ١ من سورة الجن « قرآنا عجبا » أى يستولى على القلوب ويعجز العقول بفصاحته وبليغ بيانه وموعظته ، وعظم نفعه وبركاته ، وعزته وجلال قدره الذى لا يستطيع مخلوق محاكاته • وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الجن وما رآهم ، انطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين الى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك الا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخل عامدين الى سوق عكاظ ، وهو ـ صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ،

=

وقد أورد السيوطى فى كتابه ـ الاتقان فى علوم القرآن ، ما ذكره أبو المعالى عزيزى (١) من أن للقرآن خمسة وخمسين اسما ، فقد سماه الله تعالى كتابا مبينا ، فى قوله : « حم والكتاب المبين » (٢) وقرآنا ، وكريما فى قوله : (انه لقرآن كريم) (٣) وكلاما : (حتى يسمع كلام الله) (٤) ونورا : « وأنزلنا اليكم نورا مبينا » (٥) وهدى ورحمة : (هدى ورحمة للمؤمنين) (٦) وفرقانا : (نزل الفرقان على عبده) (٧) وشفاء : (وننزل

=

فرجعوا الى قومهم فقالوا ما حكاه القرآن الكريم : يا قومنا «انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » .

يراجع تفسير القرطبى ج ٨ ص ٦٧٩٥ .

(١) أبو المعالى عزيزى بضم العين ، والمعروف بشـــيدلة ، فى كتابه البرهان .

(٢) الآيتين ١ ، ٢ من سورة الدخان . كما جاءت هذه التسمية أيضا فى قول الله تعالى : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) الآية ١٥ من سورة المائدة . وفى قوله تعالى : (الر تلك آيت الكتاب المبين) الآية ١ من سورة يوسف . وكذلك فى الآيات : ١ من سورة الحجر ، ٢ من سورة الشعراء ، ٢ من سورة النمل ، ٢ من سورة القصص .

(٣) الآية ٧٧ من سورة الواقعة .

(٤) الآيات ٧٥ من سورة البقرة ، ٦ من سورة التوبة ، ١٥ من سورة الفتح .

(٥) سمى الله القرآن نورا فى الآيات ١٥ من سورة المائدة ، ٨ من سورة التغابن ، ١٧٤ من سورة النساء وفى الآية ٥٢ من سورة الشورى (ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) .

(٦) جاء قول الله تعالى (هدى ورحمة) فى عشرة مواضع فى القرآن أولها ١٥٧ من سورة الأنعام وآخرها ٢٠ من سورة الجاثية . أما التعبير عن القرآن بأنه رحمة وحدها أو بأنه هدى فتكرر كثيرا .

(٧) ورد التعبير عن القرآن بأنه فرقان ثلاث مرات فى الآية ١٨٥ من البقرة ، ٤ من آل عمران ، ١ من الفرقان .



من القرآن ما هو شفاء) (١) وموعظة : « قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور » (٢) وذكرا مباركا (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) (٣) وعليا (وانه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) (٤) وحكمة : « حكمة بالغة » (٥) وحكيما : (تلك آيات الكتاب الحكيم) (٦) ومهيمنا : (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) (٧) وحبلا : (واعتصموا بحبل الله) (٨) وصراطا مستقيما : (وأن هذا صراطى مستقيما) (٩) وقيما : (قيما لينذر) (١٠) وقولا وفصلا « انه لقول فصل » (١١) ونبأ عظيما : (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) (١٢) وأحسن الحديث • ومثانى ومتشابها (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها

(١، ٢) أطلق الله على القرآن شفاء فى ثلاثة مواضع فى الآيات ٥٧ من يونس ، ٨٢ من الاسراء ، ٤٤ من فصلت •

(٣) جاء لفظ مبارك مسند الى القرآن (كتاب مبارك : ثلاث مرات فى الآيات ٩٢ ، ١٥٥ من الأنعام ٢٩ من ص ، أما (ذكر مبارك) فقد ورد فى الآية ٥٠ من سورة الأنبياء •

(٤) الآية ٤ من سورة الزخرف •

(٥) الآية ٥ من سورة القمر •

(٦) وصف الله القرآن فانه حكيم فى الآيات ٥٨ من آل عمران ، ١ من يونس ، ٢ من لقمان ، ٢ من يس •

(٧) الآية ٤٨ من سورة المائدة •

(٨) الآية ١٠٣ من آل عمران •

(٩) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام •

(١٠) الآية ٢ من سورة الكهف •

(١١) الآية ١٣ من سورة الطارق •

(١٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النبأ •

مثانی) (١) وتنزيلا (وانه لتنزيل رب العالمين) (٢) • وروحا (أوحينا اليك روحا من أمرنا) (٣) • ووحيا (انما أنذركم بالوحى) (٤) وعربيا (قرآنا عربيا) (٥) وبصائر (هذا بصائر) (٦) وبيانا ، (هذا بيان للناس) (٧) وعلما • (من بعد ما جاءك من العلم) (٨) وحقا : (ان هذا لهو القصص الحق) (٩) •وهاديا ، (ان هذا القرآن يهدى)(١٠)• وعجبا (قرآنا عجبا) (١١) وتذكرة (وانه لتذكرة) (١٢) • والعروة الوثقى (استمسك بالعروة الوثقى) (١٣) وصدقا (والذى جاء بالصدق) (١٤) وعدلا : (وتمت كمة ربك صدقا وعدلا) (١٥) وأمرا:(ذلك أمر الله أنزله اليكم) (١٦) ومناديا « ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان (١٧)

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر •

(٢) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء •

(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى •

(٤) الآية ٤٥ من سورة الأنبياء •

(٥) وصف القرآن بكلمة عربى ست مرات فى الآيات ٢ من يوسف ، ١٣ من طه ، ٢٨ من الزمر ، ٣ من فصلت ، ٣ من الزخرف • وجاء قوله تعالى (حكما عربيا) فى الآية ٣٧ من سورة الرعد •

(٦) جاءت كلمة بصائر فى الآيات ١٠٤ من الأنعام ، ٢٠٣ من الاعراف ١٠٢ من الاسراء ، ٤٣ من القصص ، ٢٠ من الجاثية •

(٧) وردت كلمة بيان مرتين فى الآيتين ١٣٨ من آل عمران ، ٤ من الرحمن •

(٨) فى لآيتين ١٥٤ من البقرة ، ٦١ من سورة آل عمران •

(٩) الآية ٦٢ من آل عمران •

(١٠) الآية ٩ من سورة الاسراء •

(١١) الآية ١ من سورة الجن •

(١٢) الآية ٤٨ من سورة الحاقة •

(١٣) الآيتين ٢٥٦ من البقرة ، ٢٢ من لقمان •

(١٤) الآية ٣٣ من سورة الزمر •

(١٥) الآية ١١٥ من سورة الأنعام •

(١٦) الآية ٥ من سورة الطلاق •

(١٧) الآية ١٩٣ من سورة آل عمران •

وبشرى « هدى وبشرى » (١) ومجيدا « بل هو قرآن مجيد » (٢) وزبورا : « ... ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » (٣) وبشيرا ونذيرا « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا ... » (٤) وعزيزا « انه لكتاب عزيز » (٥) وبلاغا « هذا بلاغ للناس » (٦) وقصصا : « ... أحسن القصص » (٧) وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) (٨) وبعد أن أورد السيوطى هذه الأسماء (٩) بدأ يذكر جانبا من معانيها وما تحمله من مدلولات (١٠) وهذه

---

(١) الآية ٩٧ من البقرة ، ٢ من سورة النمل .

(٢) الآية ٢١ من سورة البروج ، وفى سورة ق (ق والقرآن المجيد) .

(٣) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيتين ٣ ، ٤ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٤١ من سورة فصلت .

(٦) الآية ٥٢ من سورة ابراهيم .

(٧) الآية ٣ من سورة يوسف .

(٨) الآيتين ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

(٩) يراجع الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ٨٦ الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١ م .

(١٠) من مدلولات أسماء القرآن ما يأتى : وانما سمى قرآنا ، لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة ، المنزلة ، وقيل لأنه جمع أنواع العلوم كلها . وأما الكلام فمشتق من الكلم ، بمعنى التأثير ، لأنه يؤثر فى ذهن السامع فائدة لم تكن عنده . وأما النور ، فلأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام . وأما الهدى ، فلأن فيه الدلالة على الحق ، وهو من باب اطلاق المصدر على الفاعل مبالغة ، وأما الفرقان ، فلأنه فرق بين الحق والباطل وجهة بذلك مجاهد . وأما الشفاء ، فلأنه يشفى من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل والبدنية أيضا . وأما الذكر ، فلما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضا الشرف ، قال تعالى : (وانه لذكر لك ولقومك) =

الأسماء بما لها من مدلولات روعى فيها الأصل الذى اشتقت منه ، ومقتضى السياق الذى وردت فيه ، وهذه الأسـماء كلها لا تخرج عن المدلول العام الذى أطلقه علماء الأصول على القرآن الكريم بأنه : اللفظ العربى المنزل على سيدنا محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنقول الينا بالتواتر. المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس،المجموع بين دفتى المصحف، الموحى به الى الرسول صلى الله عيه وسلم باللفظ والمعنى ، المتعبد بتلاوته . المعجز للانس والجن •

فاللفظ العربى جنس شامل لكل لفظ عربى شعرا كان أو غير ذلك من صنوف الكلام ، وبتقييد هذا اللفظ بكونه منزلا على سـيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - يخرج ما عداه من ألفاظ لم تنزل على أشرف الخلق،

=

أى شرف ، لأنه بلغتهم • وأما الحكمة ، فلأنه نزل على القانون المعتبر من وضع كل شىء فى محله ، أو لأنه مشتمل على الحكمة • وأما الحكيم ، فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم ، وبديع المعانى ، وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف • والتباين • وأما المهيمن ، فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة • وأما الحبل ، فلأنه من تمسك به وصل الى الجنة أو الهدى ، والحبل السبيل • وأما المثانى ، فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه ، وقيل لتكرار القصص والمواعظ فيه ، وقيل لأنه نزل مرة بالمعنى ومرة باللفظ ، والمعنى لقوله (ان هذا لفى الصحف الأولى) •

وأما المتشابه ، فلأنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن والصدق ، وأما الروح فلأنه تحيا به القلوب والأنفس • وأما المجيد فلشرفه • وأما العزيز، فلأنه يعز على من يروم معارضته • وأما البلاغ فلأنه أبلغ به الناس ما أمروا به ، ونهوا عنه ، أو لأن فيه بلاغة ، وكفاية عن غيره •• وأجاب من سئل • كل كتاب له ترجمة فما ترجمة كتاب الله • فقال : هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وذكر أبو شامة وغيره فى قوله تعالى : (ورزق ربك خير وأبقى) أنه القرآن •

يراجع الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ٨٨

وبايراد قيد كونه منقولا الينا بالتواتر ، ما عداه مما نقل الينا عن سيد البشر أجمعين بطريق ينزل درجة عن التواتر والاتفاق المطلق ومع هـــذه القيود يبقى ما نقل الينا عن سيدنا محمد كل متصل ، سواء أكان قرآنا أو حديثا متواترا ، لكنه بايراد القيد التـالى يتميز القرآن عن غيره مما نقل الينا متواتراً عن سيد المرسلين فتحديد القرآن بكونه المبدوء بســورة الفاتحة المختوم بسورة الناس ، يميزه عما عداه مما ورد عن سيد المرسلين متواترا •

كما لا يخفى • أن كون القرآن محدد بأنه الموحى به الى الرســول ـ صلى الله عليه وســـلم ـ يخرج ما أوحى به من عند الله تعالى الى باقى الأنبياء والرسل أجمعين الذين سبقت نبواتهم وكذا رسالتهم رسالة سيد المرسلين ، وخاتم الأنبياء أجمعين ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ مثل الذى أنزله الله تعالى على سيدنا ابراهيم وسيدنا موسى من صحف (صحف ابراهيم وموسى (١) وتقيد اللفظ العربى بالمنزل على سيدنا محمد يخرج

---

(١) أى الكتب المنزلة عليهما • وليس المراد أن هذه الألفاظ بعينها قد وردت فى تلك الصحف • وانما الوارد هو معنى هذه الألفاظ • وقيل للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا رسول الله فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضـها على بعض ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم فانى لا أردها ولو كانت من فم كافر • وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفســه . يفكر فى صــنع الله عز وجل اليه ، وساعة يخلو فيهـا لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا فى ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمة لمعاش ولذة فى غير محرم • وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للســانه • ومن عد كلامه من عمله قل كلامه الا فيما يعنيه قيل : يا رسول الله ، فما كانت صحف موسى ؟ قال : « كانت عبرا كلها :

أيضا ما لم ينزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – مما استأثر الله بعلمه ولم ينزله على سيد المرسلين ولا أحد قبله من الرسل أو الأنبياء · سواء خاطب الله به ملائكته وأعلمهم اياه جميعهم أو اختص به بعضهم دون بعض أو لم يخاطب الله به أحدا من خلقه ، بما فى ذلك الحيوان والجماد أيضا وقد خاطبهم الله وأوحى اليهم (١) ، فكل ذلك الذى خوطب به جميع

=

عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل » قيل : يا رسول الله ، فهل فى ايدينا شىء مما كان فى يدى ابراهيم وموسى مما أنزل عليك ؟ قال : نعم اقرأ يا أباذر : « قد أفلح من تزكى · وذكر اسم ربه فصلى · بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ان هذا لفى الصحف الأولى · صحف ابراهيم وموسى » الآيات ١٤ – ١٩ من سورة الأعلى · رواه الآجرى من حديث أبى در ·

يراجع تفسير القرطبى ج ١ ص ٧١١٤ وما بعدها

(١) خاطب الله كثيرا من مخلوقاته وأوحى اليهم وقد أخبرنا القرآن الكريم بجانب من ذلك فقال تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » الآية ٦٨ من سورة النحل ·

والوحى يكون الهاما وايمـاء وغير ذلك ، وأصله فى اللغة اعلام فى خفاء ، ولذلك يسمى الالهام ، وحيا · يقال : وحى وأوحى ، قال العجاج : أوحى لها القرار فاسـتقرت · أى أمر الأرض بالقرار · وفى الحديث . « الوحى الوحى » وهو السرعـة ، والفعل منه توحيت توحيا · والوحى الاشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما القيت الى غيرك حتى يعلمه · والالهام: ما يخلقه الله تعالى فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر ومن ذلك ما يشاهد فى البهائم وما يخلق الله سبحانه وتعالى فيها من درك منافعها واجتناب مضارها ، وتدبر معاشها · النحل بفتح الحاء ، سمى نحلا، لأن الله عز وجل نحله العسل الذى يخرج منه ، والنحل يؤنث فى لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه وبين واحده الا الهاء ، والنحل والنحلة الدبر ، ويقع على الذكر والأنثى · وعن أبى هريرة عن النبى – صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الذبان كلها فى النار يجعلها عذابا لأهل النار الا النحل » ذكره الترمذى

=

المخلوقين من الانس والجن والحيوان والجماد ، ما فى الأرض وما عليها »

=

الحكيم فى « نوادر الأصول » وروى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن قتل النملة والنحلة ، والصرد - طائر فوق العصفور - خرجه أبو داود ٠

قال ابن العربى : ومن عجيب ما خلق الله فى النحل أن الهمها لاتخاد بيوتها مسدسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة ، وذلك أن الأشكال من المثلث الى المعشر اذا جمع كل واحد منها الى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فروج ، الا الشكل المسدس ، فانه اذا جمع الى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة ٠

وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، وورد عن على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - أنه قال فى تحقير الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة ، وأشرف شرابه رجيع نحلة ٠ وبالجملة فانه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ٠ وقد صنع أرسطاطاليس بيتا من زجاج لينظر الى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ٠

تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٧٤٩ وما بعدها ٠

كما خاطب الله سبحانه وتعالى أيضا السماء والأرض وأوحى اليهما فقال تعالى : « ٠٠ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » الآية ١١ من سورة فصلت ٠٠ قال ابن عباس : قال الله تعالى للسماء : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك وأخرجى شجرك وثمارك طائعتين أو كارهتين « قالتا أتينا طائعين » وفى قوله تعالى لهما وجهان ، أحدهما أنه قول تكلم به ، الثانى أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام فى بلوغ المراد ٠

وفى قولهما : « أتينا طائعين » وجهان ، أحدهما أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما ٠٠ وقال أكثر أهل العلم : بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا ٠٠ فنطق من الأرض موضع الكعبة ، ونطق من السماء ما بحيالها ، فوضع الله فيه حرمه ٠ وفى حديث : أن موسى عليه

=

وما فى السماء من ملائكة وأرواح وأفلاك وغير ذلك مما علم المخلوقين أو لم يعلموا ، كل ذلك بعضا من كلام الله سبحانه وتعالى الذى لا يعلم كنهه ولا حدوده ولا جملته الا هو سبحانه وتعالى · (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) · (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) (١) ·

=

الصلاة والسلام قال : يارب لو أن السموات والأرض حين قلت لهما : « ائتيا طوعا أو كرها » عصياك ما كنت صانعا بهما ؟ قال : كنت أمر دابة من دوابى فتبتلعهما · قال : يارب وأين تلك الدابة ؟ قال : فى مرج من مروجى · قال : يارب وأين ذلك المرج ؟ قال : علم من علمى · ذكره الثعالبى · يراجع تفسير القرطبى ج ٧ ص ٥٧٨٧ وما بعدها ·

كما حكى القرآن ما سيكون من خطاب الله تعالى لجهنم فى الآخرة فقال تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » الآية ٣٠ من سورة ق ·

فينطق الله تعالى جهنم فترد على خطاب ربها ، كما تنطق الجوارح شاهدة على العبد يوم القيامة · وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوى بعضها الى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشىء الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة » والقدم هنا قوم يقدمهم الله الى النار · أو من سبق فى علمه أنه من أهل النار ·

يراجع تفسير القرطبى ج ٧ ص ٦١٨٩ ·

(١) الآية الأولى هى الآية ١٠٩ من سورة الكهف ، والآية الثانية ٢٧ من سورة لقمان والله تبارك وتعالى قد أخبر فيهما ان كلامه لا نهاية له وبين سبحانه وتعالى للناس انه لو جعلت كل أشجار الأرض أقلاما وجعل ماء البحر مدادا وأمد هذا البحر من بعده سبعة أبحر ، والعدد سبعة هنا لا مفهوم له فليس على حقيقته وانما هو عدد تقريبى لو صار الأمر كذلك · من أقلام ومداد [illegible] الأقلام وذلك المداد لا تكفى لتسطير وكتابة كلمات الله سبحانه وتعالى · ولا يخفى أن ما أخبرنا الله تعالى به وما أنزله سبحانه

=

وتقييد اللفظ العربى بكونه الموحى به الى رسـول الله ـ صلى الله

على رسله وأنبيائه محدود وهو بعض من كلام الله تعالى غير المحدود والذى لا تحيط به المعارف والعلوم ٠

قال ابن عباس : « كلمات ربى » أى مواعظ ربى ٠ وقيل عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى ، وعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فرائد الكلمات وقيل : المراد بكلمات الله عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته ٠

وحمل الآية على الكلام القديم أولى ، اذ المخلوقات لابد لها من نهاية فاذا نفيت النهاية عن مقدوراته فهو نفى النهاية عما يقدر فى المستقبل على ايجاده ، فأما حصره الوجود وعده فلابد من تناهيه ، والقديم لا نهاية له على التحقيق ٠ وقال أبو على : المراد بالكلمات ـ والله أعلم ـ مافى المقدور دون ما خرج منه الى الوجود ٠٠ وانما الغرض الاعلام بكثرة معانى كلمات الله ، وهى فى نفسها غير متناهية ، وانما قرب الأمر على أفهام البشر بما يتناهى لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة ، لأنها تنفد بأكثر من هذه الأقلام والبحور ٠

وقال أبو جعفر النحاس: يراد بالكلمات ها هنـا العـلم وحقائق الأشياء ، لأنه عز وجل علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شىء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو ، ومافى الشـجرة من ورقة ومافيها من ضروب الخلق ، وما يتصرف فيه من ضروب الطعم واللون ، فلو سمى كل دابة وحدها ، وسمى أجزاءها على ما علم من قلبها وكثيرها وما تحولت عليه من الأحوال ، وما زاد فيها فى كل زمان ، وبين كل شجرة وحدها وما تفرعت اليه ، وما قد ييبس من ذلك فى كل زمان ، ثم كتب البيان على كل واحد منها ، ما أحاط الله جل ثناؤه به منها ، ثم كان البحر مدادا لذلك البيان الذى بين الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء يمده من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر ٠ وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » قالوا : وكيف وقد أوتينا التـوراة ، ومن أوتى التـوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت الآية « قل لو كان البحر ٠٠٠ »

يراجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤١٠٧ ، جـ ٦ ص ٥١٥٨ ٠

عليه وسلم باللفظ والمعنى يخرج ما أوحى به الى الرسـول بالمعنى فقط من الأحاديث النبوية التى تلقى الرسول - صلى الله عليه وسلم معناها من عند الله - سبحانه وتعالى وصاغ هذه المعانى فى ألفاظ من عنده - صلى الله عليه وسلم - وهذا النوع من الأحاديث النبوية يسمى بالقسم التوقيفى - أو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم استلهم معناها من كل ما يحيط به وما له من معرفة وخبرة وفكر ورأى ثم حدث أصحابه بهذا الفكر وبين لهم هذا الرأى ، وهذا النوع من الأحاديث يسمى بالأحاديث التوفيقية • وهى أيضا تعد مما أوحى الله تعالى بمعانيها للرسـول - صلى الله عليه وسلم - اذ الوحى يشـمل أيضـا ما يلهم به الرسـول أو يرتاح اليه فكره أو ما يطمئن اليه رأيه وتوافقه السـماء عليه باقراره وعدم انزال شئ ينسخه أو يلغيه •

ذلك كله لفظه من عند الرسول صلى الله عليه وسلم • لذا تجوز روايته بالمعنى عند عدم حفظ لفظه والتـأكد من أن هـذا اللفظ هو الذى قاله سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - بل ان من العلماء من يصل به ورعه الى القول عند رواية كل حديث - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - ما معناه كذا وكذا ويروى الحديث الشريف •

أما القرآن الكريم فان لفظه ومعناه من عند الله - سبحانه وتعالى - ولا تجوز روايته بالمعنى مطلقـا ولا ينسـب الى الله العلى العظيم ولا يخفى أيضا أن القيد الذى معنا هنا يخرج كذلك الحديث القدسى الذى أوحى الى الرسول صلى الله عليه وسلم - بمعناه ونسبه الرسول الى ربه - سبحانه وتعالى - مع أن لفظه من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم -

والقول بأن الحديث القدسى منزل بمعناه فقط وان لفظه من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو رأى جمهرة من المحدثين ووجهه نظرهم فى القول بهذا أن الحديث القدسى لم يرد عليه ما ورد على القرآن الكريم من

تحدى العرب بل الانس والجن على أن يأتوا بمثله أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة واحدة وقد ورد هذا التحدى صريحا للمشركين فى قول الله - سبحانه وتعالى - : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الاسراء بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن القرآن الكريم معجز للانس والجن وهم أعجز ما يكون أمام بلاغة القرآن ولا يستطيعون الاتيان بمثله حتى ولو اجتمعوا وناصر الجن الانس وتعاونوا على محاولة الاتيان بمثل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالقرآن حجة عليهم ومعجز لهم .

والمعجزة ما يعجز البشر عن الاتيان بمثلها ويشترط لكونها معجزة هذه الشروط .

أولا : أن تكون مقدورة لله تعالى وحده ، ولايستطيع أحد من المخلوقين أو جميعهم الاتيان بمثلها . اذ لو استطاعوا ذلك لما عادت معجزة .

ثانيا : أن تكون خارقة للعادة ، فلو كانت موافقة للعادة لما عدت معجزة فمن زعم أنه هو الذى يجىء بالليل بعد النهار،وأنه هو الذى يجعل الشمس تشرق من المشرق وتغرب فى جهة المغـرب فان هذا الزعم لا يعد معجـزة ، لأن العادة قد جرت بذلك وهذه الأفعال وان كانت مقدورة لله تعالى وحده الا أن ما يدعيها لنفسه لا تعد معجزة له ، لأن العادة جرت بها .

ثالثا : أن يستدل بها على وجود الله وأنه وحده هو المعبود بحق .

رابعا : أن تأتى موافقـة دعوى المتحـدى . لأنها لو جاء على عكس ما ادعاه لأظهرت كذبه وبهتانه . ولقد تفل مسيلمة الكذاب فى العين المصابة فعميت السليمة .

خامسا : الا يأتى أحد بمثل ما أوتى به المتحدى على وجه المعارضة .

وفى قوله سبحانه وتعالى : « أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (١) .

ولما عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن وعجزهم معلوم لله تعالى تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بعشر سور فقال تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين »(١)

=

ومن هنا عجز الجميع عن الاتيان بمثل القرآن . فالقرآن معجزة خالدة وقد رد الله تعالى بهذه الآيات على المشركين الذين قالوا : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ... » فأبطل قولهم وتحداهم فعجزوا .

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الطور . « أم يقولون تقوله » أى افتعله وافتراه . والتقول تكلف القول . ويستعمل فى الكذب غالبا . فأم الأولى للانكار . والثانية للايجاب أى ليس كما يقولون . والضمير في مثله قيل يعود على القرآن . أى بقرآن يشبهه ، وقيل يعود على النبى ـ صلى الله عليه وسلم .

يراجع تفسير القرطبى ص ٦٢٤٣ .

(١) الآية ١٣ من سورة هود . وقبل هذه الآية قول الله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » والكلام هنا فيه استبعاد أن عدم تبليغهم بأن آلهتهم لا تملك نفعا ولا ضرا . وتأكيد على أنه صلى الله عليه وسلم مبلغ كل ما أنزل اليه من ربه .

« أم يقوون افتراه » « أم » بمعنى بل ، أى قد أزحت علتهم وأشكالهم فى نبوتك بهذا القرآن ، وحجتهم به ، فان قالوا : افتريته ـ أى اختلقته ـ فليأتوا بمثله مفترى بزعمهم « وادعوا من استطعتم من دون الله » أى من لا ينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

ولما ظهر لهم عجزهم عن الاتيان بعشر سور أراد الله تعالى أن يزيدهم خزيا فقال تعالى : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » (١) ٠

وقال تعالى : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » (٢) ٠

تحدى العرب وانس والجن على الاتيان بذلك يقتضى انزال القرآن بلفظ ومعناه من عند الله تعالى ٠

---

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة « ريب » أى شك ٠ والمراد المشركون ، فانهم لما سمعوا القرآن قالوا ما يشبه هذا الكلام ٠ « على عبدنا » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ـ والعبد مأخوذ من التعبد وهو التدلل لله تعالى « فأتوا بسورة » أمر معناه التعجيز،لأنه تعالى علم عجزهم « مثله » الضمير يعود على القرآن عند جمهور العلماء ٠ وقيل يعود على التوراة والانجيل ، فالمعنى : فأتوا بسورة من كتاب مثله فانها تصدق ما فيه ٠ وقيل يعود على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمعنى من بشر أمى مثله لا يكتب ولا يقرأ ٠ « ان كنتم صادقين » فيما قلتم من أنكم تقدرون على المعارضة ، لقولهم فى آية أخرى : « لو نشاء لقلنا مثل هذا »

تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٠٠ ٠

(٢) الآية ٣٨ من سورة يونس ٠ والمعنى : أيقولون افتراه أى اختلقه من قبل نفسه ، فهو استفهام للتقريع ٠ والآية السابقة على هذه الآية فى نفس السورة دلت على كون القرآن من عند الله ، وهذه الآية الزام بان يأتوا بسورة مثله ان كان مفترى ٠

تفسير القرطبى ج ٤ ص ٣١٨٣ ٠

أما الحديث القدسى فليست هذه خاصية من خصائصه بل هو قد اتى ببعض الأمور التعبدية والحث على عبادة الله والرجوع اليه وهذه أشياء يمكن تحصيلها عن طريق الايحاء الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمعناها فقط ويترك له التعبير عن هذه المعانى بألفاظ من عنده ٠

أما اسناد هذه الأحاديث الى الله سبحانه وتعالى فانه لا يقوم دليلا على كون لفظها من عند الله لجواز أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك ليبين بعض ما أوحى اليه من المعانى التى أمر بتبليغها الى الناس عن ربه ٠

وقد جرى ذلك فى القرآن نفسه عندما يحكى لنا ربنا ـ سبحانه وتعالى ما كان من فرعون (١) وقارون (٢) وسليمان (٣) وابراهيم (٤) بل ومن

---

(١) جاءت آيات كثيرة فى القرآن الكريم يحكى الله سبحانه وتعالى فيها ما كان من قول على لسان فرعون ٠ وهذا القول وان اسند الى فرعون فانه اسناد مجازى ، لأن فرعون قال كلاما غثا جاءت فيه المعانى التى أتت بها الآيات القرآنية مثل قول الله تعالى « وقال فرعون ائتونى بكل سحار عليم » الآية ٧٩ من سورة يونس « فقال له فرعون انى لأظنك ياموسى مسحورا » الآية ١٠١ من سورة الاسراء ٠« ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » الآية ٥١ من سورة الزخرف ٠

٢ ـ حكى الله تعالى ما كان من قارون عندما نصحه قومه بأن يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة فرد عليهم بقوله « قال انما أوتيته على علم عندى » ٧٨ القصص ٠

(٣) « وورث سليمان داوود وقال أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين » الآية ١٦ من سورة النمل ٠

(٤) « ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال

=

النملة (١) وما الى ذلك ٠

ولا يرد على ذلك بالخلط بين الحديث القدسي والحديث النبوي مادام معناهما من عند الله - تعالى - ولفظهما من عند الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - قد ميز بين الاثنين ، اذ قد نسب ما نزل على أساس أنه حديث قدسي نسبه الى الله - سبحانه وتعالى -

أما ما كان من حديث نبوي فانه صلى الله عليه وسلم لم يشر الى أنه غير ذلك ٠

كما لايخفى أن الحديث النبوي يشمل في بعض تعاريفه ما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير أو وصف ، ورأى البعض أن ما ورد عن الخلفاء الراشدين يعد من السنة اذ قد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم باتباعهم فقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ٠٠٠ » ٠

هذا وبصفة عامة فان الأحاديث كلها بجمعها - قدسية أو نبوية - معناها من عند الله جميعها فالوحي مصدرها ، وليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم حديث الا ومصدره الوحي ، سواء أكان قد أوحى اليه بمعناها

=

ابراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال ابراهيم فان الله يأت بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » الآية ٢٥٨ من سورة البقرة ٠

(١) « حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » الآية ١٨ من سورة النمل ٠

ابتداء أو انشرح له صدره وأقره الله عليه ولم يأت ما ينسخه انتهاء ·
وصدق الله العلي العظيم : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديدا لقوى » (١) ·

وحتى على الرأى القائل : أن من الأحاديث القدسية ما أوحى للرسول - صلى الله عليه وسلم - باللفظ والمعنى - فان مثل هذه الآحاديث تخرج بقيد كون القرآن متعبدا بتلاوته ، والأحاديث القدسية ليست لها هذه الخاصية · فلا يجوز للمصلى أن يقرأ بعد الفاتحة شيئا من الأحاديث القدسية وهو فى الصلاة كما أنها تخرج بقيد التحدى بها واعجاز الانس والجن عن الاتيان بمثلها لأن الله تبارك وتعالى لم يجعل هذه الخاصية الا للقرآن الكريم ولا يخفى أيضا أن من يجحد شيئا من القرآن الكريم أو ينكره ولا يعترف بأنه قرآن من عند الله تعالى اعتبر كافرا وطبقت عليه أحكام الكافر ، وعومل معاملته ، فلو كان قبل انكاره قد أعلن اسلامه فانه بهذا الانكار يعد مرتدا ويعامل معاملة المرتدين هذا بالنسبة لمن ينكر شيئا من القرآن ·

أما من ينكر شيئا من الأحاديث القدسية فانه لا يعد كافرا نتيجة انكاره هذا ، وان اعتبر مسلما عاصيا ، اذا كان ما ينكره من الأحاديث القدسية قد وردت من طريق حسن ·

---

(١) الآيات ٣ -٥ من سورة النجم · أى ما ينطق بالقرآن عن هواه وما يخرج نطقه عن رأيه انما هو بوحى من الله - عز وجل - وفيه دلالة على أن السنة كالوحى المنزل - القرآن - فى وجوب العمل بها والالتزام بما جاءت به من أحكام ·

يراجع تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٦٢٥٥ ·

والمراد بالانكار هنا انكار الألفاظ ، أما انكار ما جاءت به من أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو غير ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة ، فان ذلك أمر يختلف باختلاف درجة علمه من الدين بالضرورة ، وكذا باختلاف النص عليه والزام المسلمين به الزاما عينيا اذ أن انكار شيء من هذا يترتب عليه الزام المنكر تبعة انكاره وهى تزيد زيادة طردية وقد تصل بالمنكر الى الكفر – نعوذ بالله تعالى منه ، ونسأله تعالى العفو والعافية فى الدين والدنيا ، فى أولانا وأخرنا « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين » (١) .

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (٢) .

« رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى » (٣) .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر . وروى عن ابن مسعود قال : قلنا يا رسول الله ... كيف انشرح صدره ؟ . قال : « اذا دخل النور القلب انشرح وانفتح قلنا يا رسول الله وما علامة ذلك ؟ قال : « الانابة الى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور . والاستعداد للموت قبل نزوله » .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام . « الرجس » ما لاخير فيه ، وقيل النتن . والمعنى والله أعلم . ويجعل اللعنة فى الدنيا والعذاب فى الآخرة «على لذين لا يؤمنون » .

(٣) الآيات ٢٥ – ٢٩ من سورة طه .

الفصل الأول

القرآن الكريم

من بداية نزوله حتى خلافة عثمان

رضى الله عنه

ونظر لما يقتضيه المقام هنا من حديث عما سبق نزول القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكذا عن فترة نزول القرآن الكريم ابان عصر الرسالة ، وما صاحب ذلك من أمور تتصل بقراءة القرآن ونطق بعض كلماته بلهجات بعض القبائل تخفيفا وتيسيرا ثم ما جاء بعد ذلك من مسائل ترتيب القرآن وجمعه ، وكذا نسخ المصاحف وارسالها للامصار الاسلامية ، لذا كله قسمت الحديث فى هذا الفصل الى مبحثين :

الأول : ويتناول فى عجالة ميسرة نزول القرآن الكريم ٠

أما الثانى : فيلمس برفق البناء القرآنى من حيث الترتيب والجمع ٠

المبحث الأول

نزول القرآن الكريم

ولما كان الحديث عن نزول القرآن الكريم يقتضى الاشارة الى ما جاء عن نزول القرآن أولا الى سماء الدنيا ، ثم نزوله مفرقا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبعـا للظـروف والأحداث ، ثم ما واكب ذلك من التخفيف والتيسير على من اعتادوا تخفيف بعض الحروف ، أو اشباع بعضها وما الى ذلك مما جاء من حديث انزال القرآن على سبعة أحرف ٠

من هنا قسمت الحديث فى هذا المبحث الى المطالب الآتية :

المطلب الأول : نزول القرآن الكريم جملة واحدة ٠

المطلب الثانى : نزول القرآن مفرقا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

المطلب الثالث : نزول القرآن على سبعة أحرف ٠

المطلب الأول :

نزول القرآن الكريم جملة واحدة

أراد الله سبحانه وتعالى بالبشرية خيرا ، ولمسار الحياة ارشادا وتوجيها وتصحيحا ، فكانت رسالة سـيد ولد آدم على الاطلاق ، سـيدنا وحبيبنا الرحمة والنور ، السراج المنير ، أشرف الخلق ، سـيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ الذى شرفه ربه وكرمه ، وعلمه وأدبه ، وأنزل عليه القرآن الكريم خير كتاب على الاطلاق وأشرف كلام فوق السبع الطباق ، شرفه على كل الكلام ، كشرف من هو كلامه على سائر خلقه ۰

ولقد حدثنا القرآن الكريم فى بعض آياته عن الوقت الذى نزل فيه ، فقال الله سبحانه وتعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » (١) ۰

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة البقرة ۰ ورد أن الله تعالى كتب رمضان على كل أمة وقيل ان أول من صام رمضان نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ وذلك بعد أن خرج من السفينة ۰ ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض اذا احترق جوفه من شدة العطش ۰ وقيل سمى رمضانا ، لأنه يرمض الذنوب أى يحرقها بالأعمال الصالحة ، من الارماض وهو الاحراق ۰ وجاء فى فضله ما رواه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ قال : اذا جاء رمضان فتحت أبوا ب الرحمة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين » وروى النسـائى عن أبى هريرة قال : قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أتاكم رمضان شهر مبارك ، فرض الله ـ عز وجل ـ عليكم صـيامه تفتح فيه أبواب السماء ، وتغلق فيه أبواب جهنم ، وتغل فيه مردة الشياطين =

وقال تعالى : « حم • الكتاب المبين • انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين • فيها يفرق كل أمر حكيم • أمرا من عندنا انا كنا مرسلين • رحمة من ربك انه هو السميع العليم » (١) •

= لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم» • وروى النسائى عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ : « ان الله تعالى فرض صيام رمضانا • وسننت لكم قيامه • فمن صامه وقامه ايمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » • « الذى أنزل فيه القرآن » دلالة نصية على أن القرآن نزل فى شهر رمضان • وقول الله تعالى : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » دليل نصى أيضا على أن ليلة القدر هى احدى ليالى رمضانا •

(١) الآيات ١ ـ ٦ من سورة الدخان • الهاء فى قوله تعالى : « انا أنزلناه » للقرآن الكريم والليلة المباركة هى ليلة القدر • ويقال : ليلة النصف من شعبان وقد ورد لها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة وليلة الصك ، وليلة القدر • ووصفها الله تعالى بالبركة لما ينزل الله تعالى فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب •

وروى قتادة عن واثلة أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «أنزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، وأنزلت الزبور لاثنتى عشرة من رمضان ، وأنزل الانجيل لثمان عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان » •

وقد أورد ابن حجر ما أخرجه أحمد والبيهقى هذا الحديث برواية =

وقال تعالى : انا أنزلناه فى ليلة القدر • وما أدراك ما ليلة القدر • ليلة القدر خير من ألف شهر • تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل

= مختلفة ، وفيها «••• الانجيل لثلاث عشرة خلت منه ، والزبور لثمان عشرة خلت منه ••• »

« فيها يفرق كل أمر حكيم » قال ابن عبـاس : يحكم الله أمر الدنيا الى قابل فى ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق • وقيل: الا الشقاء والسعادة فانهما لا يتغيران ، وقيل انها ليلة النصف من شعبان ، وهو قول مردود لأن القرآن الكريم بين بالعبارة الصريحة الواضـحة أن الله تعالى أنزل القرآن فى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » • وبين أيضا ان ليلة القدر هى التى نزل القرآن فيها فقال تعالى : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » •

أما ما ورد من أحاديث فى شأن ليلة النصف من شعبان فان من علماء الحديث من ضعفها ، لأنها وردت مرفوعة من حديث الحجاج بن أرطأة عن يحيى بن أبى كثير عن عروة ، ويحيى بن أبى كثير لم يسمع من عروة كما أن الحجاج هذا لم يسمع من يحيى أيضا ••

وروى حماد بن سلمة قال : أخبرنا ربيعة بن كلثوم قال : سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال : يا أبا سعيد ، أرأيت ليلة القدر أفى كل رمضان هى ؟ قال : أى والذى لا اله الا هو ، انها فى كل رمضان ، انها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضى الله كل خلق وأجل ورزق وعمل الى مثلها • وقال ابن عباس : يكتب من أم الكتاب فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج ، يقال : يحج فلان • وقال فى هذه الآية : انك لترى الرجل يمشى فى الأسواق وقد وقع اسمه فى الموتى ، وهذه الابانة لأحكام السنة انما هى للملائكة الموكلين بأسباب الخلق.

يراجع تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٥٩٤٦ وما بعدها •

أمر • سلام هى حتى مطلع الفجر» • (١) •

---

(١) سورة القدر • « ليلة القدر » ليلة الحكم ، سميت بذلك ، لأن الله تعالى يظهر فيها ما قضاه قديما من أمره الى مثلها من السنة القابلة ، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره ، ويسلمه الى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة :

اسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ، عليهم السلام •••

وقيل سميت بذلك ، لأن للطاعات فيها قدرا عظيما جزيلا • وقيل سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصر فى هذه الليلة ذا قدر ، اذا أحياها • وقيل ، لأنه أنزل فيها كتابا ذا قدر ، على رسول ذى قدر ، على أمة ذات قدر • أو لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة •••

وقيل : عنى بألف شهر جميع الدهر • أو لأن العابد لا يستحق التسمية بهذا الاسم الا اذا عبد الله ألف شهر ، فجعل الله تعالى لأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — عبادة ليلة خيرا من ألف شهر كانوا يعبدونها •

وقيل : كان ملك سليمان خمسمائة شهر ، وملك ذى القرنين خمسمائة شهر ، وجعل الله تعالى العمل فى هذه الليلة لمن أدركها خيرا من ملكها •••

وقال عروة وعلى : ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أربعة من بنى اسرائيل فقال : « عبدوا الله ثمانين سنة لم يعصوه طرفة عين » ••• فعجب أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — من ذلك فأتاه جبريل فقال : يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين ، فقد أنزل الله عليك خيرا من ذلك ، ثم قرأ « انا أنزلناه فى ليلة القدر » أى تنزل من سدرة المنتهى الى الأرض ، فيؤمنون على دعاء الناس الى وقت طلوع الفجر ، « والروح » جبريل عليه السلام، وقيل : الرحمة ينزل بها جبريل مع الملائكة عليهم السلام • فيسلمون على كل مسلم • عن أنس قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم — : « اذا كان ليلة القدر نزل جبريل فى كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى وعن ابن عباس أن =

فالآية الأولى حدثتنا عن نزول القرآن الكريم وبينت لنا أنه نزل فى شهر رمضان ٠

أما الآية الثانية فقد دلت على أن القرآن الكريم أنزل فى ليلة مباركة واكتفت هذه الآية بوصف الليلة بانها ليلة مباركة يفرق الله فيها كل أمر ويحكم ، ولم تحدد لنا هذه الآية الليلة التى نزل فيها القرآن الكريم ٠

أما الآية الثالثة فقد أوضحت أن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن فى ليلة القدر ٠ وأن هذه الليلة التى شرفت بنزول القرآن الكريم فيها ، ميزت عن سائر ليالى شهر رمضان ، وساوت فى منزلتها وما فيها من نفع وأجر أحيائها بالعبادة والطاعة ، ساوت فى ذلك ألف شهر ، ولا عجب فى ذلك فقد اختصها الله بنزول أشرف وأكرم وأكمل كتاب فيها ، وأن لله تعالى فى خلقه خواص ، فى الأزمنة والامكنة والأشخاص (١) ٠

=

النبى صلى الله عليه وسلم قال «اذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى ، منهم جبريل ، ومعهم الوية ينصب منها لواء على قبرى ولواء على بيت المقدس ؛ ولواء على المسجد الحرام ، ولواء على طور سيناء ، ولا تدع فيها مؤمن ولا مؤمنة الا تسلم عليه الا مدمن الخمر وأكل لحم الخنزير والمتضمخ بالزعفران » ٠

وقالت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : يارسول الله ان وفقت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : « قولى اللهم انك عفو تحب العفو فاعف عنى »

القرطبى ج ٨ ص ٧٢١٩ وما بعدها ٠

(١) أما عن الأزمنة فقد سبق الحديث عما لليلة القدر من منزلة عالية على باقى ليالى شهر رمضان ٠ وكذا فان لرمضان ميزة ومنزلة خاصة على شهور العام ، بدليل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن أمته لو

=

والآيات الثلاث تشير الى أن القرآن الكريم قد نزل جملة واحدة ، الى سماء الدنيا ، ثم أنزل مفرقا على سيدنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ثلاث وعشرين سنة ، طبقا للاحوال والأسباب والظروف ، ورحمة من الله تعالى بخلقه ، ومواكبة لسير الدعوة واصلاح العقيدة وانشاء الدولة الاسلامية وسط هذا الخضم المتلاطم من الفساد والظلم ، والاستعباد ، حتى لا تكاد ترى قبل قيام هذه الدولة المؤمنة ولا تقع عينك الا على صنم قد هام في صنم • الكل يعب في نهم هذا بالنسبة للطبقة المتسلطة والآخرون مقهورون لا حول لهم ولا قوة •

من هنا اقتضت عناية الله تعالى انزال القرآن منجما على الرسول الأمين تثبيتا لقلبه ، ووصلا لروحه ، وانشراحا لصدره وانارة لطريق المسلمين ، ومواكبة لمسيرتهم المؤمنة من يوم أنزل الله تعالى « اقرأ » وحتى آخر آية نزلت من الكتاب الكريم •

وللعلماء أقوال ثلاثة في كيفية انزال القرآن الكريم من اللوح المحفوظ

الأول : أن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن العظيم جملة واحدة من اللوح

=

علمت ما في رمضان لتمنت أن تكون السنة كلها رمضانا • هذا بالنسبة لتفضيل بعض الازمنة على بعض •

أما الأمكنة فان الاجماع انعقد على أن أفضل بقع الأرض على الاطلاق المكان الذى ضم جسد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في مكة وعلى أن مكه والمدينة أفضل بقاع الأرض بعده ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة : « والله انك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله الى الله •• » وجاء في الصحيح قول الرسول — صلى الله عليه وسلم —: صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام» أما عن الأشخاص فالكلام يطول• وصدق الله العظيم « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » « ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا »

المحفوظ الى سماء الدنيا والى بيت العزة وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة الكرام الكاتبين ، ثم كان الأمين جبريل ـ عليه السلام ينزل به على سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نجوما ، وكان بين نزول أوله ونزول آخره ثلاث وعشرون سنة (١) ·

يشير الى هذا ما أخرجه النسائى وأبو عبيد والحاكم من وجه آخر عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا فى ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة · وقرأ :«وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا» (١) ·

---

(١) أخرج ابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن محمد بن أبى المجالد عن مقسم عن ابن عباس : انه سأل عطية بن الأسود فقال أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » وقوله : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » وهذا أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس انه انزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام قال أبو شامة قوله رسلا أى رفقا ، وعلى مواقع النجوم أى على مثل مساقطها يريد أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على ما وقع مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق ·

وذكر السيوطى أن أصح الأقوال فى كيفية انزال القرآن من اللوح المحفوظ أنه نزل الى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ثم انزل بعد ذلك منجما فى عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف فى مدة اقامته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة بعد البعثة ·

يراجع الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ٦٨ طبعة سنة ١٩٤١ م

(١) الآية ١٠٦ من سورة الاسراء · « فرقناه » بتخفيف الراء ، ومعناه بيناه وأوضحناه ، وفرقنا فيه بين الحق والباطل · قاله الحسن ·

وقال ابن عباس : فصلناه · وقرأ ابن عباس وعلى ابن مسعود وأبى بن كعب وقتادة وأبو رجاء والشعبى « فرقناه » بالتشديد ، أى أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملة واحدة ·

=

القول الثاني أن القرآن الكريم أنزله الله تعا من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى ليالى القدر من سنوات حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

=

واختلف فى كل كم نزل القرآن من المدة ، فقيل فى خمس وعشرين سنة وابن عباس فى ثلاث وعشرين سنة · وأنس فى عشرين سنة · وهذا بحسب الخلاف فى سن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا خلاف أنه نزل الى السماء الدنيا جملة واحدة ·

« على مكث » أى تطاول فى المدة شيئا بعد شيء · ويتناسق هذا القرآن على قراءة بن مسعود ، أى أنزلناه آية آية وسورة سورة · وأما على القول الأول فيكون « على مكث » أى على ترسل فى التلاوة وترتيل ·،· فيعطى القراءة حقها من ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤد الى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فان ذلك حرام ·

وذكر القرطبى أنه لا خلاف أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ فى ليلة القدر فى شهر رمضان جملة واحدة ،، فوضع فى بيت العزة فى سماء الدنيا ثم كان جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل به نجما نجما فى الأوامر والنواهى والأسباب ·

وأخرج الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة الى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعضه فى أثر بعض وزاد ابن أبى حاتم فى آخره · فكان المشركون اذا أحدثوا شيئا أحدث الله لهم جوابا ·

وأخرج الطبرانى والبزار من وجه آخر عنه قال : أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ونزله جبريل على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجواب كلام العباد وأعمالهم ·

يراجع تفسير القرطبى ج ٥ ص ٣٩٥٥ ، ج ١ ص ٦٧٣ ، فتح البارى ج ٩ ص ٤ ، الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٦٨ ·

التى بعث فيها وظل يدعو الى عبادة الله الواحد القهار وينشر شريعة الاسلام السمحة ·

وهذه المدة التى نزل فيها القرآن على الرسول — صلى الله عليه وسلم — عدها البعض عشرين سنة · وآخرون عدوها ثلاثا وعشرين سنة ، وبعض آخر عدها خمسا وعشرين سنة ·

وكان ينزل فى ليلة القدر من كل سنة من القرآن الكريم ما يعلم الله تعالى أنه سينزل فى تلك السنة ، ينزله من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم ينزل من سماء الدنيا على الرسول — صلى الله عليه وسلم — على مدار هذه السنة ما نزل فى ليلة القدر منها :

وذكر هـذا الرأى الفخر الرازى وأورده القرطبى وابن كثير · وقال بهذا الرأى مقاتل والماوردى وابن شهاب (١)

والقول الثالث يوافق هذا القول فى جملته ويخالفه فى قليل ومؤداه أن القرآن الكريم بدأ نزوله من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات · طبقا للحوادث والمسائل ومالى ذلك (٢) ·

---

(١) أورد السيوطى هذا بقوله : أنزل القرآن الى السماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين فى كل ليلة ما يقدر الله انزاله فى كل سنة ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة · وهذا القول ذكره الفخر الرازى بحثا فقال : يحتمل أنه كان ينزل فى كل ليلة قدر ما يحتاج الناس الى انزاله الى مثلها من اللوح الى السماء الدنيا ·
يراجع الاتقان فى علوم القرآن ج ١ ص ٦٩ وذكر ابن حجر مثل هذا وذكر أنه ورد عن ابن الأنبـارى من طرق ضـــعيفة ومنقطعة · يراجع فتح البارى ج ١٩ ص ٤ ·

(٢) يراجع فى هـذا ما ورد فى المراجع الســابقة وهو رأى قال به الشعبى ·

وأرجح هذه الأقوال القول الأول · لأن ظاهر النص يشهد له فالله تعالى يقول : « انا أنزلناه فى ليلة مباركة » « انا أنزلناه فى ليلة القدر » فظاهر اللفظ دال بوضوح على انزاله فى ليلة واحدة ولو كان الأمر على غير ذلك لأتى ما يشير اليه ·

كما أن حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أخرجه الامام أحمد والبيهقى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « أنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت منه ، والزبور لثمان عشرة خلت منه ، والقرآن لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان » هذا الحديث يدل على أن القرآن أنزل جملة واحدة الى سماء الدنيا ، اذ أن الكتب التى أشارت اليها الحديث قد أنزلت جملة واحدة ، وجمع القرآن معها يمثل هذه الصياغة المتفقة فى الانزال وتحديد الليلة يدل على ذلك · واذا خالف القرآن غيره من الكتب فى نزوله من سماء الدنيا على النبى - صلى الله عليه وسلم - طبقا للمشاهدة والواقع · (١) والله تعالى أعلى وأعلم ·

---

(١) حاول السيوطى استقصاء بعض ما فى انزال القرآن جملة الى سماء الدنيا من أسرار فقال : السر فى انزاله جملة الى سماء الدنيا تفخيم أمره وأمر من نزل عليه ، وذلك باعلام سكان السموات السبع ان هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، قد قربناه اليهم لننزله عليهم · ولولا أن الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به الى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله · ولكن الله باين بينه وبينها فجعل له الأمرين ، انزاله جملة ثم انزاله مفرقا تشريفا للمنزل عليه · وقال السخاوى فى جمال القراء : فى نزوله الى السماء جملة تكريم

المطلب الثانى :

نزول القرآن الكريم منجما

مكة البلد الحرام يحج اليه الناس من كل فج عميق ـ استجابة لدعاء سيدنا ابراهيم عليه السلام يوم ترك ولده اسماعيل وأمه السيدة البارة ـ هاجر ـ المصرية عليها السلام فى وسط الصحراء الجرداء ، التى لا نبت بها ولا ماء ، ثم توجه الى الله تبارك وتعالى داعيا راجيا منه وحده العناية والرعاية للمولود ووالدته ، يحكى القرآن الكريم هذا الدعاء الذى دعا به ابراهيم ربه «ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم

بنى آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة . وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم ، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفا من الملائكة أن تشيع سورة الأنعام ، وزاد سبحانه فى هذا المعنى بأن أمر جبريل باملائه على السفرة الكرام وانساخهم اياه . وتلاوته له . قال : وفيه ايضا التسوية بين نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين موسى عليه السلام فى انزاله كتابه جملة والتفضيل لمحمد فى انزاله عليه منجما ليحفظه .

وقيل : ان بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت رحمة فلما خرجت الرحمة بفتح الباب جاءت بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، فوضع القرآن ببيت العزة فى السماء الدنيا ليدخل فى حد الدنيا ووضعت النبوة فى قلب محمد ، وجاء جبريل بالرسالة ثم الوحى ، كأنه أراد تعالى أن يسلم هذه الرحمة التى كانت حظ هذه الأمة من الله الى الأمة .

يراجع الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ٧٠ .

يشكرون » (١) ٠

ويعمر المكان ويبنى ابراهيم وولده اسماعيل الكعبة ، ويحج الناس اليها من كل فج عميق ٠

---

(١) الآية ٣٧ من سورة ابراهيم ٠ روى البخارى عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل ، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندها جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شيء ، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت له آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ٠ قالت اذا لا يضيعنا ، ثم دعا لهما حتى اذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها. وجعلت تنظر اليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر اليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ٠٠ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الانسان المجهود ، ثم جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ٠٠ سبع مرات فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : قد سمعت ان كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها ـ هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها ، وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس : قال النبى ـصلى الله عليه وسلمـ : «يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا» فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة فان ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله ٠

يراجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٥٩٧ ٠

وتحول العبادة بفعل الابالسة من بنى البشر الى سجود للاصنام وعبادة للأحجار من دون الله تبارك وتعالى • ويهوى الانسان الذى كرمه الله وخلقه فى أحسن تقويم ، يهوى الى أسفل سافلين يعبد شيطانه ويتخذ الاهه هواه ، ويغتر بقوته وسطوته ، ويفسد كل شيء ، حتى الطواف بالبيت والصلاة عنده ، غدت شكلا من أشكال الفساد العقلى والعقائدى ، فبعد أن كانت خشوعا وخضوعا لله الواحد الأحد ، غدت مكاء وتصدية ، ورقصا وهرجا ومرجا من غير مراعاة حرمة البيت وقدسيته ، ولقد وصف القرآن الكريم جانبا من هذا المجون الذى انحط القوم فيه وبه فقال تعالى : «وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون»(١) وليس ذلك فقط ، بل قهر القوى الضعيف واستعبده واستذله ، وأكل

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنفال • قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفقون ويصفرون ، فكان ذلك عبادة فى ظنهم • والمكاء الصفير • والتصدية : التصفيق ، ومنه مكت است الدابة • اذا نفخت بالريح قال السدى : المكاء الصفير ، على نحو طائر أبيض بالحجاز يقال له : المكاء •

قال قتادة : المكاء : ضرب بالايدى ، والتصدية صياح •

وعن مجاهد أنه قال : المكاء ادخالهم أصابعهم فى أفواههم ، والتصدية : الصفير •

يراجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٢٨٣٦ •

يقول أبو البركات النسفى فى تفسيره لهذه الآية : وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة وهم مشبكون بين أصابعهم ، يصفرون فيها ويصفقون وكانوا يفعلون نحو ذلك اذا قرأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى صلاته يخلطون عليه •

يراجع تفسير النسفى جـ ٢ ص ١٠٣ ط دار احياء الكتب العربية •

الغنى الفقير وسلبه كل حق حتى حريته وأهله وذويه ، وفى وسط هذا الظلام الحالك ، والظلم المظلم ، والشرك الكافر ، لابد وأن يظهر نور السماء وتسطع شمس الحق ويشرق الهدى من جديد من هنا بدأ محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - يبحث عن الهدى ، وينشد نور المعرفة ، وينفرد بنفسه يفكر ويعبد الله على ما بقى من دين ابراهيم عليه السلام ٠

وهناك فى الغار كان مولد النور ومشرق الهدى ، وصبح الحق ياله من غار على شاهق جبل ، نزلت فيه أعلى وأغلى وأرفع وأشمخ القيم ، سماحة ، ولطفا ، وصفاءا ، وبلسما يشفى سقم القلوب٠

تقول الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهما - فيما يرويه البخارى : « أول ما بدىء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ٠ فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح (١) ثم حبب اليه الخلاء (٢) ، وكان يخلو بغار حراء (٣) فيتحنث فيه (٤) ، وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق (٥) وهو فى غار حراء ، فجاءه

---

(١) فلق الصبح : ضياؤه ونوره ٠ وخص بالتشبيه نظرا لوضوح وجه الشبه فيه ٠

(٢) الخلاء : أى الخلوة ، وهى فراغ القلب لما يتوجه اليه ٠

(٣) حراء : جبل معروف بمكة والغار : ثقب فى الجبل ، وهذا الغار فى أعلى قمة هذا الجبل ، ولا يستطيع الوصول اليه الا من كانت همته عالية وصحته قوية ٠

(٤) يتحنث : أى يتحنف ، أى يتبع الحنيفية ، وهى دين ابراهيم عليه السلام ٠ والتحنث : القاء الحنث وهو الاثم ٠ وهو التعبد ٠

(٥) جاء الحق : أى الأمر الحق ، وسمى حقا لأنه وحى من الله تعالى ٠

الملك فقال : اقرأ · قال : ما أنا بقارىء · قال : فأخذنى فغطنى (١) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى · فقال : اقرأ · قلت : ما أنا بقارىء : فأخذنى فغطى الثانية حتى بلغ من الجهد ثم أرسلنى · فقال : اقرأ · فقلت ما أنا بقارىء (٢) فأخذنى فغطنى الثالثة · فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق · اقرأ وربك الأكرم » · فرجع بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد – رضى الله تعالى عنها – فقال : زملونى زملونى · فزملوه حتى ذهب عنه الروع · فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى (٣) · فقالت خديجة : كلا والله ما يحزنك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم ،

---

(١) غطنى : أى ضمنى وعصرنى · والغط : حبس النفس · ومنه غطه فى الماء ·

(٢) « ما أنا بقارىء » ثلاثا قيل له : « اقرأ باسم ربك » : أى لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك واعانته ، فهو يعلمك كما خلقك ، وكما نزع عنك علق الدم ، وغمز الشيطان فى الصغر ، وعلم أمتك حتى صارت تكتب بالقلم بعد أن كانت أمية ·

ويروى أن أول ما رأى محمد – عليه السلام – جبريل بأجياد – جبل قريب من الكعبة – صرخ جبريل : يا محمد · فنظر يمينا وشمالا فلم ير شيئا ، فرفع بصره فاذا هو على أفق السماء ··· ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يخطفان البصر ·

يراجع فى ذلك كله فتح البارى ج ١ ص ٥٤ ·

(٣) « خشيت على نفسى » الموت من شدة الرعب أو المرض ·

وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق (١) . فانطلقت به خديجة حتى ذهبت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرأ تنصر فى الجاهلية (٢) ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت له خديجة : يابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ماذا ترى . فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى . فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى (٣) ياليتنى فيها جذعا (٤) ،

---

(١) « كلا » للنفى والابعاد . ولقد أقسمت السيدة خديجة ودللت على ما تقسم عليه بأمر استقرائى ، اذ وصفت رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأصول مكارم الأخلاق : لأن الاحسان اما الى الأقارب أو الاجانب ، واما بالبدن أو بالمال ، واما على من يستقل بأمر أو من لا يستقل ، وذلك كله مجموع فيما وصفته به . والكل بفتح الكاف هو من لا يستقل بأمره والمعدوم ، الفقير ، وفى رواية المعدم ، ولا مانع من أن يطلق عليه المعدوم لكونه لا تصرف له . وقيل معناه : تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

« وتعين على نوائب الحق » كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم .

(٢) « تنصر » أى صار نصرانيا ، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل ، لما كرها عبادة الأوثان الى الشام وغيرها يسألون عن الدين ، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر وكان لقى ما بقى من الرهبان على دين عيسى ، ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبى - صلى الله عليه وسلم - والبشارة به الى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل .

(٣) الناموس : صاحب السر ، « على موسى » ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانيا ، لأن كتاب موسى عليه السلام - مشتمل على أكثر الأحكام . أو قاله تحقيقا للرسالة ، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب ، بخلاف عيسى ، فان كثيرا من اليهود ينكرون نبوته .

(٤) «جذعا» تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء الى الاسلام شابا ليكون =

ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك • فقال رسول الله ــصلى الله عليه وسلمــ أو مخرجى هم • قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الاعودى ، وان يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا (١) ثم لم ينشب ورقة ان توفى وفتر الوحى •

هكذا بدأ الوحى ونزول القرآن الكريم على النبى ــصلى الله عليه وسلمــ لكنه ظل لا ينزل عليه شىء بعد قول الله تعالى «اقرأ» واستمر على ذلك قرابة ثلاث سنين • فعاوده الوحى من جديد وجاء جبريل ــ عليه السلام ــ بعد هذه الفترة الثقيلة على نفس سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نظرا لتأخر الوحى وانقطاعه (٢) يحدثنا ابن شهاب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى، فقال فى حديثه• بينا أنا أمشى اذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى ، فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملونى• فأنزل الله تعالى : « ياأيها المدثر قم فانذر • وربك فكبر •

═

أمكن لنصره وفيه دليل على جواز تمنى المستحيل اذا كان فى خير ، والمراد هنا التنبيه على صحة ما أخبره •

(١) مؤزرا : أى قويا ، وفيه اشارة الى تشميره لنصرته •

« قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم » المرجع السابق •

(٢) وعن الزهرى : أول ما نزلت سورة « اقرأ باسم ربك ــ الى قوله ــ ما لم يعلم » ثم انقطع الوحى فترة ــ فحزن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وجعل يعلو شواهق الجبال ، فأتاه جبريل فقال له : « انك نبى الله » فرجع الى السيدة ــ خديجة ــ رضى الله تعالى عنها ــ وقال : « دثرونى وصبوا على ماء باردا » فنزل ــ قول الله تعالى : « يا أيها المدثر » •

يراجع تفسير القرطبى ج ٨ ص ٧٢٠٨ •

وثيابك فطهر · والرجز فاهجر » · (١) فحمى الوحى وتتابع ·

هذا ما جاء فى نزول قول الله تعالى « اقرأ » ثم نزول قول الله تعالى : « يا أيها المدثر » بعد نزول أول سورة اقرأ بحوالى ثلاث سنين ، يدل على ذلك ويرجحه على باقى الاقوال ما ورد من قول الرسول - صلى الله عليه وسلم

---

(١) الآيات من ١ - ٥ من سورة المدثر :

قوله تعالى : « يأيهـا المدثر » أى ياذا الذى قد تدثرت بثيابه ، أى تغشى بها ونام ، وأصله · المتدثر فادغمت التاء فى الدال لتجانسهما · وفى الخطاب بذلك ملاطفة من الكريم الى الحبيب اذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يامحمد ويا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه· ومثله قول النبى - صلى الله عليه وسلم - لعلى - اذ نام فى المسجد - «قم أبا تراب » وكان خرج مغاضبا لفاطمة - رضى الله عنها - فسـقط رداءه وأصابه تراب ·

« قم فأنذر » أى خوف أهل مكة وحذرهم العذاب ان لم يسـلموا · وقيل : الانذار هنا أعلامهم بنبوته ، لأنه مقدم الرسـالة · وقيل : هو دعاؤهم الى التوحيد ·

« وربك فكبر » أى سيدك ومالكك ومصلح أمرك فعظم ، وصفه بأنه أكبر من أن يكون له صـاحبة أو ولد - تعـالى الله عن ذلك - وقيل أنه لما نزل « وربك فكبر » قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : « الله أكبر » فكبرت - السيدة - خديجة - رضى الله تعالى عنها - وعلمت أنه الوحى من الله تعالى ·

« والرجز فاهجر » يعنى الأوثان · قال قتادة الرجز : اساف ونائلة وهما صنمان كانا عند البيت · فسميت الأوثان رجزا ، لأنها تؤدى الى العذاب ·

يراجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٨٥١ وما بعدها ، صحيح البخارى جـ ١ ص ٤ ، باب نزول الوحى

ـ فى الحديث السابق ذكره : « فاذا الملك الذى جاءنى بحراء » فهذا يدل على أن « اقرأ » نزلت قبل المدثر ، غير أن المدثر لما نزلت نزلت كاملة ، أما « اقرأ » فان أولها نزل بحراء وآخرها نزل بعد نزول سورة المدثر (١) ٠

وهكذا استمر القرآن الكريم ينزل منجما فى مكة أولا ثم فى المدينة وما بينهما حتى اكتمل نزوله خلال ثلاث وعشرين سـنة وهى الفترة التى عاشها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن كلف بالرسالة والدعوة لتوحيد الله وعبادته ٠

وتنقسم هذه الفترة قسمين رئيسيين :ـ

الأول فترة ما قبل الهجرة ، وهى الفترة التى استمر رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ يدعو الناس فى مكة ، دعوة سرية فى بادىء الأمر ، حتى أمر بالجهر بالدعوة : « وأنذر عشيرتك الأقربين » (٢) فبدأ يعلنها للملأ من قومه يخاطب فيهم العقول ، ويستصرخ الأفئدة والقلوب ٠ فآمن به من أراد الله به الخير ، وعانده وآذاه قوم حقت عليهم كلمة العذاب ٠

---

(١) يراجع الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٤٠ ٠

(٢) خص عشيرته الاقربين بالانذار ، لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته اياهم على الشرك ٠ وعشيرته الأقربون قريش ٠ وقيل : بنو عبد مناف ٠٠٠ وروى الامام مسلم من حديث أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال : « يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ٠ يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ٠ يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ٠ يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فانى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها » أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا ٠

جاهد الرسول قومه علهم يستجيبون لما يحييهم ، فى الدنيا والآخرة ذكرهم بآيات الله وأبلغهم ما نزل الله ودعاهم الى النظر والاعتبار «أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج • والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج • تبصرة وذكرى لكل عبد منيب • ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد • والنخل باسقات لها طلع نضيد • رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (١)

« فلينظر الانسان الى طعامه • أنا صببنا الماء صبا • ثم شققنا الأرض شقا • فأنبتنا فيها حبا • وعنبا وقضبا • وزيتونا ونخلا • وحدائق غلبا •

---

(١) « أفلم ينظروا ••• » نظر اعتبار وتفكر ، وأن القادر على ايجادها قادرر على الاعادة •

« تبصرة ••• » لتدل على كمال قدرة الله تعالى • « حب الحصيد » كل حب يحصد ويدخر ويقتات •

« والنخل باسقات » الباسقات الطوال ، وبسوقها استقامتها فى الطول •

« لها طلع نضيد » الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل • « نضيد » أى متراكب قد نضد بعضه على بعض • وفى البخارى « النضيد » الكفرى ما دام فى أكمامه •

« رزقا للعباد » أى رزقناهم رزقا • والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به •

« وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » أى من القبور ، أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم • الآيات ٦ ــ ١١ من سورة ق •

وفاكهة وأبا - متاعا لكم ولأنعامكم » (١) ٠

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم ان كيدى متين ٠ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين ٠ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (٢) ٠

---

(١) الآيات ٢٤ ـ ٣٢ من سورة عبس ٠ لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الانسان ذكر ما يسر من رزقه ، أى فلينظر كيف خلق الله طعامه ٠ وهذا النظر نظر القلب بالفكر ، أى ليتدبر كيف خلق الله قوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد ٠ وقيل فلينظر الى مدخله ومخرجه ٠ وعن الضحاك قال : قال لى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ياضحاك ما طعامك » قلت : يارسول الله اللحم واللبن ٠ قال : « ثم يصير الى ماذا» قلت الى ما قد علمته ، قال : « فان الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلا للدنيا » ٠ « حبا » أى قمحا وشعيرا وسائر ما يحصد ٠

« وعنبا وقضبا » وهو القت والعلف ٠ وعن الحسن ، سمى بذلك لأنه يقضب أى يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة ٠ «حدائق غلبا» عظاما شجرها ملتفة أغصانها « وفاكهة » ما يأكل الناس ٠ « وأبا » ما تأكله البهائم من العشب ٠ وروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : خلقتم من سبع ورزقتم من سبع ، فاسجدوا لله على سبع « خلقتم من سبع » يعنى « من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة » الآية ٠ والرزق من سبع ٠ وهو قول الله تعالى : « فأنبتنا فيها حبا » الى قوله تعالى : « وفاكهة » ٠

(٢) الآيات ١٨٢ ـ ١٨٥ من سورة الأعراف ٠

- طيبة ، طيبة المنزل والأهل والمسكن - وهى الفترة التى بدأت معالم الدولة الاسلامية تنضم وتتحدد معالمها ، وبدأت الآيات القرآنية تنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - تبين له أحكام المعاملات والعبادات والعلاقات ، وأسس بناء أمة هى خير أمة أخرجت للناس ، ما دامت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتحرص على الايمان الخالص بالله الواحد القهار وتحاول فى اصرار قهر التسلط الشيطانى ومحاربة الهوى الذى يجرى من الانسان مجرى الدم فى العروق • محاولا قهره وغوايته ، لكن عباد الله المخلصين • لا سلطان لهذا العدو المارد عليهم : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين • الا عبادك منهم المخلصين • قال فالحق والحق أقول • لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (١) « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين • وان جهنم لموعدهم أجمعين » (٢) •

---

(١) الآيات ٨٢ - ٨٥ من سورة ص • لما طرد الله تعالى ابليس اللعين من الجنة بسبب آدم - عليه السلام - حلف بعزة الله أنه يضل بنى آدم بتزيين الشهوات، وادخال الشبه عليهم • « لأغوينهم » لأستدعينهم الى المعاصى ، وقد علم أنه لا يصل الا الى الوسوسة ، ولا يفسد الا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه ، ولهذا قال : « الا عبادك منهم المخلصين » أى الذين أخلصتهم لعبادتك ، وعصمتهم منى •

(٢) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة الحجر : « ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » قال العلماء : يعنى على قلوبهم أو فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم =

تنزل القرآن الكريم طوال هاتين الفترتين مواكبا الدعوة الاسلامية مؤيدا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رادا على كل مايوجه من استفسارات

=

عفو الله تعالى ٠ أو يؤل الى عدم القبول بل تزيله التوبة ٠ وتمحوه الأوبة ٠ وقيل قد يكون فى تسلط الشيطان فى بعض الأوقات تفريج كربة وازالة غمة ٠ كما فعل ببلال ، اذ أتاه يهديه كما يهدى الصبى حتى نام ، ونام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال لهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليس فى النوم تفريط » ففرج عنهم ٠

« لها سبعة أبواب » أى أطباق ٠ طبق فوق طبق ٠٠٠ ويروى أن سلمان الفارسى ـ رضى الله تعالى عنه لما سمع هذه الآية فر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجىء به الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله فقال : يا رسول الله ٠ أنزلت هذه الآية « وان جهنم لموعدهم أجمعين » ؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى ، فأنزل الله تعالى : « ان المتقين فى جنات وعيون » وقال بلال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها ، فقرأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الآية « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » فخرت الأعرابية مغشيا عليها ، وسمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجبتها ـ صوت الشىء يسقط ـ فانصرف ودعا بماء فصب على وجهها حتى أفاقت ، وجلست ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يا هذه مالك ؟ فقالت : أهذا شىء من كتاب الله المنزل ، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : « يا أعرابية بل هو من كتاب الله تعالى المنزل » فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على كل باب منها ؟ قال : « يا أعرابية ، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذب أهل كل منها على قدر أعمالهم » فقالت : والله انى امرأة مسكينة ، مالى مال ، ومالى الا سبعة أعبد

=

وتساؤلات . مطمئنا رسول الله والمؤمنين ، مبينا مصير الكافرين المعاندين ، مذكرا لهم بمن قبلهم من الأمم الغابرة ، وما حاق بهم جزاء عنادهم وتكذيبهم رسلهم ، داعيا رسول الله الى المضى فى دعوته وترك دعاوى المضللين الذين لا هم لهم الا التشكيك فى كل شىء . « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون » (١) .

« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت

=

أشهدك يا رسول الله ، أن كل عبد منهم عن كل باب من أبواب جهنم حر لوجه الله تعالى . فأتاه جبريل فقال : « يا رسول الله بشر الأعرابية أن الله قد حرم عليها أبواب جهنم كلها . وفتح لها أبواب الجنة كلها » .

يراجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣٦٤٤ وما بعدها .

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف . « من القريتين » مكة والطائف . وروى أن الوليد بن المغيرة كان يقول : لو كان ما يقوله محمد حقا لنزل على أو على أبى مسعود .

عروة بن مسعود الثقفى . « نحن قسمنا بينهم معيشتهم .. » أى أفقرنا قوما وأغنينا قوما ، فاذا لم يكن أمر الدنيا اليهم فكيف يفوض أمر النبوة اليهم . « ورفعنا بعضهم .. » أى فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرءوس . وقيل : بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » أى يكون بعضهم سببا لمعاش بعض . « ورحمة ربك » قيل النبوة ، وقيل الجنة ، وقيل : تمام الفرائض خير من كثرة النوافل . وقيل ما يتفضل به عليهم خير مما يجازيهم عليه من أعمالهم .

به فؤادك ورتلنـاه ترتيلا • ولا يأتونك بمثل الا جئنـاك بالحق وأحسـن تفسيرا » (١) •

فالقرآن الكريم نفسه يحدثنا عن جانب من جوانب أسباب نزوله منجما ليجيب على كل تساؤلات القوم ، ويعالج قضاياهم ، والقضية فى حد ذاتها لم تغب عن ذهن هؤلاء الذين جادلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعارضوه معاندين مكابرين، من كفار قريش، أو من اليهود الضالين المضلين، الذين يحاولون النيل من القرآن الكريم ورسول الاسلام ، حتى من النواحى التى استهدفت لما ينتج عنها من نفع وخير ، لما رأى هؤلاء نزول القرآن الكريم منجما ، قالوا - فى مكر ودهاء ولجج - : هلا أنزل عليه جملة واحدة ، كما أنزلت التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، والزبور على داود • ولم يكن هدفهم من ذلك سوى الغمز واللمز ، والنيل والمكابرة والعناد ، فرد الله تعالى عليهم ، وبين جانبا من جوانب عظمة القرآن الكريم ، وعناية الله تعالى برسـوله ، ورعايته له وفى ذلك ما يغيظ القائلين المعاندين ، ويرد السهم فى نحورهم •

« ••• كذلك لنثبت به فؤادك •• » وهذه هى الرعاية والعناية الالاهية بعينها تثبت قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتؤنسه، وكذا استدامة للصلة الملموسة بين الله ورسوله كما أن فى ذلك أيضـا تيسـير على أمته ورأفة بهم ورحمة بقويهم وعطفا على ضـعيفهم • اذ لو أنزلت الفرائض مرة واحدة لشق ذلك على المسلمين •

وفى ذلك أيضا التأييد الدائم من الله تعالى لرسـوله - صـلى الله عليه وسلم - لا يتركه ، ولا يقطعه ، فاذا سألوه عن أمر أجاب الله ، ووضح له هذا الأمر • وهذا وحده دليل صادق على النبوة الحقة ، اذ لا يتوفر ذلك الا لنبى أرسل مؤيدا فى كل ما يقول •

من ذلك ما كان من حديثهم يوما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الفرقان •

عن صفة عيسى ـ عليه السلام ـ وما كان من أمر خلقه ومعجزة ايجاده، فأنزل الله تعالى يبين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر خلقة عيسى « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »(١) • هذا ومنه الكثير مما جرى بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين قومه من حوار ومناقشة • وأحاجيج وقضايا تكفل الله تعالى بالرد عليها والقضاء فيها واحكم القول والفصل فى تفنيد ما يثيرون :

«وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين»(٢)

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران •

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة : «وقالت اليهود ••» قال هذا فنحاص ابن عاذوراء « لعنه الله » وأصحابه ، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قل مالهم : فقالوا : ان الله بخيل ، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ، فالآية خاصة فى بعضهم • وقيل : لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا •

وقيل : انهم لما رأوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى فقر وقلة مال وسمعوا « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » ورأوا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد كان يستعين بهم فى الديات قالوا : ان اله محمد فقير ، وربما قالوا : بخيل •

« بل يداه مبسوطتان » أى نعمه كثيرة وفيرة ، فاليد بمعنى النعمة • والتثنية هنا تثنية جنس لا تثنية واحد مفرد • فأحد الجنسين نعمة الدنيا والثانى نعمة الآخرة • وقيل نعمتا الدنيا: النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة•
=

من أمثلة ما أثاروا أيضا من قضايا وجدل ، وتحد واسراف فى القول، ومغالطة وبهتان ، ما حكاه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا • وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا راسولا • قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (١) •

=

وروى ابن عباس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال فيه : « النعمة الظاهرة ما حسن من خلقك ، والباطنة ما ستر عليك من سيء عملك » ••• وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « يمين الله ملأى لا يفيضها سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما فى يمينه ـ قال ـ وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض» « كلما أوقدوا نارا للحرب ••• » أى كلما جمعوا واعدوا شتت الله جمعهم• وقيل : ان اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله ـ التوراه ـ أرسل الله عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومى • وذكر النار مستعار •

(١) الآيات ٩٠ ـ ٩٥ من سورة الاسراء •

« ينبوعا » أى عين ماء • وهو ان كان مفردا الا أن المراد به الجمع •

« خلالها » أى وسطها • « كسفا » قطعا • من كسفت الشيء اذا غطيته • فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا ، والكسفة : القطعة من الشيء •

« أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » أى معاينة • وقال مجاهد : هو جمع=

فزعماء مكة ، ورؤساء قريش ـ عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان والنضر بن الحارث ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، وغيرهم لما وضح لهم عجزهم عن معارضة القرآن الكريم ولم يستطيعوا الاتيان بمثل أى سورة من سور القرآن لما عجزوا ونضبت قرائحهم ، وهم أرباب البيان وجهابذة البلاغة ، وعمالقة الفصاحة وفحول التعبير ـ شعرا ونثرا ـ أخذوا يمكرون ويدبرون ، فاجتمعوا عند ظهر الكعبة ـ بعد غروب الشمس ـ ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه أن اشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليكلموك فآتهم · فجاءهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم

=

القبيلة ، أى بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة · وقيل ضمناء يضمنون لنا اتيانك به ·

« ··· بيت من زخرف » أى من ذهب : وأصله الزينة ، والمزخرف المزين · وزخارف الماء · طرائقه · أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى ·

« أو ترقى فى السماء » أى تصعد · « ولن نؤمن لرقيك » أى من أجل رقيك ·

« حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » أى كتابا من الله تعالى الى كل رجل منا ، كما قال تعالى : « بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة » · « قل سبحان ربى » وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، أى قال ذلك تنزيها لله عزوجل عن أن يعجز عن شىء وعن أن يعترض عليه فى فعل · وقيل : هذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم · وقيل مراد به الأمر ، أى قل لهم يا محمد « هل كنت » أى ما أنا « الا بشرا رسولا » اتبع ما يوحى الى من ربى ، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر ·

- وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدو ، وكان الرسول الرحيم - صلى الله عليه وسلم حريصا عليهم ، يأمل هدايتهم ورشادهم،ويشفق عليهم مما هم فيه من عنت وعناد ٠انعقد المجلس واستمع اليهم رسول الله - صلى الله عليه سلم - فقالوا : يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك ، وانا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا وقد جئته فيما بيننا وبينك (١)٠ - أو كما قالوا - فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك (٢) بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك ٠

فقال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - : ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » - أو كما قال صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) قبحهم الله فما جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - الا بكل كمال وخير وفضيلة ٠

(٢) كانوا يسمون التابع من الجن رئيا ٠ ومنهم من كان له تابع من الجن ٠

قالوا : يا محمد ، فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ، ولا أشد عيشا منا ، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليخرق لنا فيها أنهارا كأنهار الشام ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب ، فانه كان شيخ صدق ، فنسأله عما تقول ، أحق هو أم باطل ، فان صدقوك ، وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله تعالى ، وأنه بعثك رسولا كما تقول :

فقال – صلوات الله وسلامه عليه – لهؤلاء المراوغين : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله تعالى بما بعثنى به وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فان تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

قالوا : فاذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك . سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك واسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت بهذا اليكم ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا – أو كما قال – فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك ان شاء فعل ، فانا لن نؤمن لك الا أن تفعل .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ذلك الى الله عز وجل ان شاء أن يفعله بكم فعل » ٠

قالوا : يا محمد ، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك فيعلمك بما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا اذ لم تقبل منك ما جئتنا به ٠

واستمر الحديث حتى طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرقى الى السماء وهم يشاهدون ذلك ثم يأتي لكل منهم بكتاب من السماء خاص به ، ويحضر معه من الملائكة من يشهد بذلك ويصدقه ٠ ووصل ببعضهم السخف أن قال : وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك (١) ٠

وينزل القرآن الكريم يحدث الرسول ويبين له قولهم وما وقع منهم ، ويختم القرآن حديثه للرسول - صلى الله عليه وسلم - مبينا عاقبة من ضل وكفر فيقول الله تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن

---

(١) الرسل عليهم السلام يؤيدهم الله بالمعجزات فمتى قامت الحجة على من بعث اليهم الرسول ، وجب عليهم التصديق ، ولا يجوز لهم أن يطلبوا كل يوم معجزة ودليلا ٠ اذ لو جاز لهم ذلك ، لجاز لهم أن يختاروا من يرسل اليهم ، ولن ينقطع طلبهم للآيات كل عشية وضحاها ٠ وهذا يؤدي الى كون التدبير الى الناس ٠ والتدبير الى مالك الكون وحده سبحانه وتعالى ٠

يراجع القرطبي جـ ٥ ص ٣٩٤٤ وما بعدها تفسيرالبيضاوي ص ٣٨٣ النسفي جـ ٢ ص ٣٢٧ ٠

تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » (١) ٠

وهكذا يواكب القرآن سير الدعوة ، وينزل على الرسول الكريم مطمئنا ومثبتا يشد من أزره ، ويقوى من عزيمته ، ويرد على هؤلاء المعاندين ويكشف كيدهم ، ويبين عاقبة أمرهم ومآل مكرهم ٠ ويظل الأمر هكذا قرابة الثلاثة وعشرين عاما ٠ وصدق الله العظيم : اذ يقول « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما يثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (٢) ٠

---

(١) الآية ٩٧ من سورة الاسراء ٠ « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم » فيه وجهان أحدهما — أن ذلك عبارة عن الاسراع بهم الى جهنم ، من قول العرب : قدم القوم على وجوههم اذ أسرعوا ٠

الثانى — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم الى جهنم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى هوانه وتعذيبه ٠ وهذا هو الصحيح ٠ لما روى أن رجلا قال : أيحشر الكافر على وجهه يا رسول الله ٠ قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » ٠

« عميا وبكما وصما » قال ابن عباس والحسن : أى عمى عما يسرهم، بكم عن التكلم بحجة ، صم عما ينفعهم ، وعلى هذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه ٠ وقيل : انهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ، ليكون ذلك زيادة فى عذابهم ، ثم يخلق ذلك لهم فى النار ٠

وقال مقاتل بن سليمان : اذ قيل لهم « اخسئوا فيها ولا تكلمون » صاروا عميا لا يبصرون ، صما لا يسمعون ، بكما لا يفقهون ٠

وقيل : عميا حين دخلوا النار لشدة سوادها ٠ وانقطع كلامهم حين قيل لهم : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » ٠ وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا ٠ « مأواهم جهنم » أى مستقرهم ومقامهم ٠

« كلما خبت » أى سكنت ٠ يقال : خبت النار أى طفئت ٠

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود ٠

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على النـاس على مكث ونزلناه تنزيلا • قل آمنوا به أو لا تؤمنوا • ان الذين أوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سـبحان ربنا ان كان وعد ربنـا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا * » (١)

كما تكفل الله تعالى بالاجابة والرد على الكافرين الذين عاندوا ، وتفننوا فى المعارضة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم وسلكوا كل طريق فما أوصلهم الا الى الخزى والخزلان •

يقول ربنا تبارك وتعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا * » (٢) •

وهكذا وفى وضوح يبين أن العناية الالاهية بسيد المرسلين اقتضت نزول القرآن منجما على سيد ولد آدم سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) الآيات ١٠٦ - ١٠٩ من سورة الاسراء • «قل آمنوا أو لا تؤمنوا» هذا للتبكيت والتهديد لا للتخيير • « ويخرون للأذقان » مبالغة ومدح ، وحق لكل من توسم بالعلم أن يخشع عند اسـتماع القرآن ويتواضـع • وقيل : من أوتى من العلم ما لم يبكه لخليق الا يكون أوتى علمـا ، لأن الله نعت العلماء بهذه الآية • « يبكون » دليل على جواز البكاء فى الصلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته ، وأن ذلك لا يقطع الصلاة ولا يضرها • وعن عبد الله عن أبيه قال : أتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء » • وفى كتاب أبى داود : «وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء» •

(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الفرقان •

مؤانسة لقلبه ، وصلة له ، وتثبيتا لفؤاده ،وتجديدا للعهد واللقيا واهتماما بالمرسل والمرسل به والمرسل اليهم - حبا وعطفا ورحمة بهم - لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، ورحمة بهذه الأمة ورفقا بها نزلت الأحكام تدريجيا ، ونسخت بعض الأحكام رأفة ورحمة وتخفيفا : ورعاية لمصالح العباد وتيسيرا عليهم • واحقاقا للحقوق وصيانة للحرمات ، حتى كمل الدين وأحكمت الآيات « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (١) •

« الركتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٢) •

المطلب الثالث :

نزول القرآن الكريم على سبعة احرف

ذكر أئمة الحديث ما ورد فى هذا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء فى صحيح الامام البخارى (٣) ما رواه ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - من أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حدثه فقال : أقرأنى جبريل على حرف ، فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف » •

وما روى من أن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله - صلى الله عليه

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة •
(٢) الآية ١ من سورة هود •
(٣) يراجع صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب انزال القرآن على سبعة أحرف •

وسلم - فستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكدت أساوره (١) فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم (٢) ، فلببته (٣) بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة، التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت كذبت (٤) ، فان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده (٥) الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : انى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « أرسله ، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «كذلك أنزلت » ثم قال : « اقرأ يا عمر » فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كذلك أنزلت ، ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه » .

وروى الامام مسلم فى صحيحه (٦) . ما حدث به أبى بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى ، فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه . فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على

---

(١) أساوره : آخذ برأسه . وقيل : أواثبه ، وقيل أن أعجل عليه .
(٢) فتصبرت : أمهلته حتى انصرف من الصلاة .
(٣) لببته بردائه : أى جمعت عليه ثيابه عند لبته لئلا يتفلت منى .
(٤) كذبت : أطلق عمر ذلك على غلبة الظن . أو أخطأت على لغة الحجازيين .
(٥) كان عمر لما لببه بردائه - وكان شديدا - صار يجره فلهذا صار قائدا له .
(٦) يراجع صحيح الامام مسلم باب بيان أن القرآن نزل على سبعة أحرف . جـ ٦ ص ٩٨ وما بعدها طبعة المطبعة المصرية « شرح النووى » .

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : ان هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقرأ ، فحسن النبى - صلى الله عليه وسلم - شأنهما ، فسقط فى نفسى من التكذيب ولا اذ كنت فى الجاهلية (١) ، فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قد غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا (٢) وكأنما أنظر الى الله عز وجل فرقا ، فقال لى : يا أبى أرسل الى أن أقرأ القرآن على حرف . فرددت اليه أن هون على أمتى ، فرد الى الثانية اقرأه على حرفين ، فرددت اليه أن هون على أمتى ، فرد الى الثالثة ، اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رددتكما مسألة تسألنيها ، فقلت : اللهم اغفر لأمتى ، اللهم اغفر لأمتى ، وأخرت الثالثة ليوم يرغب الى الخلق كلهم حتى ابراهيم - صلى الله عليه وسلم - .

---

(١) أى وسوس لى الشيطان تكذيبا للنبوة أشد مما كنت عليه فى الجاهلية ، لأن كان فى الجاهلية غافلا أو متشككا ، فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب . قال القاضى عياض : معنى قوله سقطا فى نفسى أنه اعترته حيرة ودهشة . قال وقوله : ولا اذا كنت فى الجاهلية معناه أن الشيطان نزغ فى نفسه تكذيبا لم يعتقده . قال : وهذه الخواطر اذا لم يستمر عليها لا يؤاخذ بها ، وقد زالت فى الحال حين ضرب النبى - صلى الله عليه وسلم - بيده الشريفة فى صدره ففاض عرقا .

(٢) لما رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - ما أصاب أبى بن كعب من ذلك الخاطر نبهه بان ضربه فى صدره ، فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنور باطنه حتى آل به الكشف والشرح الى حالة المعاينة . ففاض عرقا استحياء من الله تعالى . وذلك من قبيل قول الرسول حين سألوه : انا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : « وقد وجدتموه » قالوا نعم . قال : « ذلك صريح الايمان » .

المراد بالأحرف السبعة

للعلماء فى المراد بالأحرف السبعة الواردة فى الأحاديث النبوية آراء كثيرة وصلت الى خمسة وثلاثين قولا ، أذكر منها ما ترد اليه جميعها ويشملها بصفة عامة ويكشف المراد بها فيما يأتى :

الأول : جمع القرآن الكريم بين لهجات قبائل العرب فأورد عبارات من لهجات هزيل ، وهوازن ، وخزاعة ، وربيعة والأزد ، وبكر ، وقريش ٠

فبعض القرآن ، بلهجة قريش وبعضه بلهجة هزيل ، وبعضه بلهجة هوازن ، وبعضه بلهجة أهل اليمن ، وهكذا ٠

وهذه اللهجات جميعها ترجع الى الأم الرؤم التى تجمع بينها وتؤلف شتاتها تحت ردائها ولوائها ، لواء اللغة العربية الأم ، السائدة مفرداتها بين العرب جميعها ، وان تخير البعض هذه الكلمة ليعبر بها عن معنى فى المعانى ، وغلب استعمال الكلمة فى هذا المعنى ، وخالفه آخر فغلب استعمال كلمة أخرى فى ذلك المعنى الذى قصد اليه الأول ٠

أوانهما اتفقا على استعمال كلمة واحدة فى معناها الذى وضعت له ، غير أن بعضهم ينطق هذه الكلمة مع تغيير بعض حركاتها ، ويخالفه الآخر فى نطقها بحركات أخرى مع بقاء معنى الكلمة وصورتها وترتيب حروفها فى الاستعمالين ٠ فالقرآن الكريم نزل بلهجة قريش فى غالبه وجاءت به كلمات أو عبارات بلهجات بعض القبائل الأخرى ٠ والرسول - صلى الله عليه وسلم - وعاها جميعها لأنه - صلى الله عليه وسلم - قد أوتى جوامع الكلم ٠

وعلى هذا فالمراد بالأحرف السبعة ما جاء فى القرآن الكريم من بعض عبارات موافقة للهجات القبائل العربية المتعددة ٠ وقد جاءت هذه العبارات متفرقة بين آيات القرآن الكريم ٠

ولذا فان سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - أمر الذين ينسخون نسخ المصحف التى سترسل الى اقطار الدولة الاسلامية ليقرأ فيها دون غيرها قال لهم : « اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش ، فان القرآن أنزل بلسانهم » (١)

فسيدنا عثمان - رضى الله تعالى عنه - يبين لهؤلاء الذين كلفوا بكتابة نسخ من المصحف لترسل الى مختلف البلاد الاسلامية حين حدث خلاف فى القراءة ، وغلب البعض لهجة على أخرى يقول لهم سيدنا عثمان : اذا حدث بينكم خلاف بسبب اختلاف اللهجات فغلبوا لهجة قريش ، اذ أن القرآن الكريم قد أنزل معظمه بهذه اللهجة العربية .

ومن هنا يبين أن هناك بعض عبارات فى القرآن الكريم بلهجات القبائل العربية الأخرى التى تغاير لهجة قريش .

ولا يوجد دليل قاطع على ان القرآن الكريم أنزل بأسره بلهجة قريش . بل ان فيه كلمات وحروف جاءت على غير لهجة قريش . وهى دليل على ذهب اليه أصحاب هذا الرأى .

كما أن الله تبارك وتعالى يقول : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٢) : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » (٣) : « قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » (٤) : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (٥) .

---

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن ، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب .

(٢) الآية ٢ من سورة يوسف .

(٣) الآية ١١٣ من سورة طه .

(٤) الآية ٢٨ من سورة الزمر .

(٥) الآية ٣ من سورة فصلت .

فقد وصف القرآن الكريم فى كل هذه الآيات وغيرها بأنه قرآن عربى • ولم يوصف بأنه قرآن قرشى • وفى ذلك اشـارة الى أن فى القرآن ما جاء بغير لهجة قريش من لهجات القبائل العربية الأخرى •

يقول القاضى ابن الطيب ــ رضى الله تعالى عنه ــ : معنى قول عثمان : فانه نزل بلسان قريش ، يريد معظمه وأكثره ، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط ، اذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش •• وليس لأحد أن يقول : انه أراد قريشا من العرب دون غيرها ، كما أنه ليس له أن يقول : أراد لغة عدنان دون قحطان ، أو ربيعة دون مضر ، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحدا •

وقال ابن عبد البر : قول من قال : ان القرآن نزل بلغة قريش معناه عندى فى الأغلب والله أعلم ــ بلغة العرب ــ لأن غير لغة قريش موجود فى صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها ، وقريش لا تهمز •

وقال ابن عطية : معنى قول النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أى فيه عبارة سـبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن ، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش ، ومرة بعبارة هزيل ، ومرة بغير ذلك بحسـب الأفصـح ، والأوجز فى اللفظ ، الا ترى أن فطر معناه عند غير قريش ابتدأ فجات فى القرآن فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم اليه اعرابيان فى بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، قال ابن عباس : ففهمت حينئذ موقع قول الله تعالى : « فاطر السموات والأرض » (١) •

وقال أيضا : ما كنت أدرى معنى قوله تعالى : « ربنا افتح بيننا وبين

---

(١) الآية ١ من سورة فاطر •

قومنا بالحق » (١) حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها : تعال أفاتحك أى أحاكمك ٠

وكذلك قال عمر بن الخطـاب ، وكان لا يفهـم معنى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » (٢) أى على تنقص لهم (٣) ٠

هذه الاقوال وغيرها تدل على أن القرآن الكريم قد اشتمل على كلمات استعملتها القبائل العربية عدنان وقحطان وربيعة ومضر وهذه الكلمات جميعها قصد باستمالها التخفيف على بعض القبائل٠ وكذا استئناس قلوبهم وتأدية المعنى بابلغ لفظ وأوجز عبارة ، وأوضح دلالة ٠

الثاني : وقد روى عن كثير من المشتغلين بالقرآن وعلومه وقرآءاته ، وهؤلاء يرون أن المراد بالأحرف السبعة ايراد المعنى الواحد بألفاظ متعددة تخفيفا على هؤلاء العرب الأميين الذين لم يكن لهم علم بالقراءة والكتابه - الا قليلا - وكان هؤلاء العرب وان جمعتهم العربية تحت لوائها ، الا أن بعض القبائل كانت تستعمل فى تخاطبها وتعاملها اليومى كلمات توسعت فى مدلولها ٠ دون غيرها من الكلمات المرادفة لها فى المعنى المغايرة لها فى اللفظ ، وسهلت على لسانها ، وكانت بعض القبائل الأخرى تستعمل كلمات أخرى تؤدى بها نفس المعنى ، وتعاملت بهـذه الكلمات وشـاع استعمالها فى تأدية المعنى المراد من غيرها مما يرادفها ٠ وسهل عليها نطقها واستعمالها دون غيرها فى المعنى المراد تأديته ٠

من ذلك مثلا ، استعمال بعضهم فى المعنى الدال على طلب حضور شخص كلمة : هلم : والبعض الآخر يسـتعمل فى نفس المعنى كلمة : أقبل ، والبعض يؤدى المعنى نفسه باسـتعمال تعال ، أو الى وهكذا ٠

---

(١) الآية ٨٩ من سورة الاعراف ٠
(٢) الآية ٤٧ من سورة النحل ٠
(٣) تفسير القرطبى ص ٣٨ ٠

يقول الطحاوى : وأبين ما ذكر فى ذلك حديث أبى بكرة قال : جاء جبريل الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : اقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقال : اقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل : استزده • حتى بلغ الى سبعة أحرف ، فقال : اقرأ فكل شاف كاف الا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة ، على نحو هلم ، وتعال ، وأقبل واذهب ، وأسرع ، وعجل •

وفى رواية أبى داود : « ثم قال : ليس منها الاشاف كاف ، وان قلت سميعا عليما ، عزيزا حكيما ، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب •

وفى رواية الترمذى من وجه آخر : « أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : يا جبريل انى بعثت الى أمة أميين منهم العجوز ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية والرجل الذى لم يقرأ كتابا قط » الحديث •

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على تقوية القول القائل بأن المراد بالأحرف السبعة القراءات أو اللهجات ، لأن من المعانى الواردة فى اللغة لكلمة « حرف » الوجه ، ومنه قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » (١) •

وهذا يؤدى الى القول بأن المراد بالأحرف السبعة أو الأوجه السبعة : تادية المعنى الواحد بالفاظ متعددة ومترادفة ولو كان ذلك الأداء والاستعمال بكلمات ومقررات لغة واحدة •

ولا أدل على ذلك من الخلاف الذى وقع بين عمر بن الخطاب وهشام

---

(١) الآية ١١ من سورة الحج •

ابن حكيم ، وهما ممن يتحدثان بلسان قريش ، ومع ذلك وقع بينهما اختلاف فى القراءة (١) ٠

---

(١) نقل أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال : أنزل القرآن أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ٠ ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمال على اختلافهم فى الألفاظ والاعراب ٠ ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغته الى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيه من الحمية ، ولطلب التسهيل فهم المراد ، كل ذلك مع اتفاق المعنى ٠ وعلى هذا يتنزل اختلافهم فى القراءة كما تقدم ، وتصويب الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلا منهم ٠

هذا وقد ثبت عن بعض الصحابة أنه كان يقرأ بالمرادف ولو لم يكن مسموعا له ، ومن ثم أنكر عمر على ابن مسعود قراءاته : « عتى حين » أى : « حتى حين » وكتب اليه ان القرآن لم ينزل بلغة هزيل فاقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هزيل ٠

قال أبو شامة : ويحتمل أن يكون مراد عمر ثم عثمان بقولهما : نزل بلسان قريش أن ذلك كان أول نزوله ٠ ثم ان الله سهل على الناس فجوز لهم أن يقرءوه على لغاتهم على أن لا يخرج ذلك عن لغات العرب ، لكونه بلسان عربى مبين ، فأما من أراد قراءته من غير العرب فالاختيار له أن يقرأه بلسان قريش ، لأنه الأولى ٠ وعلى هذا يحمل ما كتب به عمر الى ابن مسعود ، لأن جميع اللغات - اللهجات - بالنسبة لغير العربى مستوية فى التعبير ، فاذا كان لابد من واحدة فلتكن بلغة النبى - صلى الله عليه وسلم - وأما العربى المجبول على لغته ، فلو كلف قراءته بلغة قريش لعثر عليه التحول ٠

يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٢٧ وما بعدها ط مكتبة الكليات الأزهرية ٠

وذكر البعض أنه انتهى بالعدد عند السبع لأنه علم أنه العدد الغالب الذى يحتاج اليه للتخفيف على القبائل العربية وقالوا أيضا : ليس المراد بالسبعة أحرف أن تقرأ كل كلمة على سبعة أوجه ·

وقد ذكر ابن عبد البر أن ذلك غير جائز وغير ممكن ، أن تقرأ لفظة بسبعة أوجه ، وذكر أن ذلك مجمع عليه الا فى القليل النادر ·

أما ابن قتيبة فانه قد أنكر حتى وجود هذا القليل ، وقال : أنه لا يوجد فى القرآن كلمة تقرأ على سبعة أوجه ·

لكن ابن الانبارى رد على ابن قتيبه بأن أورد بعض الكلمات التى يجوز فيها ذلك مثل قول الله تعالى : « وعبد الطاغوت ·· » (١) ·

---

(١) الآية ٦٠ من سورة المائدة قيل : أصل طاغوت فى اللغة الطغيان ·
قال الجوهرى : الطاغوت : الكاهن ، والشيطان ، وكل رأس فى الضلال ·

قرأ حمزة : « عبد الطاغوت » بضم الباء وكسر التاء ، جعله اسما على فعل كعضد · فهو بناء للمبالغة والكثرة ·

وقرأ الباقون بفتح الباء والتاء ، وجعلوه فعلا ماضيا وعطفوه على فعل ماض وهو غضب ولعن فى قول الله تعالى : « من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » ·

والمعنى عند هؤلاء من لعنه الله ومن عبد الطاغوت أو منصوبا بجعل ، أى جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ·

وقرأ أبى وابن مسعود : « وعبدوا الطاغوت » · وابن عباس قرأ : « عبد الطاغوت » بضم العين والباء، فيجوز أن يكون جمع عبد أو جمع عبادة أو جمع عابد · والمعنى وخدم الطاغوت · وعن ابن عباس أيضا : « وعبد » بضم العين وتضعيف الباء المفتوحة · جمع عابد · وعن أبى واقد : « وعباد الطاغوت » بضم العين وتضعيف الباء المفتوحة بعدها ألف قبل الدال · جمع عابد ·

وقرأ البصريون : « وعباد الطاغوت » جمع عابد أيضا كقائم وقيام · وقرأ بن بريدة : « وعابد الطاغوت » · على التوحيد أى جعله مفردا وقرأ أبى : « وعبدت الطاغوت » على تأنيث الجماعة التى عبدته

وقرأ عبيد بن عمير : « وأعبد الطاغوت » مثل كلب وأكلب ·

ومثل قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف » (١) وقوله تعالى : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال .. » (٢) اذ أن فى جبريل وميكائيل قراءات عدة .

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الاسراء . « فلا تقل لهما أف » أى ما فيه أدنى تبرم والأف الكلام القذع الردىء الخفى . ويقال لكل ما يضجر ويستثقل أف له . وقرىء « اف » منون مخفوض ، كما تخفض الأصوات وتنون مثل صه ومه . وفى كلمة « أف » عشر لغات : أف الفاء المضعفه وأف بضم الفاء المضعفة . أف بكسر الفاء المضعفة من غير تنوين وأفا بألف بعد الفاء المضعفة والمفتوحة منونة ، وأف بالفاء المضعفة المكسورة منونة. وأف بالفاء المضمومة المضعفة منونة ، وأفه بفاء مضعفة مفتوحة من غير تنوين بعدها هاء ساكنة . واف لك بهمزة مكسورة وفاء ساكنة ، أف بهمزة مضمومة وفاء ساكنة . وأفا بفاء مخففة بعدها ألف .

وقد ورد فى الحديث : « فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال : اف أف » أى استقذر لما شم . وقال البعض معنى أف الاحتقار والاستقلال أخذ من الأفف وهو القليل . وكثر استعماله حتى ذكر فى كل ما يتأذى به .

وروى الامام على ــ رضى الله تعالى عنه ــ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو علم الله من العقول شيئا أردأ من « أف » لذكره ، فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار . وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة .

قال العلماء . انما صارت قولة « أف » للأبوين أردأ شىء ، لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية ورد الوصية التى أوصاه الله تعالى فى القرآن الكريم . وهى تقال لكل شىء مرفوض . ولذا فان ابراهيم عليه السلام قال لقومه حين رفضهم وما يعبدون : « أف لكم ولما تعبدون من دون الله » .

(٢) فى جبريل عشر قراءات : الأولى بكسر الجيم والثانية بفتحها الثالثة جبرئيل بباء بعد والهمزة الرابعة جبرال بابدال الباء الفا ، الخامسة مثلها بلام مشددة السادسة جبرائل ، بألف بعد الراء بعدها همزة السابعة جبرائيل كسابقة بزيادة باء بعد الهمزة . الثامنة جبراييل بباءين ، التاسعة جبرئل ، العاشرة جبرين وجاء ميكائيل وميكاييل وميكال وميكئل ، ميكبيل وميكائل .

ويستدل ابن الانبارى على ما ذهب اليه من أن القرآن أنزل أولا بلسان قريش ثم سهل على الأمة وباقى القبائل أن تقرأ بغير لسان قريش بعد أن دخل العرب فى الاسلام وكثر عدد المسلمين • يستدل بأن التخفيف كان بعد الهجرة طبقا لما رواه أبى بن كعب ، وجاء فيه : « أن جبريل ـ عليه السلام ـ لقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو عند أضاة بنى غفار فقال : ان الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف » فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته فان أمتى لا تطيق ذلك » (١) •

ويجمل ابن حجر ما ذكر بقوله : وحاصل ما ذهب اليه هؤلاء أن معنى قوله : « انزل القرآن على سبعة أحرف » أى أنزل موسعا على القارىء أن يقرأ على سبعة أوجه : أى يقرأ بأى حرف أراد منها على البدل من صاحبه ، كأنه قال أنزل على هذا الشرط ، أو على هذه التوسعة ، وذلك لتسهيل قراءته • اذ لو أخذوا بأن يقرءوه على حرف واحد لشق عليهم كما تقدم •

وقول ابن حجر وان فهم منه جواز القراءة بأى حرف مطلقا ، الا أن جواز القراءة بأحرف مغايرة للهجة قريش مقصور على هؤلاء الذين يجدون مشقة فى القراءة بلهجة قريش • أما هؤلاء الذين لا يجدون ذلك فانى أرى التزامهم بلهجة قريش ، وعدم جواز ذهابهم الى القراءة بلهجة قبيلة أخرى درءا للاختلاف وحفاظا على اللهجة التى نزل القرآن بها ، اذ قد ثبت أن القرآن نزل بلغة قريش •

ومن هنا أجاز الرسول للهذليين أن يقرأوا « عتى حين » بدلا من «حتى حين » لأن لهجتهم كذلك ، وقرأ الأسدى « تعلمون » بكسر التاء ، وما ذلك

---

(١) صحيح مسلم باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف • « أضاة بنى غفار • بفتح الهمزة والضاد بغير همزة • هو مستنقع الماء كالغدير وجمعها أضا ، كحصاة وحصا وقيل أضاء بالمد والهمزة مثل اناء وهو موضع بالمدينة المنورة ينسب الى بنى غفار •

الا تيسرا عليهم ، فهم قد جرت ألسنتهم على ذلك فى طفولتهم وتنشئتهم وكهولتهم ، ولو ضيق الأمر عليهم والزموا بلهجة أخرى غير التى نشأوا عليها لشق عليهم ذلك ٠

وهـذا ما ذهب اليه ابن قتيبة وبينه بأنه لو كان المراد أن كل كلمة من القرآن تقرأ على سبعة أوجه لقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثلا

« أنزل القرآن سبعة أحرف » ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا ، فيكون المراد بكون القرآن على سـبعة أحرف ٠ أن يجوز أن تأتى الـكلمة بوجه او وجهين أو ثلاثة أو ما يصل الى سبعة أوجه ٠

ويبين ابن قتيبة الأوجه التى يقع بها التغاير فى القراءة فيما يأتى .

أولا : اختلاف حركة بعض الأحرف مع بقاء الأحرف وترتيبها وصورتها، وبقاء المعنى أيضا دون تغيير ٠ مثال هذا قراءة قول الله تعالى : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » (١) بنصب الراء فى « يضار » وكذا بضمها ٠

ثانيا : اختلاف حركة بعض الحروف مع زيادة أو نقصـان داخـل الحروف بترتيبها الأول مع ما يترتب على ذلك من تغيير الصيغة من صيغة الامر أو الطلب الى صـيغة الماضى ٠ يتضـح ذلك فى قول الله تعالى : « فقالوا ربنا بعد بين أسـفارنا ٠٠ » (٢) فقد قرأ البعض « بعد » بالعين

---

(١) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ٠

(٢) الآية ١٩ من سورة سبأ : « ربنا باعد بين أسفارنا » كفروا النعمة وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية وتمنوا طول الأسفار والكدح فى المعيشة ومثل هؤلاء النضر بن الحارث حين قال كما يحكى القرآن الكريم : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ٠٠ » فاجابه الله تعالى وقتل يوم بدر بالسيف صبرا « باعد » سألوا الله المباعدة « بعد » من التبعيد ومعناهما واحد ٠ وورد « باعد » بفتح العين والدال ،
=

بعد الباء المفتوحة ، وقرأ آخرون « باعد » بزيادة الف بين الباء والعين ، مع تغيير فى الصيغة من الطلب الى الماضى .

ثالثا : الابقاء على حركة الحروف وترتيبها مع نقط بعض الحروف المهملة ، أو عدم نقط بعض الحروف المعجمة ، مثال ذلك ما جاء من قراءة فى قول الله تعالى : « .. وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما .. » (١) فقد قرأ قوم قول الله تعالى : « ننشزها » بالزاى المعجمة قرأوها بالراء المهملة فقالوا : ننشرها » .

رابعا : ما يحدث التغيير فيه بابدال حرف بآخر قريب منه فى المخرج مع الابقاء على حركات الحروف وترتيبها ومعناها مثال ذلك ما جاء من قول الله تعالى : « وطلح منضود » (٢) فقد قرأها البعض « وطلع منضود » بابدال الحاء عينا ، لتقاربهما فى المخرج .

خامسا : ما يحدث التغيير فيه بالتقديم أو التأخير فى كلمات الجملة مع بقاء المؤدى وعدم تغير ترتيب الحروف فى الكلمات ، مثال ذلك ما جاء من قراءة قول الله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق » (٣) فقد ورد عن أبى بكر الصديق قراءة هذه الآية : « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

= على الخبر . روى عن ابن عباس « بعد » بتشديد العين من غير ألف . قال ابن عباس شكوا أن الله باعد بين أسفارهم . وعن أخى الحسن البصرى « بعد » بفتح الباء وضم العين وفتح الدال . أى بعد ما يتصل بأسفارنا . وهذه القراءات اذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال أحدها أجود من الأخرى ، كما لا يقال ذلك فى أخبار الآحاد اذا اختلفت معانيها .

يراجع القرطبى ج ٦ ص ٥٣٧٣ .

(١) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الواقعة .

(٣) الآية ١٩ من سورة « ق » .

سادسا : ما يحدث التغيير فيه بزيادة أو بنقصان مثال ذلك ما جاء من قراءة بعض الآيات عند البعض باضافة كلمة لتوضيح المدلول وابانة المراد مثال ذلك ما جاء من قراءة ابن عباس : « وأنذر عشيرتك الاقربين (١) والآيتان بعدها « ورهطك منهم المخلصين » ٠

وما روى عن أم المؤمنين السيدة عائشة من قراءة قول الله تعالى « حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى » (٢) فقد قرأتها : وحافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وصلاة العصر » وروى « وهى العصر » أما ما جاء من قراءة بنقص بعض الكلمات ما جاء عن ابن مسعود وأبى الدرداء من قراءة قول الله تعالى : « والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى (٣) فقد قرأت « ٠٠ والنهار اذا تجلى والذكر والأنثى » بحذف « ما خلق » ٠

سابعا : ما جاء من تغيير بسبب ابدال كلمة بأخرى ترادفها فى المعنى مثال ذلك ما جاء من قراءة قول الله تعالى ٠ « وتكـون الجبـال كالعهن المنفوش » (٤) عن ابن مسعود وسعيد بن جبير : « وتكون الجبال كالصوف المنفوش » وما ذكره ابن قدامة من أوجه التغاير عدها القرطبى قولا مستقلا عن عرضه لبعض الأقوال التى وردت فى بيان المراد بالأحرف السبعة(٥)٠

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء ٠

(٢) الآية ٢٣٨ من سورة البقرة يراجع القرطبى جـ ٢ ص ١٠١٧، وما بعدها ٠

(٣) الآيات ١ – ٣ من سورة الليل ٠

(٤) سورة القارعة الآية ٥ ٠

(٥) يقول القرطبى حاكيا ما جاء فى ذلك عن القاضى ابن الطيب انه قال : تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سـبعا : منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل « هن أطهر لكم » برفع أطهر ونصبها =

الثالث : وهو ما ذهب اليه البعض من أن السبعة الأحرف هى سبعة أصناف من الكلام ، واعتمدوا فى القول بذلك على ما ذكره ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - من أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعلموا بمحكمه. وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا » (١) .

=

« ويضيق صدرى » برفع يضيق ونصبها ، ومنها لا تتغير صورته ويتغير معناه بالاعراب : مثل ربنا باعد بين أسفارنا » بفتح العين والدال ، وكسر العين وتسكين الدال . الى أن يقول ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين . وقوله : فان الله من بعد اكرههن لهن غفور رحيم .

القرطبى جـ ١ ص ٣٩ .

(١) أخرج هذا الحديث أبو عبيده وغيره ، وأنكر ثبوته ابن عبد البر لأنه من رواية أبى سلمة وهو لم يلق ابن مسعود ، ورده آخرون .

وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم ، وأخرجه البيهقى من وجه آخر عن الزهرى عن أبى سلمة مرسلا . وقال : هذا مرسل جيد ثم قال : ان صح فمعنى قوله سبعة أحرف أى سبعة أوجه .

وقال ابن عطية : هذا الحديث ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفا ، وأيضا فالاجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحليل حلال ولا فى تغيير شئ من المعانى .

يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٣٥ وما بعدها .

وقد رد قوم القول بأن يجتمع فى الحرف الواحد سبعة أوجه • وعلى هذا جعلوا ما ذكر بعد سبعة أحرف استئناف كلام جديد غير ما سبق أى جعلوا كلمة « زاجر » وما بعدها خبر لمبتدأ محذوف اى هو زاجر ، وهو آمر بمعنى أن القرآن الكريم زاجر عن الحرام وآمر بكل خير ، وعلى هذا ليس ما جاء بعد سبعة أحرف تفسيرا لها وانما هو استئناف كلام جديد •

ومن قال بغير ذلك فقد توهم أن ما بعدها تفسير لها ، ونتج هذا التوهم عنده من الاتفاق فى العدد ، بين سبعة وما جاء بعدها (١) •

وقد حمل البعض هذا الحديث على أن القرآن الكريم قد جاء بأبواب سبعة من أبواب الكلام وأقسامه ، وأنزله الله سبحانه وتعالى مبينا للحلال والحرام ، زاجرا ، آمرا ، محكما ومتشابها ، موردا فيه الأمثال للاعتبار والاتعاظ (٢) ومن رحمة الله تعالى أن جاء القرآن كذلك ، مغايرا كثيرا من الكتب التى جاءت على صنف واحد أو باب واحد من أبواب الكلام •

---

(١) ومما يوضح أن قوله : زاجر وآمر الخ ليس تفسيرا للأحرف السبعة ما وقع فى مسلم من طريق يونس عن ابن شهاب عقب حديث ابن عباس •• قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك الأحرف السبعة انما هى فى الأمر الذى يكون واحدا لا يختلف فى حلال ولا حرام •
المرجع السابق ص ٣٦ •

(٢) عدد الامام الشافعى الأمثال مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن وقال الشيخ عز الدين : انما ضرب الله الأمثال فى القرآن تذكيرا ووعظا ، فما اشتمل منها على تفاوت فى ثواب ، أو على احباط عمل ، أو على مدح أو ذم ، أو نحوه • فانه يدل على الأحكام • ويقصد بضرب =

هذا جانت مما قيل فى بيان المراد بالأحرف السبعة التى جاء الحديث بها ٠

ولا يخفى أن الرأى الأول – القائل بأن القرآن الكريم قد جمع بين لهجات قبائل العرب ، فاورد عبارات فى ثناياه من لهجة هزيل ، وعبارات من لهجة هوازن ، وخزاعة وربيعة وغيرهم – هو الرأى الذى أميل اليه وأرجحه ، لأن الواقع الذى بأيدينا الآن يؤيده ويدل عليه ويرجحه ٠

=
الأمثال أيضا الوعظ والاعتبار والتقرير وتقريب المراد ٠

وأمثال القرآن تنقسم الى قسمين : أمثال مصرح بها وظاهرة ، وأمثال كامنة خافية فمن القسم الأول : قول الله تعالى : مثلهم كمثل الذى استوقد نارا » وهو مثل ضرب للمنافقين الذين استظلوا بالاسلام ولم يحفظوه فلما ماتوا سلبهم الله ما استظلوا وذهبت عنهم النعمة نهم كمن أوقد نارا واستنار بنورها فماانطفات النار عاد فى ظلمه حالكة «أو كصيب من السماء» ضرب مثله فى القرآن « فيه ظلمات ورعد وبرق » ابتلاء وتخويف « يكاد البرق يخطف أبصارهم » أى يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ٠ ومثل قول الله تعالى : ومن الناس من يعبد الله على حرف ٠ ومن أمثلة القرآن الكامنة الخافية : ما أجاب به الحسن بن الفضل على من سأله هل تجد فى كتاب الله « خير الأمور أوساطها » قال نعم فى أربعة مواضع ٠ قوله تعالى : « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » وقوله تعالى : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا كان بين ذلك قواما » وقوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وقوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » ٠

يراجع الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها مطبعة حجازى سنة ١٩٤١ ٠

ولا يجوز بأى حال من الأحوال أن نقرأ بعض كلمات القرآن بألفاظ مترادفة ونطلق على ما نقرأه بهذه الألفاظ المترادفة أنه قرآن ٠

ولو حاز ذلك لا نفتح باب عظيم للتغير والتبديل ، كل يقرأ بما يحب ويهوى ٠ ولشبت فتنة لا تعادلها فتنة ولا يقاربها ما حدث فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه – وفزع له المسلمون وواجهوه بكل حزم – ولو صح ما ورد من أن البعض قد أجاز ايراد المعنى بألفاظ متعدد مترادفه ، فان ما يأتى بهذه الكيفية لون من الوان التفسير وبيان المراد لمن لا يفهم اللفظة القرآنية ، وهذا أمر جائز فى كل وقت ، أن توضح الجملة أو العبارة أو الكلمة بما يقرب معناها للسامع ، بما يرادفها من كلمات يعرف السامع معناها ولا يعد تفسير القرآن قرآن ، اذ التفسير غير القرآن ، وان كان مبينا معناه وموضحا دلالاته ٠

ولو افترضنا جدلا أن ذلك – ايراد معنى الكلمة بعدة ألفاظ – قد وقع عند نزول القرآن وابان عصر النبى – صلى الله عليه وسلم – للتيسير على توصيل المعانى أو غير ذلك وفهم أن هذه الكلمات – المغايرة للنص القرآنى – قرآن فقد انتهى أمر ذلك بما تم من عرض سيدنا جبريل القرآن على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – آخر الأمر ، واستقر المصحف عليه ولم يعد لأحد أن يبدل لفظة أو يحكى معنى بلفظ آخر غير لفظه ويعتبر ذلك قرآن ، فالأمر قد حزم واستقر طبقا لآخر العرضات التى عرضها جبريل الأمين على سيدنا المرسلين – صلى الله عليه وسلم – ٠

الأحرف السبعة والمصحف الذى بأيدينا

طبقا لما سبق فان المصحف الشريف الذى بأيدى المسلمين الآن والذى يقرأ فيهـا القاصى والدانى هو الذى انتهى اليه الأمر فى العرضـة الأخيرة التى عرضها رسول الوحى ، الروح الأمين على الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى أى فى رمضـان السـابق على وفاة سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسـلم ـ وهو الذى سطره سـيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ليقرأ الناس فيه ويترك ماعداه مما بقى من الأحرف السبعة المتمثل فيما جاء فى المصحف المكى من قول الله تعالى : « ·· جنات تجرى من تحتها الأنهـار ·· » فقد جاءت فى مصحف سـيدنا عثمان « ·· جنات تجرى تحتها الأنهار ·· » (١) بحذف من ·

ومثاله أيضا ما وقع فى بعض مصاحف الامصار من عدة واوات ثابتة فى بعضها دون البعض الآخر ، وعدة هاآت ، وعدة لامات ونحو ذلك ، من الأمور التى حملها البعض على أنه نزل القرآن باثباتها ثم نزل بحذفها ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزولها بكتابتها لشخصين من كتاب الوحى · فكتب أحدهم باثباتها والآخر بحذفها ، أو أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الذى أعلم بذلك شخصا من كتاب الوحى ، مرة باثباتها وأخرى بحذفها فجاءت هكذا ، فى بعض المصاحف بالاثبات والأخرى بالحذف ، ثم انتهى الأمر الى ما جاء فى المصحف الذى نسـخه سيدنا عثمان وأمر بارسـاله الى الأمصـار للقراءة فيه واحراق ما عداه ، حفاظا على كتاب الله من أن تمتد اليه يد بالعبث أو بث الاختلاف وصدق الله العظيم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢) ·

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة التوبة ·
(٢) الآية ٩ من سورة الحجر ·

ويشير ابن حجر الى هذا يقوله : والحق أن الذى جمع فى المصحف هو المتفق على انزاله المقطوع به المكتوب بامر النبى - صلى الله عليه وسلم - الى أن يقول : « وماعدا ذلك من القراآت مما لا يوافق الرسم - العثمانى - فهو مما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسهيلا ، فلما آل الحال الى ما وقع من الاختلاف فى زمن عثمان - رضى الله تعالى عنه - وكفر بعضهم بعضا اختار الاقتصار على اللفظ المأذون فى كتابته وتركوا الباقى » .

قال الطبرى : وصار ما اتفق عليه الصحابة من الاقتصار كمن اقتصر مما خير فيه على خصلة واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة لم يكن على سبيل الايجاب بل على سبيل الرخصه . يدل على هذه الرخصة ما جاء فى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن ذكر الأحرف السبعة أن قال : « فاقرءوا ما تيسر منه » (١) .

وبعد أن تمكن القرآن من السنتهم واعتاد غير القرشى ان ينطق مثل نطق القرشى للكلمات التى أتى بها القرآن حسم الأمر واستقر طبقا للعرضة الأخيرة التى عرضها جبريل عليه السلام - وأبلغها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه ، وهى التى سطرها سيدنا عثمان وبعث بها للامصار ليقرأ فيها دون غيرها من النسخ التى قد يوجد فى بعضها شىء يخالف ما نزل به جبريل آخر الأمر .

فالعمدة فى القراءة الآن ما عليه الرسم العثمانى فى المصحف الشريف وماعداه مما يخالفه مردود ولا يقرأ به وهو فى حكم المنسوخ أو المرفوع ، ليس لأحد من الناس أن يعدل عن الرسم الوارد فى المصحف

---

(١) صحيح البخارى باب انزل القرآن على سبعة أحرف .

الذى بعث به ذو النورين ـ رضى الله تعالى عنه ـ لمختلف جهات الدولة الاسلامية ، حسما للأمر ووضعا للأمور فى نصابها الصحيح (٢) .

---

(١) قال أبو العباس بن عمار : أصح ما عليه الحذاق أن الذى يقرأ الا بعض الحروف السبعة المأذون فى قراءتها لا كلها ، وضابطه ما وافق رسم المصحف ، فأما ما خالفه مثل : « أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » ومثل « اذا جاء فتح الله والنصر » فهو من تلك القراءات التى تركت ان صح السند بها ، ولا يكفى صحة سندها فى اثبات كونها قرآنا ، ولا سيما والكثير منها يحتمل أن يكون من التأويل الذى قرن الى التنزيل فصار يظن أنه منه .

وقال البغوى : المصحف الذى استقر عليه الأمر هو آخر العرضات على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر عثمان بنسخه فى المصاحف وجمع الناس عليه ، وأذهب ما سواه قطعا لمادة الخلاف فصار ما يخالف خط المصحف فى حكم المنسوخ والمرفوع كسائر ما نسخ ورفع فليس لأحد أن يعد وافى اللفظ الى ما هو خارج عن الرسم .

(٢) [illegible] البارى جـ ١٩ ص ٣٦ .

الأحرف السبعة والقراءات السبع

مما هو معروف أن القرآن الكريم هو الوحى المنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – باللفظ والمعنى المتحدى به المنقول الينا بالتواتر ، هذا هو القرآن الكريم كما سبق تعريفه ، وهذا القرآن الكريم قد اشتمل على كلمات من لهجات القبائل العربية كما سبق ، وكما بين الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث السابق أنه قد ابيح لمن لا يستطيع نطق كلمة من الكلمات طبقاً للهجة قريش فانه يجوز له أن ينطق بها طبقا للهجته التى جبل عليها وطبع بها لسانه •

ثم وضح أن ذلك قد انتهى واستقر الأمر بالعرضة الأخيرة التى عرضها أمين الوحى جبريل عليه السلام على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أما القرآت التى هى عبارة اختلاف نطق بعض الفاظ القرآن الكريم من حيث التخفيف والتشديد ، والامالة والمد وما الى ذلك فهى أمر آخر غير الأحرف السبعة الوارد ذكرها فى الحديث السابق (١)

---

(١) ذكر السيوطى ما جاء عن المشتغلين بالقرآن وعلومه فى مسألة القرآت السبع – وهل هى الواردة فى الحديث أم لا فنقل عن أبى شامه قوله : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث وهو خلاف اجماع أهل العلم قاطبة ، وانما يظن ذلك بعض أهل الجهل • وقال أبو العباس بن عمار : لقد نقل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغى له ، وأشكل الأمر على العامة بابهامه كل من قل نظره ، أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر وليته اذا اقتصر نقص على السبعة أو زاد ، ليزيل الشبهة •

=

والقراءات السبع قسمها العلماء من حيث التواتر وعدمه أو من حيث عدد رواتها الى الأنواع الآتية :

أولا : القراءة المتواترة ٠ وهى التى نقلها جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم فى كل حلقة من حلقات الرواية حتى انتهت الينا ، وهذا النوع هو الغالب ٠

النوع الثانى : القراءة المشهورة وهو يختلف عن النوع السابق ان عدد رواته فى حلقة من حلقات الرواية قل عن حد التواتر وهو مع ذلك موافق للعربية من حيث نطقه ، ورسمه موافق للرسم العثمانى للمصحف الشريف ، وهذا النوع من القراءة لابد وأن يكون قد ذاع عن القراء واشتهر عندهم ولم يردوه أو يعدوه من القرآت الشاذة ، أو الخطأ وهذا النوع من القراءة أجاز القراء القراءة به ٠

=

وقال مكى : من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هى الأحرف السبعة التى فى الحديث فقد غلط غلطا عظيما ٠ قال : ويلزم من هذا أيضا أن ما خرج عن قراءة هؤلاء السبعة مما ثبت عن الأئمة غيرهم ، ووافق خط المصحف أن لا يكون قرآنا ٠ وهذا غلط عظيم ، فان الذين صنفوا القراءات من الأئمة المتقدمين كأبى عبيد القاسم بن سلام وغيره قد ذكروا أضعاف هؤلاء ٠

كما أورد أن السبب فى الاقتصار على السبعة مع أن فى أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا أو مثلهم أكثر من عددهم ٠٠ نظروا الى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة ٠

يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٣٧ ٠

ويراجع الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٣٨ وما بعدها ٠

النوع الثالث : قراءة الاحاد ، وهى القراءة التى صح سندها لكنه لم يبلغ حد الاشتهار كما أنها خالفت الرسم الذى عليه المصحف وخالفت العربية (١) ٠

النوع الرابع : القراءة الشاذة ، وهى قراءة لم يصح سندها فهى أنزل درجة عن المشهورة ، اذ المشهورة قد صح سندها أما الشاذة فقد انتقص منها هذا الشرط كما أنها خالفت العربية والرسم العثمانى (٢) ٠

---

(١) عقد الترمذى فى كتابه الجامع ، وكذا الحاكم فى كتابه المستدرك لهذه القراءة بابا أخرجا فيه شيئا كثيرا صحيح الاسناد ٠ ومن ذلك ما أخرجه الحاكم من طريق عاصم الجحدرى عن أبى بكرة ان النبى – صلى الله عليه وسلم – قرأ قول الله تعالى : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » الآية ٧٦ من سورة الرحمن ٠ قرأها : « متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان » ٠

كما أخرج من حديث أبى هريرة أنه – صلى الله عليه وسلم – قرأ قول الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » الآية ١٧ من سورة السجدة ٠ قرأها : « أفلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرات أعين ٠

كما أخرج عن ابن عباس أنه – صلى الله عليه وسلم – قرأ : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » قرأها بفتح الفاء ٠

(٢) من ذلك قرأه « ملك يوم الدين » بصيغة الماضى ونصب يوم ومنه قراءة السيدة عائشة والسيدة حفصة – رضى الله تعالى عنهما وعن باقى أمهات المؤمنين – قول الله تعالى :

« حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين قرأناها : حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى صلاة العصر وقوموا لله قانتين ٠

وأيضا قرأه ابن مسعود : فاقطعوا أيديهما قرأها فاقطعوا ايمانهما ٠

وقرأه جابر : فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم – قرأها : من بعد اكراههن لهن ٠

والقراءة الشاذة توضح المعنى المراد بالقراءة المتواترة والمشهورة وتفسير المعنى ٠ يقول السيوطى ٠ هى أكثر من التفسير وأقوى فأدنى ما يستنبط منها معرفة صحة التأويل ٠

الاتقان للسيوطى جـ ١ ص ١٤٢ ٠

النوع الخامس : القراءة الموضوعة ، وهى قراءة لا سند لها وقد خالفت العربية والرسم العثمانى للمصحف ٠

وهذا النوع وما بعده من ذلك الذى زيد فى القراءات ووضعت فيه بعض النصوص للتفسير والبيان (١) ٠

وللعلماء آراء فى القراءة بأنواع القراءات المذكورة ذكروا هذه الآراء عند حديثهم عن القرآن حين قسموه من حيث القراءات الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو الذى يقرأ به ولا يعدل عنه ويجب الايمان بأنه كلام الله سبحانه وتعالى ٠ وهو المتحدى به ، ويكفر منكره وجاحده ٠

---

(١) من ذلك ما زيد فى القراءات على وجه التفسير ٠ كقراءة سعيد بن أبى وقاص قول الله تعالى : « وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ٠٠» « وله أخ وأخت من أم » ٠

وقراءة ابن عباس قول الله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فاذا أفضتم من عرفات ٠٠ » قرأها « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج ٠٠ » أخرج هذا البخارى ٠

وقراءة ابن الزبير قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فزاد بعد كلمة المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم » قال عمرو فما أدرى أكانت قراءته أم فسر ٠ أخرجه ابن الأنبارى وجزم بأنه تفسير ٠

وقال ابن الجزرى : وربما كانوا يدخلون التفسير فى القراءات ايضاحا وبيانا ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قرآنا ، فهم آمنون من الالتباس ٠

المرجع السابق ص ١٣٣ ٠

وهذا القسم هو ما نقله الثقات ووافق العربية والرسم العثماني للمصحف الشريف وهو ما أثبته زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب ونقله عن النسخة التى وضعت عند السيدة حفصة أم المؤمنين ـ رضى الله تعالى عنها وعن أبيها ـ من كلفه سيدنا عثمان بن عفان بذلك ، لتدارك ما كان من شأن الاختلاف فى القراءة ٠

وهذا القسم هو ما وصفت قراءته بأنها القراءة المتواترة فى الغالب الأعم وما وصفت قراءته بالقراءة المشهورة وذلك نادر وقليل ٠ مثال ذلك « مالك يوم الدين ، وملك يوم الدين » (١) « يخادعون ويخدعون » (٢)

القسم الثانى :

وهو الذى نقله الآحاد وصح نقله عنهم وجاء موافقا لصحيح العربية، أما لفظه فقد خالف الخط العثمانى أو رسم المصحف المنقول عمن أمر سيدنا عثمان بكتابته وارساله لأقطار الدولة الاسلامية ليقرأ فيه ويطرح ما عداه ٠

وهذا القسم وان قبل وأجيز قبوله الا أنه لا يقرأ به على أنه قرآن ، وذلك نظرا لأنه قد خالف ما عليه أجمعت الأمة وقرأت به ، ولم يؤخذ عن جمع وانما أخذ عن خبر الآحاد ٠

وهذا القسم أيضا لا يكفر جاحده وان كان يأثم بذلك ومثال هذا القسم ما روى من قراءة ابن مسعود وغيره مما فيه ما حمل على أنه من باب

---

(١) الآية ٤ من سورة الفاتحة ٠
(٢) الآية ٩ من سورة البقرة ٠

التفسير والبيان مثل قراءة ابن عباس لقول الله تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » (١)

اذ قرأها : كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا »

وقد منع جمهور العلماء قراءة ذلك على أنه قرآن ، وذلك لأنه لم ينقل عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، فنقله غير متواتر ، وحتى ان ثبت نقله عن ثقات فهو مما نسخ بالعرضة الاخيرة التى عرضها أمين الوحى جبريل عليه السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثبتا فيها ما هو مكتوب الآن فى المصحف بالرسم العمثانى ، وأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أنه القرآن الذى قرأه رسول الله — صلى الله عليه واسلم — عليهم مرتبا كما سمعه من جبريل — عليه السلام — وهو الذى جمعه عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت ووضع عند السيدة حفصة أم المؤمنين — رضى الله تعالى عنها وعن أبيها ، وكتب عن هذه النسخة ونقلها من أمرهم سيدنا عثمان بكتابة القرآن ليرسل بنسخة للاقطار الاسـلامية فيقرأ فيه ويطرح ما عداه ، مما داخله بعض ما نقل عن الآحاد ، وخالطه التفسير وما أضيف للبيان ، وظن البعض أنه من القرآن ، وما هو من القرآن ٠

القسم الثالث :

ما لا حجة له فى العربية سواء نقله ثقات أو غيرهم ، وهذا القسم لايعد قرآنا بحال من الأحوال حتى وان وافق خط القرآن الوارد بالرسم العثمانى

وهذا هو الموضوع الذى سبق الحديث عنه ٠

ومما لا خلاف عليه أن كل ما هو من القرآن يجب أن يكون متواترا فى أصله وأجزائه ، وأما فى محله ووضعه وترتيبه فان أهل السنة يوجبون

---

(١) الآية ٧٩ من سورة الكهف ٠

التواتر فى ذلك أيضا والقول بذلك أمر لازم عند محققيهم ، فتعود الصحابة والتابعين نقل كل ذلك وفى محله وموضعه بتفاصيله ودقائقه يؤكد تأكيدا يصل حد اليقين صحة المنقول وتواتر النقل ، اذ هم حيال معجزة الاسلام الخالدة التى تحدى اليه بها الجن والانس ٠ أصل الدين ومبناه ، فمعرفتهم تفوق معرفتهم بأنفسهم ، اذ قد ارخصوا أنفسهم للدفاع عن القرآن ، فظهر أنه أغلى عندهم من أنفسهم ، وأنهم أحرص عليه من كل ما هو غيره ٠

وما يبلغ هذه المرتبة يعلم العلم اليقينى الذى لا يداخله أدنى لبس ٠

وعلى هذا فان ما لم ينقل متواترا لا يعد من القرآن نظرا لنقصان شرط التواتر فى النقل وهو شرط جوهرى لأغنى عنه ولا تفريط فى تحققه وكماله ٠ ما هو من القرآن بحسب الأصل ، وليس التواتر شرطا فى محله ووضعه

وذهب البعض من علماء الأصول الى القول بأن التواتر شرط فى ثبوت وترتيبه ٠

ومن هنا أثبت الامام الشافعى البسملة فى أول السور القرآنية وقال الآخرون من علماء الأصول أن التواتر شرط فى اثبات القرآن ومحله ووضعه وترتيبه ، اذ لو لم يشترط ذلك لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر (١) مثل ما جاء من قول الله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٢) ٠
وهذا يبين مدى توخى علماء المسلمون الدقة الدقيقة فيما هو قرآن ٠

هذا والقراءة الشاذة وان ردت من حيث كونها قرآنا ولم تعتبر كذلك

---

(١) سيأتى حديث مفصل فى هذا البحث عن ظاهر التكرار فى القرآن الكريم وبيان الرأى فيها مفصلا ان شاء الله ٠

(٢) يراجع الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ١٣٤ ٠

ولم يعمل بها على أســاس كونها قرآنا يتلى ويتعبد بتلاوته فهى لا تخرج عن كونها مذهب الصحابى الذى وردت عنه أو نسبت اليه ، وينطبق عليها ما قاله علماء الأصول فى أعمالهم لمذهب الصحابى ومدى اعتدادهم به فى أخذ الأحكام •

من أمثلة ذلك ما روى من أن ابن مسعود قرأ قول الله تعالى : «فصيام ثلاثة أيام » فقال : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وذلك فى كفارة اليمين •

فالتتابع اذن قد روى عن ابن مسعود وعد مذهبا له •

كل ذلك ما دام من روى هذه القراءة لم يصرح بأنه سمعها من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أما لو صرح بأنه سمع هذه القراءة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فان للعلماء فى العمل بها رأيين •

الأول : اهمالها وعدم الاعتداد بها ولا يجب العمل بمقتضاها وذلك لأن من رواها قد أوردها على أساس أنها قرآن وعليه فانها لم تثبت بروايته هذه أنها من القرآن لمعارضتها ما نقل متواترا •

أما الرأى الثانى : فانه يوجب العمل بمقتضاها والاعتــداد بهــا فى التشريع ، لأنها وان لم يثبت أنها من القرآن فقد ثبت كونهــا من الأخبــار الواردة عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى بهذا المفهوم سـنة من السنن وان كانت سنة آحادية • وعليه فانه يجب العمل بمقتضاها مثلها فى ذلك مثل بقية ما نقل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بطريق من طرق الآحاد واعتدبه فى الأحكام ، ولزم العمل بمقتضاه ، على التفصيل الوارد

فى ذلك عند العلماء (١) ٠

سبب اختلاف القراء

مما هو معروف أن سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه لما جاءه ما كان من شأن اختلاف قراءة القرآن فى الأمصار همه ذلك وأقلقه ، فما كان منه الا أن أرسل الى السيدة حفصة يطلب منها النسخة التى أودعها عندها الخليفة الأول أبو بكر الصديق وابقاها عندها الخليفة الثانى عمر الفاروق - رضى الله تعالى عنهما - وطلب من زيد بن ثابت ومعه رهط من قريش أن يكتبوا نسخا من هذه التى كانت عند أم المؤمنين ، وأرسل بهذه النسخ الى أمصار الدولة الاسلامية ٠

ومما هو معروف أيضا أن هذه النسخ كانت غير منقوطة ، ولا مشكلة وكان هذا هو حال الكتابة العربية فى ذلك الوقت ٠

ومما هو معروف أيضا أن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين - كان قد تفرقوا فى أمصار الدولة الاسلامية ، وخذ عنهم المسلمون القرآن سمعوه منهم وحفظوه كما نطقه الصحابى ٠

وبهذا ظل أهل كل اقليم من أقاليم الدولة الاسلامية على ما سمعوه ممن عندهم من الصحابة الاجلاء ما دام يوافق خط المصحف الذى أرسله

---

(١) يقول السيوطى : اختلف فى العمل بالقراءة الشاذة ، فنقل عن امام الحرمين عن ظاهر المذهب الشافعى أنه لا يجوز ووافقه كثيرون ، لأنه نقله على أنه قرآن ولم يثبت ٠ وذكر آخرون ، العمل بها تنزيلا لها منزلة خبر الآحاد ٠٠٠ وقد احتج الأصحاب على قطع يمين السارق بقراءة ابن مسعود ، وعليه أبو حنيفة واحتج على وجوب التتابع فى صوم كفارة اليمين بقراءته « متتابعات »،ولم يحتج بها آخرون لنسخها ٠
الاتقان جـ ٢ ص ٢٤٢ ٠

سيدنا عثمان اليهم ـ هذا الخط الغير منقوط ـ وتركوا ما يخالف هذا الخط ٠

ومن هنا جاء الاختلاف فى نطق الكلمة أحيانا من بلد الى آخر ، مع الالتزام فى الناحيتين بالرسم العثمانى الذى كتب به المصحف الذى جاء على حرف واحد من الأحرف السبعة التى سبق الحديث عنها (١) ٠

أثر اختلاف القراء

سبق فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بيانا نصيا واضحا أن الأحرف السبعة التى أنزل الله بها القرآن كانت فى جانب كبير منها للتيسير والتخفيف على الذين لا يستطيعون هجر لهجاتهم التى طبعوا عليها وجبلوا على النطق بها ٠

واذا كان الأمر بهذا المفهوم بالنسبة لأمر الأحرف السبعة فانه أيضا ينسحب بالنسبة للقراءات التى وردت فى نطق بعض كلمات القرآن الكريم بالتخفيف أو التضعيف ، أو الامالة وما الى ذلك ٠

---

(١) قال ابن أبى هشام : ان السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت اليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة ، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل، قال: فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعا عن الصحابة بشرط موافقة الخط ، وتركوا ما يخالف الخط ، امتثالا لأمر عثمان الذى وافقه عليه الصحابة ، لما رأوا فى ذلك من الاحتياط للقرآن ٠ فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار ، مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة ٠
يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٣٧ ٠ الاتقان فى علوم القرآن جـ ١ ص ١٠٢ ٠

من هنا قال بعض المشتغلين بعلوم القرآن أنه لا خلاف فى أن تعدد القراءات أمر ينتج عنه التيسير والتسهيل فى نطق بعض الكلمات ، بالنسبة لهؤلاء الذين تعودت ألسنتهم نطقها نطقا يغاير نطق الآخرين لها مع اتفاق الجميع فى الرسم وترتيب الحروف • وهذا واحد من الآثار المترتبة على اختلاف القراء •

أما الثانى : فقد اهتم به وأظهره المشتغلون بعلوم البلاغة والبيان ، ويتمثل فيما للقرآن من اعجاز فى ايجازه وبيانه •

فالتعبير عن المعنى الواحد بالفاظ متعددة وان كان نوعا من البلاغة واظهارا لقوة التمكن اللغوى ، فان التعبير عن المعانى المتعددة بلفظ واحد فيه من البلاغة والبيان •

وتعدد القراءات وتنوعها يؤدى الى هذا اللون البلاغى المعجز الذى يعبر عن المعانى المتعددة باللفظ الواحد وان اختلفت حركة حروفها : فهو لون من الايجاز البلاغى الدال على ما للقرآن من منزلة لم يبلغها غيره فى أداء المعنى وبعبارة محكمة موجزة • اذ كل قراءة من هذه القراءات تضيف من المعانى الى دلالة كل آية من الآيات ما لو أردنا التعبير عنه لما وسعنا تطويل أو اطناب •

من ذلك ما جاء فى قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج

ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (١) ٠

ولناخذ بعض كلمات هذه الآية المباركة التى قرأت بأكثر من قراءة ودلت فى كل قراءة على ما تدل عليه فى القراءة الأخرى من معانى وأحكام ٠

من هذه الكلمات قول الله تعالى : «وأرجلكم» فقد قرأت بأكثر من قراءة فقد قرأها نافع وغيره بالنصب على أنها مفعول للفعل « اغسلوا » وعلى هذا فغسل الرجلين فرض من فرائض الوضوء ٠

وهذا الفرض يؤدى بصورتين ، احداهما غسل الرجلين بالماء والثانية بالمسح على الخفين لمن لبسهما بالشروط التى ذكرها الفقهاء وقد عبر عن الصورتين الغسل والمسح بعبارة واحدة مع ما فى كل منهما من تقارير وما لكل منهما من أحكام ٠

وهؤلاء الذين جعلوا « ارجلكم » مفعولا للفعل « اغسلوا » بنوا قولهم على الثابت من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، وما ورد من قوله صلوات الله وسلامه حين رأوا قوما يتوضئون واعقابهم تلوح ٠ فنادى بأعلى صوته « ويل للاعقاب من النار ، أسبغوا الوضوء » واسباغ الوضوء يكون بغسل الرجلين الى الكعبين طبقا لما جاء من قول الله تعالى فى الآية السابقة : « وأرجلكم الى الكعبين » وكما قال بالنسبة لليدين : « وأيديكم الى المرافق »

وما هو معروف وثابت أن اليدين يغسلان وأن غسلهما فرض من فرائض الوضوء ٠

---

(١) الآية ٦ من سورة المائدة ٠

أما من قرأ « أرجلكم » بالخفض أى كسر اللام • فقد جعل العامل حينئذ هو الباء وعلى هذا فان الواجب فى الرجلين هو المسح وهو ما روى عن أنس بن مالك ، فقد قال : نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل» وعلى هذا فالفرض عنده هو المسح •

ولذا فانه حين سمع الحجاج يخطب بالأهواز ويذكر الوضوء فيقول : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم وأرجلكم ، فانه ليس شىء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما وظهورها وعراقيبهما

قال أنس بن مالك حين سمع هذا القول من الحجاج : صدق الله وكذب الحجاج •

وكان عكرمة يمسح رجليه وقال : ليس فى الرجلين غسل انما نزل فيهما المسح •

وذهب ابن جرير الطبرى الى أن الغرض هو التخيير بين الغسل والمسح ، وعليه جعل القراءتين كالروايتين فى الخبر الواحد يعمل بهما طالما لم يتناقضا •

وقرأ الحسن « وأرجلكم » بضم اللام فى أرجل •

وقال آخرون : ان لفظ المسح من الألفاظ التى يشترك فيها معنيان فاكثر وتدل عليهما وتشملهما ، فهى مشترك لفظى يصدق على الغسل ويصدق على المسح ، وقد استعملها العرب فى المعنيين ، فقالوا للرجل اذا توضأ فغسل أعضاءه : قد تمسح ويقال : مسح الله ما بك اذا غسلك وطهرك من الذنوب • هذا وغيره نتج من تعدد القراءات فى الكلمة التى معنا • وشملت الكلمة الواحدة كل هذه وعبر عنها جميعها فى آية واحدة أفليس ذلك غاية الايجاز وأبلغه ، واعلاه بيانا واعجازا • وتيسيرا من الله تعالى على عباده اذ باختلاف القراءات تختلف الأحكام وهذا هو الأثر الثالث من آثار اختلاف القراء •

ويتضح هذا الأثر بوضوح · فيما جاء من قراءات لقول الله تعالى فى الآية السابقة : « أو لامستم النساء » ·

فقد قرأها نافع وغيره « لا مستم » وقرأها حمزة والكسائي « لمستم » وقد ورد فى معنى «لمستم » ثلاثة أقوال: الأول لمستم: جامعتم ·

الثـانى : لمسـتم : باشرتم · الثـالث جمع بين المعنيين ، الجماع والمباشرة وأكثر من قرأ : « لامستم » قال بالمعنى الثالث ·

وجاء عن البعض ان الأولى أن يكون « لامستم » بمعنى قبلتم أو نظيره « ولمستم » بمعنى غشيتم ومسستم ، وليس للمرأة فى هذا فعل ·

وقد ترتب على هذا الاختلاف فى القراءة والمعنى اختلاف فى الحكم المأخوذ من الآية الشريفة ·

فقد روى عن الامام أبى حنيفة أن الملامسة مختصه باللمس الذى هو الجماع · فالجنب يتيمم · والملامس بيـده لم يجر له ذكر ، فليس بحدث ولا هوناقض لوضوئه · فاذا قبل الرجل امرأته للذة لم ينتقض وضوؤه ·

واستدل القائلون بذلك بما رواه الدار قطنى عن السيدة عائشـة رضى الله تعالى عنها من أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ـ قبل بعض نسائه ثم خرج الى الصلاة ولم يتوضأ ·

وروى عن الامام مالك قوله : الملامس بالجماع يتيمم ، والملامس باليد يتيمم اذا التذ · فاذا لمسها بغير شهوة فلا وضوء ·

وقال آخرون اذا كان على زوجته ثوب كثيف فلا شيء عليه ، وان كان الثوب خفيفا فعليه الوضوء ·

وقال آخرون من تعمد مس امرأته بيده لملاعبة فليتوضأ التذ أو لم يلتذ ٠

هذه الأقوال المجملة هنا المفصلة فى كتب الفقه جاءت نتيجة الاختلاف فى القراءة وهذه ثمرة جنية من ثمار اختلاف القراء ٠

الأثر الرابع : أن الله تبارك وتعالى يعطى المسلمين أجرا عظيما جزاء اعتمامهم بالقرآن وضبط كلماته والتحقق فى هذا الضبط وأسبابه ومعرفة قواعده وعلله ، وما الى ذلك مما أفرغ له العلماء مؤلفات عظيمة وافردوه علما خاصا ثم فرعوه الى علوم كثيرة ، مثل علم القراءات ، وما ألف فيه ، وعلم الخط وماله من قواعد ، ورســم المصحف وماله من أصول وضوابط وعلم المتشابه بفروعه وفنونه وأسراره وكنوز معانيه ٠

ومن هذه الآثار أيضا ما يبين من فضل الأمة التى انزل اليها القرآن وتكريم الله تعالى لها بان انزل اليها كتابا ليسر لها قراءته على أكثر من وجه مع حفظ الله تعالى لهذا الكتاب من أى تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقصان « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » بخلاف ما أنزل مما سبق القرآن فقد أنزله الله تعالى جملة واحدة وعلى وجه واحــد ، ومع هذا فما نشاهده مما حدث به غنى عن الاشارة اليه مبين عما نزل به ٠

وصــدق الله العظيــم اذ يقول محدثا عن هؤلاء الذين حرفوا وغيروا وبدلوا : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سـمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا فى الدين ٠٠ » الى أن يقول تعالى عنهم : « ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (١) ٠

---

(١) الآية ٤٦ من سورة النساء ٠

ويقول تعالى : « نبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ·· » (١) ·

ثم يخاطبهم الله بقوله : « وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا باياتى ثمنا قليلا واياى فاتقون » (٢) ·

ولما كان التبديل والتعبير والتزييف شأنهم طلبوا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيهم بقرآن آخر غير هذا القرآن وأن يبدل كلام الله ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم يرد عليهم ويبين جزاء من يبدل كلام الله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى انى أخاف أن عصيب ربى عذاب يوم عظيم » (٣) ·

---

(١) الآية ١٣ من سورة المائدة ·

(٢) الآية ٤١ من سورة البقرة ١

(٣) الآية ١٥ من سورة يونس « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » الفرق بين للتبديل والاتيان بغيره أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والاتيان بغيره قد يجوز أن يكون معه · وماسألوه له فيه ثلاثة أوجه ·

الأول : أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيدا ، والوعيد وعدا ، والحلال حراما ، والحرام حلالا ·

الثانى : سألوه أن يسقط مافى القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ·

الثالث : أنهم سألوه اسقاط مافيه من ذكر البعث والنشور « ان أتبع الا ما يوحى الى » أى انى متبع ما ينزل على من عند ربى ولا أملك له تغييرا أو تبديلا ، فلا أستطيع أن أحلل حراما ولا أن أحرم حلالا ، أو ابدل وعدا الى وعيد أو وعيدا الى وعد فما أقوله وحيا من عند الله وليس كلاما من تلقاء نفسى ·

المبحث الثانى

البناء القرآنى من حيث الترتيب والجمع

الحديث عن البناء القرآنى يقتضى الاشارة الى كيفية نزول القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - طول الفترة التى عاشها رسول الله يدعو الى دين الحق وشريعة السماء السمحة الغراء على مدى ما يقرب من ثلاثة وعشرين عاما ، قضاها - صلى الله عليه وسلم - بين مكة التى شهدت الدعوة فى مهدها ، ثم المدينة التى عاشت فترة بناء الدولة وتشريع الأحكام وارساء قواعد المعاملات ونظم العلاقات ، ثم ما بين مكة والمدينة من جهاد ودفاع عن دين الحق وفتح وانتشار للحق ونصرته على الباطل « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ٠٠ » (١) ٠

ثم نلقى نظرة على ما كان فى عهد الخليفة الاول الصديق ، وما كان من أمر عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنهما فى شان جمع القرآن الكريم الذى كان لا يزال مفرقا فى صدور الرجال وعسب النخل وغير ذلك من الرقاع التى كتب القرآن الكريم عليها فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستمر الأمر بصورته هذه حتى وقعت حرب اليمامة وما نتج عنها ٠

الأمر الذى حدى بالخليفة وأصحابه الى جمع القرآن الكريم فى مجلد واحد ٠

وفى ختـــام هـــذا المبحث نلقى نظرة عامة على ما وقع ابان خلافة ذى النورين عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه من أمر اختلاف القراء مما حدى بوقوع فتنة بين صفوف المسلمين ، لولا أن تدارك الله الأمة الاسلامية

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنبياء ٠

بلطفه ، وهدى خليفة المسلمين الى جمع الأمة على مصحف سطره وأرسله الى أمصار الدولة الاسلامية لجمع الكلمة وتوحيد القراءة وحسم الخلاف من هنا قسمت الحديث فى هذا المبحث الى ثلاثة مطالب :

المطلب الاول : ويأتى فيه الحديث عن القرآن الكريم ابان عصر النزول ·

المطلب الثانى : وفيه الحديث عن القرآن الكريم خلال خلافة الصديق أبى بكر - رضى الله تعالى عنه - ·

المطلب الثالث : وفيه اشارة الى ما وقع فى عهد ذى النورين عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - وما كان منه من عمل يجزيه الله عنه خير الجزاء جمع كلمة المسلمين ونسخ له مصاحف يقرأ فيها ويمحى ما عداها ·

المطلب الأول :

القرآن الكريم ابان عصر النزول .

وضح مما ذكرنا آنفا أن القرآن الكريم نزل فى رمضان وفى ليلة القدر كما أخبر القرآن الكريم بذلك .

وان القرآن بدأ نزوله مفرقا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم كان عليه الصلاة والسلام يتعبد فى الغار فجاء الملك الأمين الى الرسول - صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (١) ثم بعد نزول أول سورة اقرأ انقطع الوحى فترة عن النزول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اشتاق الرسول خلالها للقاء الوحى ، فجاء الوحى ثانية اليه - صلى الله عليه وسلم - ونزل قول الله تعالى : « يأيها المدثر ، قم فأنذر وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، وارجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر .. » (٢) الى آخر آيات هذه السورة وهى أول سورة نزلت كاملة على الرسول - صلى الله عليه وسلم - لذا فان بعض المشتغلين بعلوم القرآن قالوا : انها أول سورة نزلت (٣) ، واجابهم جمهور المشتغلين

---

(١) أول سورة اقرأ .

(٢) الآيات ١ - ٧ من سورة المدثر .

(٣) ورد هذا القول عن بعض صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما جمهورهم فعلى أن أول ما نزل « اقرأ » فقد روى البخارى ومسلم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله أى القرآن انزل قبل ، قال : « ياأيها المدثر » قلت : أو « اقرأ باسم ربك » . قال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : انى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت

بعلوم القرآن بان نزولها جاء بعد نزول أول سورة اقرأ ، مستدلين لذلك بما جاء فى الصحيحين عن أبى سلمة عن جابر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يحدث عن فترة الوحي فقال فى حديثه : بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله « يا أيها المدثر » .

فهذا الحديث قد دل فى صراحة على أن رؤيته - صلى الله عليه وسلم - للملك فى هذه المرة ، التى ذهب بعدها الى زوجه - رضى الله تعالى عنها - ، وطلب أن يدثروه فنزلت عليه سورة المدثر وهو على حالته هذه - هذه الرؤية كانت متأخرة عن رؤيته للملك فى حراء المرة الأولى التى أنزلت عليها فيها الآيات الأولى من سورة اقرأ .

ومن قال بان المدثر أول ما أنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - ارادوا بذلك أيضا أنها أول ما نزل عليه بعد أن كان الوحى قد انقطع فترة طويلة وكان صلى الله عليه وسلم - قد حزن لفتور الوحى وتأخره عليه ففرح بها - وبما حملته اليه من أمر بالتبليغ والدعوة الى الله ، وانذار الناس ،

فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى وشمالى ثم نظرت الى السماء فاذا هو - يعنى جبريل - فأخذتنى رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى فأنزل الله « يأأيها المدثر قم فأنذر » هذا ما استدل به على نزول « اقرأ » أولا ، أما الذى أشكل على القائلين بنزول المدثر أول فقد وجه على أساس أن المدثر نزلت كاملة بتمامها ، أما اقرأ فان أول ما نزل منها هو صدرها ، وقد اكتملت نزولا بعد نزول المدثر .
يراجع ما جاء عن السيوطى فى كتابه الاتقان ج ١ ص ٤٠ .

وتكبير الله - سبحانه وتعالى - (١) أو أن الذين قالوا بأن المدثر أول ما نزل قصدوا بذلك أنها أول سورة نزلت بسبب ما وقع من المشركين مما اغتم منه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحزن له فنزلت هذه السورة لتفرج عنه حزنه ولتلاطفه وتناديه في حنان ومحبة فأراد الكريم العليم لحبيبه ومصطفاه مهدهدا ومطمئنا معبرا عنه - صلى الله عليه وسلم - بصفته التي ...ان عليها ايناسا لقلبه وتثبيتا لفؤاده (١) ٠

---

(١) ويؤكد نزولها متأخرة عن « اقرأ » ما روى من أن أبا لهب اجتمع ومعه أبو سفيان والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحرث ، وأمية بن خلف وغيرهم وقد اجتمع وفود العرب في أيام الحج وتحدثوا في أمر محمد - صلى الله عليه وسلم - وقالوا : شاعر ٠ فقال الوليد : سمعت كلام ابن الأبرص ، وأمية بن أبي الصلت ، وما يشبه كلام محمد كلام واحد منهما ٠ فقالوا : كاهن ٠ فقال : الكاهن يصدق ويكذب وما كذب محمد قط ٠ فقال آخرون : مجنون ٠ فقال الوليد : المجنون يخنق الناس وما خنق محمد قط ٠ وانصرف الوليد ، فقالوا : صبأ الوليد ، فدخل عليه أبو جهل وقال : زعمت قريش أنك قد احتجبت وصبأت ٠ فقال الوليد : مالي الى حاجة ، ولكني فكرت في محمد ، فقلت : انه ساحر ٠ وشاع هذا في الناس فعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ورجع الى بيته محزونا فتدثر بقطيفة فنزل عليه : « يأأيها المدثر » وفيها ما فيها من تهديد ووعيد للوليد بن المغيرة ، لكفره نعمة الله عليه من مال وولده ثم هو قد آذى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ٠

(٢) من ذلك أيضا ما جاء من القرآن الكريم خطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - في سورة هينة لينة مطمئنة مبينة مكانته ومنزلته عند ربه فيقول تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم » الآية ٤٨ من سورة الطور ٠

فهى أول سورة نزلت ترد على ما وقع قبلها ومسببة عما سبقها من أحداث .

وهكذا بدات آيات الذكر الحكيم تنزل على سيد المرسلين - صلى الله عليه وسلم - آية تلو الاخرى توجه وتعلم وتخبر (١) وتجيب على سؤال وجه الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتدعو الى التبصر فى الكون والاستدلال بما فيه على وحدانية الله تعالى وأنه - سبحانه - وحده هو المستحق للعبادة دون سواه (٢) ، فهو وحده الذى يملك الكون وما فيه من ماديات وأسرار « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (٣) .

---

(١) من ذلك ما جاء من قول الله تعالى : « وكم أرسلنا من نبى فى الاولين ، وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزءون ، فاهلكنا اشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ، ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون ، والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » .

الآيات ٦ - ١٢ من سورة الزخرف .

(٢) من ذلك ما جاء من قول الله تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر ، الا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ان الينا ايابهم ، ثم ان علينا حسابهم .

الآيات ١٧ - ٢٦ من سورة الغاشية .

(٣) الآية ١٩ من سورة غافر .

وهو سبحانه قد أخبر عن نفسه بأنه وحده الخالق ، العالم المستحق للحمد ، القادر على تسيير الكون ، وخاطب بذلك رسول الله سبحانه وتعالى مجيبا على ما أثاره المشركون من قضايا حول الرسالة والرسول فقال تعالى « وربك يخلق ما يشـــاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ،وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون » (١) .

فهو سبحانه قد بين لهؤلاء المشركين والمعاندين ورد عليهم ما زعموا وابطل ما ادعوا ، وأعلمهم أن شركهم وبال عليهم وان شركاءهم قد حقت عليهم أيضا كلمة العذاب . وأن الله وحده هو الذى يختار الشفعاء وانه لا تنفع عنده الشفاعة الا باذنه ، ولمن خصه بذلك من خلقه،ومنحه هذه المنزلة.

وفى هذه الآيات أيضا رد على الوليد بن المغيرة حين قال ماحكاه القرآن الكريم « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فبين الله أنه وحده هو الذى يختار لرسالته من يراه هو ، فهى رحمة والله يخص برحمته من يشاء « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » (٢) .

فاذا كانت الدنيا وما فيها من أمور العيش قد قسمها الله بين خلقه ولم يجعل لهم شيئا من أمر ذلك ،فهو سيجعل لهؤلاء أمر اختيار الأنبياء والرسل.

كما أن فى ذلك أيضا رد على اليهود ، الذين قالوا : لو كان الرسول الى محمد غير جبريل لآمنا به .

هذا شأنهم وتلك مغالطاتهم فى كل وقت وحين والله قد كشف كذبهم وضلالهم ، ومراوغاتهم ومكرهم ، وبين أنه وحده الذى يختار لأنه وحده الذى له الخيرة ، فهو الذى يعلم ماتكن الصدور ، وماتوسوس به الأنفس .

---

(٢) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

وكيف لا وهو اللطيف الخبير • فيختار ما فيه الخير والنفع والاصــــلاح والفلاح (١) •

وهكذا ينزل القرآن الكريم مواكبا الدعوة مسايرا ركبها مدافعا عن الرســول - صلى الله عليه وســلم - بالحجة والبرهان مؤيدا له بالدليل والتبيان ، الى حد أن القرآن كان ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوضــح له ماذا يقول لهؤلاء المعــاندين وكم من آيات بدأها الله « بقل » من ذلك قول الله تعالى : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون،ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٢) •

---

(١) يقول الشاعر فى هذا المعنى

توكــل على الرحمن فى كل حاجـة
أردت فان الله يقضى ويقــدر

اذا ما يرد ذو العرش أمرا بعبـده
يصــبه وما للعبــد ما يتخـير

وقد يهلك الانســان من وجه حذره
وينجو بحمد الله من ليس يحـذر

وقال شاعر آخر فى هذا المعنى

العبــد ذو ضــجر والرب ذو قدر
والدهر ذو دول والرزق مقســوم

والخير أجمع فيما اختــار خالقنــا
وفى اختيار سواه اللوم والشوم

(٢) الآيات ٧١ - ٧٣ من سورة القصص •

ففى هذه الآيات حدث الله فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين له ما يحاججهم به من قول ، وما يطالبهم به من فعل ان كانت لهم أو لشركائهم قدرة على التغيير أو التبديل ، فالليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى يسيرها بأمره ، فهل فى استطاعة أحد أن يغير سيرها ، واذا جعل الله النهار سرمدا دائما فهل يستطيع مخلوق أن يغير من الأمر شيء .

ثم هو سبحانه وتعالى من رحمته بخلقه أن دبر لهم الأمر وأوجد لهم ما فيه نفعهم منظما تنظيما يعجز العقول والافهام واذا كانت هذه الآيات قد جاءت بهذا الأسلوب الذى يدعو الى التفكر والتدبر والوقوف على جانب من جوانب قدرة العزيز القدير الرحيم بخلقه ، المتفضل عليهم ، فقد جاءت آيات أخرى ترد على من كفر وتولى ، ردا قاطعا حاسما للقضية المطروحة من جانب هؤلاء المراوغين المشركين الكافرين ، من ذلك ما جاء فى سورة كاملة سميت « سورة الكافرون » فقد أنزلها الله تعالى يرد بها على الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، حين قابلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له فى مكر ودهاء وصد عن سبيل الحق: يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فان كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وان كان الذى بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شاركتنا فى أمرنا ، وأخذت بحظك منه ، فرد الله تعالى على هؤلاء بقوله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم : « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين » (١) .

---

(١) سورة الكافرون وهى سورة مكية نزلت بمكة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - ترد على هؤلاء الذين قالوا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو أستلمت بعض هذه الآلهة لصدقناك ، فنزل جبريل الأمين على

وهكذا تنزل الآيات على الرسول – صلى الله عليه وسلم – تكشف وتوضح وتبين الطريق والاجابة ، وتناقش وتجادل فى رفعه وقوة وجزم الى حد أنها تبين للرسول – عليه والصلاة السلام – ماذا يقول للمعاندين والمعارضين والمراوغين ، بالكلمة واللفظة بل وبالحرف الواحد ، القول الذى لا يحتمل غيره والمتدبر فى آيات القرآن الكريم يجد أن هناك مائتين ونيف وتسعين لفظة « قل » قد جاءت بعينها فى القرآن الكريم ناهيك عن تصاريفها

النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذه السورة ردا على مقالة الكافرين • وهو رد قاطع جازم لا هوادة فيه ولا ملاينة ، لذلك حين سمعوا منه هذه السورة يئسوا من مناقشتهم له وآذوه – صلى الله عليه وسلم – وآذوا أصحابه – رضوان الله عليهم أجمعين – بكل صنوف العذاب •

والمخاطبون بهذه الآيات هم الذين سبق علم الله تعالى بأنهم يموتون على الكفر ، من هذا النوع الذى جاء بلفظ العموم وقصد به الخاص •

وفى التكرار هنا أسرار كثيرة ، منها أن فيه مطابقة لمقالتهم فقد قالوا: تعبد آلهتنا ونعبد الهك ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد الهك ثم تعبد آلهتنا ونعبد الهك فتجرى على هذا أبدا سنة وسنة ، فكانت الاجابة على كل ما قالوه بضده •

أو أن التكرار هنا جاء لتغليظ الرد وتأكيد النفى فى الحال والمستقبل

وقيل أيضا أنهم كانوا يعبدون الأوثان ، فاذا مروا بحجارة تعجبهم القوا هذه وعبدوا تلك فقال الرسول ، ذلك ، نفيا ورفضا لكل ما عبدوه أو سيعبدوه من الحجارة •

كما أن فى العدول عن لفظ عبدت الى لفظ أعبد اشعار على أن مايعبده الرسول لا يتغير ولا يتبدل وانما هو الواحد الأحد ، الأول والآخر والظاهر والباطن •

المختلفة ، وما ذلك الا دليل على أن القرآن الكريم كان ينزل موجها ومواكبا ومؤيدا ومناصرا وراعيا للدعوة والداعى ومثبتا لقلبه وفكره وخطاه، وصدق الله العظيم : « وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لا تخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شـــيئا قليلا » (١) ٠

ومن عين ما قيل فى معنى هاتين الآيتين ما ذكره القشيرى وابن عباس٠ فقال القشيرى : ما كان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم بالركون اليهم ،

---

(١) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة الاسراء ٠ وتتحدثان عما كان من بعض الكفار من مراوغة ، فقيل أنهما نزلتا فى وفد ثقيف ، أتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسألوه شططا وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها ، فاذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وحرم وادينا كما حرمت مكه ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ، فهم رسول الله ـ صلى الله عليه وســلم ـ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية ٠

وقيل نزلت فى أكابر قريش حين قالوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: أطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك ، فهم بذلك حتى نهى عنه ٠

وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خلوا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات ليلة الى الصبح يكلمونه ويفخمونه ، ويسودونه ٠ ويقاربونه، فقالوا انك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس ، وأنت سيدنا يا سيدنا ، ومازالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله من ذلك ٠

ومقالة ابن عباس هنا فيهـا القول الفصل ، فذلك تعليم للأمة حتى لا يركن أحد منهم الى المشركين فى شىء من أحكام الله وشرائعه ٠

يراجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٩١٥ ٠

بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك ميل الى موافقتهم ، ولكن تم فضل الله عليك فلم تفعل ٠

وقال ابن عباس : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معصوما ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم الى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه ٠

ومن الآيات التى بينت أن القرآن نزلت آياته أيضا لتثبت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - وتبين الحق وتعظ المؤمنين وتذكرهم ، ما جاء من قول الله سبحانه وتعالى : « ولو شـاء ربك لجعل النـاس أمة واحـدة ولا يزالون مختلفين ، الا من رحـم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) ٠

---

(١) الآيات ١١٨ - ١٢٠ من سورة هود وفى هذه الآيات بين الله تعالى أنه لو أراد لجعل الناس على ملة واحدة أو على دين واحد ، ولكن منهم من رحمه الله بأن رزقه الايمان والهدى ٠

أشار الى هذا مالك - فيما روى عنه أشهب أنه قال : سألت مالكا عن هذه الآية قال : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أى خلق أهل الاختلاف للاختلاف ، وأهل الرحمة للرحمة ٠ وقال ابن عباس : خلقهم فريقين ، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه ٠ سـبحانه لا يسـأل عمـا يفعل وهم يسألون ٠ « ما نثبت به فؤادك » على أداء الرسالة وتبليغها لهؤلاء وغيرهم من المعاندين الجاحدين ، وكذا التصبر على آذاهم وعنتهم وجهلهم ٠ وقال ابن عباس : ما نشد به قلبك ٠ وقال غيره نصبر به قلبك حتى لا تجزع وقيل : نطيب ٠ « وجاءك فى هذه الحق » أى فى هذه السورة -سورة هود- وخصت هـذه السـورة بهذا لأن الله أورد فيها أخبـار الأنبياء والجنة ، والنار ، وقيل تأكيد وقيل الضمير يعود على النبوة ٠

وقوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (١) .

واذا كان القرآن فى هذه الآيات قد رد على المفترين افتراءهم ونقض دعواهم وبين الحكمة وفصل الخطاب فيما قصه الله على نبيه ورسوله وحبيبه ومصطفاه من أخبار الأنبياء السابقين ليثبت به فؤاده وقلبه وليريح به نفسه وجوارحه ، فقد نقض القرآن الكريم أيضا أنواعا أخر من الدعاوى المضللة التى افتراها المرجفون الكافرون حين اتهموا رسول الله - صلى الله عليه - بانه قد جاء بالقرآن من عنده هو وأنه ليس من عند الله - اتهموه بذلك تارة ، ثم عادوا واتهموه مرة أخرى بانه قد جاء به من عند بعض الأعاجم والنصارى ، وانه أخذه عن هؤلاء الذين لهم علم بالكتب المقدسة وتمادى القوم فى لجاجهم وافترائهم فرد الله عليهم وفند دعواهم ودحض مقالتهم فقال تعالى : « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين (٢) .

---

(١) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الفرقان .

(٢) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة النحل .

« بدلنا آية » أى أنزلنا شريعة فنسخنا بها شريعة سابقة عليها ، أو نسخنا آية من القرآن وبدلناها بآية أخرى ، أو بدلنا حكما بحكم آخر ، والنسخ والتبديل من معانيهما رفع الشىء مع وضع غيره مكانه « بل أكثرهم لا يعلمون » الحكمة فى التبديل والتغيير ، وهذا يثبت أن هناك من القوم

وهكذا كان جملة ما نزل من القرآن الكريم على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة قبل الهجرة ، مواكبا الدعوة متصديا للرد على المشركين مبينا للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يرويه عليهم . وقد سمى هـذا القرآن الذى نزل بمكة المكرمة بالقرآن المكى ، نسبة للمكان الذى نزل فيه ، ثم بعد أن هاجر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة بدأ عصر جديد وبدأ القرآن الكريم ينزل بالأحكام التى يحتكم المسـلمون اليها ويسيرون بمقتضاها .

=

حتى من الذين لم يؤمنوا من يعلم الحكمة فى التغيير والتبديل .

« قل نزله الروح القدس » رد من الله أمر سيد المرسـلين أن يبلغه لهؤلاء والروح القدس : سيدنا جبريل : والمراد الرد على المفترين وبيان أن القرآن الكريم كله نزل به أمين الوحى ـ عليه السلام ـ .

وروى باسناد صحيح عن عامر الشعبى قال : وكل اسرافيل ـ عليه السلام ـ بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث سنين ، فكان يأتيه بالكلمة والكلمة ، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . ،وفى صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » ملك لم ينزل الأرض قط .

« ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر » كان كفار مكة اذا سمعوا القرآن من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيه أخبار ما مضى من الأمم ، قالوا انه تعلمه من بعض النصارى ـ جبر بن عبد بنى الحضرمى ـ أو سلمان الفارسى ، أو بلعام النصرانى . أو أبو ميسره وكان يتكلم بالرومية .

قال ابن اسحاق : كان النبى صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغنى ـ كثيرا ما يجلس عند المروة الى غلام نصرانى يقال له جبر النصرانى ، كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلقنه القرآن . وكان هذا الغلام يقرأ الكتب الأعجمية . والأعجمى الذى لا يفصح ، والله تعالى قد رد افتراء المشركين « لسان الذى يلحدون اليه عجمى وهذا لسان عربى مبين » .

القرآن المدنى

روى البخارى فى باب القراء من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله تعالى عنه - من أنه قال : « والله الذى لا اله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله الا أنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه » ٠

وفى رواية أخرى أنه قال : « لو أعلم أحدا تبلغنيه الابل أحدث عهدا بالعرضة الأخيرة منى لأتيته » (١) ٠

الى هذا الحد كان علم كثير من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضى الله عنهم أجمعين - بالقرآن الكريم ومواطن نزوله ومافيه من أحكام وماله من مدلول ، الأمر الذى أعلنه عكرمة - رضى الله تعالى عنه حين سأله سائل عن آية من آيات القرآن الكريم ٠ أين نزلت ؟ فقال له : نزلت فى سفح ذلك الجبل ، وأشار الى جبل سلع ٠

كما روى أيضا أن ابن عباس ومعه بعض الصحابة قد عدوا المكى من القرآن الكريم والمدنى منه ٠

من هنا اصطلح المشتغلون بعلوم القرآن الكريم على اطلاق القرآن المكى على جملة من سور القرآن الكريم وآياته ٠ كما أنهم اصطلحوا على اطلاق القرآن المدنى على جملة من سور القرآن الكريم وآياته الأخريات

---

(١) وفى رواية أخرى : لتكلفت أن آتيه ٠ وابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - يدلل بذلك على أنه ليس هناك من يتقدم عليه فى ذلك من أحد من البشر جميعا ، وهو احتراز يخرج به الملائكة - عليهم السلام ٠ يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٦٠ ٠

والمتتبع لما جاء عن هؤلاء العلماء يجد أنهم قد أوجزوا المسألة فيما يأتى : -

الاتجاه الأول : كل ما نزل من القرآن الكريم قبل هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى المدينة يسمى قرآنا مكيا ، سواء أنزل بمكة أم نزل فى أى مكان آخر حتى ولو كان نزوله والرسول - صلى الله عليه وسلم - متجها الى المدينة المنورة فى هجرته اليها مادام لم يصلها وقت نزول الآيات عليه .

والقرآن المدنى : هو ما نزل بعد هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى المدينة المنورة ووصوله اليها . فما نزل من القرآن بعد وصول الرسول الكريم الى دار الهجرة حتى ولو كان هذا القرآن قد نزل خارج المدينة المنورة فى أسفار الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو غزواته البعيدة عن المدينة فانه يسمى قرآنا مدنيا ، وهو يشمل ما نزل بمكة المكرمة عام الفتح وفى حجة الوداع (١) .

الاتجاه الثانى : يذهب القائلون به الى أن ما نزل بمكة المكرمة ولو بعد الهجرة النبوية الى يثرب يطلق عليه القرآن المكى .

وما نزل بالمدينة المنورة يسمى بالقرآن المدنى .

أما ما نزل بغيرهما مثل ما نزل والرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده الى يحى بن سلام قال : ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة فهو من المكى . وما نزل على النبى - صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنى .
الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ١٣ .

مسافر الى غزوه من الغزوات أو مكان من الأمكنة ، فانه وسط بين القرآن المكى والقرآن المدنى ٠

وعلى هذا جاء ما أخرجه الطبرانى فى الكبير من طريق الوليد بن مسلم عن أبى أمامة أنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة ، مكة ، والمدينة ، والشام » قال الوليد : يعنى بالشام بيت المقدس ٠ واختار آخر أن المراد بالشام ما نزل بتبوك (١)

ومن أصحاب هذا الاتجاه من جعل من القرآن المكى ما نزل فى ضواحى مكة المكرمة مثل منى ، وعرفات ، والحديبية ٠ كما جعل من القرآن المدنى ما نزل فى ضواحى المدينة المنورة مثل الذى نزل ببدر ، وأحد ، وسلع ٠

واذا كان المشتغلون بعلوم القرآن قد ذهبوا الى هذا التقسيم فى جملة ما ورد عنهم من أقوال ، فان لكل قسم ما يميزه عن الآخر غالبا ٠

ففيما تقدم من حديث عن الدعوة الى الاسلام فى أول أمرها حين نزل الوحى على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمره ربه بتبليغ الرسالة الى الناس ، ودعوتهم الى عبادة الواحد الديان ، وما كان من قريش وغيرها من لجاجة فى القول وحوار ومناقشة ، وما صادفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مكة والطائف وغيرهما من عنت ، وما نزل فى ذلك من قرآن قبل الهجرة ، يتضح أن سمته الغالبة - كما سبق - كانت الدعوة الى اصلاح العقيدة واعلاء كلمة الوحدانية ، وافراد الله - سبحانه وتعالى - بالعبادة لأنه وحده هو الخالق المستحق أن يعبد ، دون غيره ٠

---

(١) منطقة فى الشمال الغربى من المملكة العربية السعودية قريبة من حدودها مع الأردن ومن خليج العقبة ٠ وكانت بها غزوة تبوك ٠ بينها وبين مكة المكرمة قرابة الألف كيلو متر أو يزيد ٠

أما بعد أن هاجر الرسول – صلى الله عليه وسلم – الى المدينة ، وبدأ يكون دولة فيها ، ويوحد بين المهاجرين والأنصار ، بدات معالم الدولة الجديدة تظهر ، واحتاج المسلمون الى ارساء تعاليم دولتهم ، ونظم التعامل فيها ، وأحكام العلاقات بين أفرادها بعضهم البعض وبين من جاورهم فى المدينة من غير المسلمين ، ومن جاور المدينة من القبائل والبلاد الأخرى ٠

وبدأت آيات الأحكام تنزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – تبين للمسلمين دستور حياتهم ، ونظام تعاملاتهم من حل وحرمة ، وكراهة وندب ، واباحة ، وما الى ذلك من أحكام ٠

هذا الى جانب آيات كثيرة فى العبادات وتشريعاتها فشرع الصيام ، وشرعت الزكاة وشرع الحج ، وغير ذلك من العبادات ، وبين القرآن الكريم أحكامها ، ونزلت آياته البينات توضح ذلك ٠

« يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ٠٠ » (١) ٠

نزلت هذه الآيات فصام المسلمون رمضان والتزموا بأحكام الصيام ٠ وكان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اذا حضر أحدهم الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى ، وأن الرجل أيضا

---

(١) الآيات ١٨٣ –١٨٥ من سورة البقرة ٠

اذا نام بعد افطاره لا يجوز له اذا اســتيقظ بعد ذلك أن يأتي زوجه ، واستمر الأمر على هذا حتى حدث أن قيس بن صرمه الأنصارى كان صائما ـ وفي رواية ـ كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صــائما ـ فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن انطلق فاطلب لك ، وكان يومه يعمل ، فغلبته عينــــاه فجاءته امرأته فلما رأته قالت : خيبة لك فلما انتصف النهار غشى عليه ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فنزل قول الله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لبــاس لكم وأنتم لبــاس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفســـكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام الى الليل ٠٠ » ٠

كما ذكر الطبرى : أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ـ رجع من عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد سمر عنده ليلة فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت له : قد نمت ، فقال لها : ما نمت ، فوقع بها ٠ وصنع كعب بن مالك مثله ، فغدا عمر على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : أعتذر الى الله واليك ، فان نفسى زينت لى فواقعت أهلى ، فهل تجد لى من رخصة ؟ فقال لى : « لم تكن حقيقا بذلك يا عمر » فلما بلغ بيته أرسل اليه فأنبأه بعذره فى آية من القرآن ـ نزلت ـ « علم الله أنكم كنتم تختــانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ٠٠ » الآية (١) ٠

وهكذا بدأت آيات القرآن الكريم تنزل توضح الأحكام وتبين للمسلم أوامر معيشتهم ونظم تعاملهم كما يراها الاسلام فأمرتهم بأشياء ونهتهم عن

---

(١) يراجع تفسير القرطبى ج ١ ص ٦٩٠ ٠

أشياء وأباحت لهم أشياء وأبلغتهم بأنهم اذنوا بأشياء لم يكونوا قد أذنوا بها من قبل • من ذلك ما جاء من قول الله سبحانه وتعالى ـ : « أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ••• » (١) •

---

(١) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج • مما روى فى ملابسات نزول الآية الأولى أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أستأذنوه فى قتال الكفار اذ آذوهم بمكة فأعلمهم أنه لم يأمر بقتال • فلما هاجر الى المدينة نزل قول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون » وروى النسائى والترمذى عن ابن عباس قال : لما خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فقال أبو بكر : لقد علمت أنه سيكون قتال •

قال ابن العربى : قال علماؤنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ، ولم تحل له الدماء ، انما يؤمر بالدعاء الى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل مدة عشرة أعوام . لاقامة حجة الله تعالى عليهم ، ووفاء بوعده الذى أمتن به بفضله فى قوله « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فاستمر الناس فى الطغيان وما استدلوا بواضح البرهان، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم عن بلادهم ، فمنهم من فر الى أرض الحبشة ومنهم من خرج الى المدينة ، ومنهم من صبر على الأذى • فلما عتت قريش على الله تعالى ، وردوا أمره • وكذبوا نبيه ـ عليه السلام ـ وعذبوا من آمن به ووحده وعبده ، وصدق نبيه ـ عليه السلام ـ واعتصم بدينه • أذن الله لرسوله فى القتال • والامتناع • والانتصار ممن ظلمهم ، وأنزل : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ••• » الآية

وهذه هى أول آية نزلت فى القتال •

المرجع السابق جـ ٥ ص ٤٤٦٠ وما بعدها •

واذا كانت هاتان الآيتان قد نزلتا فى الأمر بالقتال بصفة عامة فان هناك من القرآن ما نزل فى شأن غزوة بدر الكبرى وما كان من المسلمين وتوجيه الله - سبحانه وتعالى - لهم وفضله عليهم ، ومعاونته لهم فى قتالهم لعدوهم : « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون ، اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم ، اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام ، اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » (١) •

---

(١) الآيات ٧ - ١٣ من سورة الأنفال • روى ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم لما أخبر بأبى سفيان أنه مقبل من الشام ندب المسلمين اليهم وقال : « هـذه عير قريش فيهـا الأموال فأخرجوا اليهم لعل الله ينفلكموها » قال : فانبعث معه من خف ، وثقل قوم وكرهوا الخروج ••• قال ابن اسحاق : وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يلقى حربا فلم يكثر استعدادهم • وكان أبو سفيان يتجسس الأخبار فلما علم ما كان من المسلمين أرسل الى مكة يستنفرهم فخرج أهل مكة فى ألف رجل ، وعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما كان من شأن أبى سفيان وعلم بخروج مكة اليه • فاستشار النبى - عليه =

وهكذا نزلت آيات القرآن فى المدينة مشرعة ، مبينة الحلال والحرام، واضعة الأحكام ، محدثة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما به قوام الدعوة والدولة وشئون المسلمين ، وغيرهم ممن تظلهم راية الدوله الاسلامية ٠

=

الصلاة والسلام ـ أصحابه٠ فقام أبوبكر فقال أحسن، وقام عمر وفقال فأحسن ثم قام المقداد بن عمر فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكم مقاتلون ، والذى بعثك بالحق لو سرت الى ترك الغمار ـ يعنى مدينة الحبشة ـ لجالدنا معك من دونه ٠٠ وتكلم الأنصار فقال سعد بن معاذ وقيل ابن عبادة أو هما : يارسول الله انا قد آمنا بك واتبعناك فامض لما أمرك الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ٠ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « امضوا على بركة الله فكأنى انظر الى مصارع القوم » ٠

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى المشركين وهم ألف٠ وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلا ٠ فاستقبل نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : « اللهم انجز لى ما وعدتنى ، اللهم ائتنى ما وعدتنى ، اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ٠ فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يانبى الله ، كفاك منا شدتك ربك ، فانه سينجز لك ماوعدت وكانت الفيوضات الربانية التى تحكيها الآيات ٠ وأتم الله النصر من عنده لرسوله والمؤمنين ٠

واستمر نزول القرآن الكريم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة بعد مكة قرابة عشر سنوات ، آيات تجيب على ما يعرض للرسول - صلى الله عليه وسلم - من أسئلة ، واستفسارات ، ووقائع وأمور وترد أيضا ما يوجه الى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من افتراءات ، وتدفع عنه ما ينسب اليه أو الى المسلمين من افك وتلفيق ، فى سلمهم وحربهم وتكشف لهم ما يدبر لهم من كيد ومكر ، وما ينزل بهم من شدائد يصرفها الله ويتولى دفعها عنهم ، ما داموا قد اتجهوا اليه ، واطاعوا أمره واتخذوا ما أمرهم به من أسباب ٠

من ذلك ما حكاه القرآن الكريم من شأن غزوة الأحزاب بالمدينة المنورة والمسلمون بداخلها ، وشق الأمر على المسلمين ٠ وانكشف المنافقون فقالوا مقالات أبانت مرض قلوبهم ، وظهر ايمان المؤمنين قويا حين حزبهم الأمر ، وصدقوا الله ورسوله ، وخلصت منهم القلوب ، واتخذوا عدتهم وجمعوا عتادهم واستعدوا للذود عن ديارهم ، والدفاع عن الاسلام ٠ عند ذلك رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وأورث المؤمنين ديارهم وأموالهم وأرضهم ، وقوى شوكتهم ورزقهم النصر من عنده ، وأنزل الله فى ذلك كله قرآنا فى سورة سماها باسم الأحزاب ٠ فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ، ورسوله الا غرورا » ٠٠٠ الى قوله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ٠٠٠ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شىء قديرا » (١) ٠

---

(١) الآيات ٩ - ٢٧ من سورة الأحزاب ٠

واذا كانت هذه الآيات قد تحدثت عما كان فى أمر الأحزاب ، فان القرآن أيضا ما نزل يعلم المؤمنين كل ما يتصل بأمورهم وحياتهم وأهلهم ودولتهم وجيرانهم الى حد أنه علمهم كيف يعاملون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى خطابهم له ، ومجالستهم اياه ، فقد روى الامام البخارى وغيره عن ابن أبى مليكة · قال : حدثنى عبد الله بن الزبير ان الاقرع بن حابس قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال أبو بكر : يا رسول الله استعمله على قومه ، فقال عمر : لا تستعمله يا رسول الله : فتكلما عند النبى – صلى الله عليه وسلم – حتى ارتفعت أصواتهما ··· فنزلت هذه الآية « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » (١) ·

فقال عمر بعد ذلك اذا تكلم عند النبى – صلى الله عليه وسلم – لم يسمع كلامه حتى يستفهمه ·

كما روى عن البراء بن عازب أن وفدا قدم على النبى – صلى الله عليه وسلم – من تميم · فدخلوا المسجد ونادوا النبى – صلى الله عليه وسلم – من وراء حجراته أن أخرج الينا ، فان مدحنا زين وذمنا شين ، وكانوا سبعين رجلا قدموا لفداء ذرارى لهم ، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – نائم للقائلة · فنزل قول الله تعالى : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم » (٢) ·

الى غير ذلك من أمور السلوكيات التى علمها القرآن للمؤمنين والأحكام التى نزلت بها الآيات فى المدينة المنورة واستمر نزولها قرابة العشر سنين

---

(١) الآية ٢ من سورة الحجرات ·
(٢) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الحجرات ·

حتى كان آخر عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واكتمل نزول القرآن الكريم ، ثم عرضه جبريل الأمين ـ عليه السلام ـ على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرتبا كاملا فى رمضان الأخير وقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ على المؤمنين مرتبا ، فعلموه وحفظوه على هذا الترتيب الذى سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والذى هو بين أيدينا الآن · يحفظه الله تعالى كما أخبر بذلك فى محكم كتابه ·

وقد أورد الامام البخارى ما يدل على أن القرآن الكريم نزل مفرقا حسب الوقائع والأحداث وتلطفا بما طبعت عليه النفوس ، وجبلت عليه الطبائع ورفقا بالمسلمين ورعاية لهم ، فقد أخبر يوسف بن ماهك قال : انى عند عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله تعالى عنها ـ اذ جاءها عراقى فقال : أى الكفن خير ؟ قالت : ويحك ، وما يضرك ؟ قال : يا أم المؤمنين أرينى مصحفك قالت : ولم ؟ قال : لعلى أؤلف القرآن عليه فانه يقرأ غير مؤلف · قالت : وما يضرك آية قرأت قبل ؟ انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام · ولو أنزل أول شىء ـ لا تشربوا الخمر ـ لقالوا لا ندع الخمر أبدا · ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبدا ، لقد نزل بمكة على محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانى لجارية ألعب ـ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ـ وما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده · قال : فأخرجت له المصحف فأمليت عليه السور (١) ·

وهكذا يشير الحديث النبوى الى الحكمة العالية فى انزال القرآن الكريم منجما رحمة بالمؤمنين وعناية بأمرهم ·

وكان جبريل الأمين عليه السلام ـ يعارض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل عام فيقرأ جبريل ما نزل من القرآن على الرسول طوال

---

(١) صحيح البخارى باب تأليف القرآن ·

العام قراءة مرتبة والرسول - صلى الله عليه وسلم - يسمع ، ثم يقرأ الرسول وجبريل - عليه السلام - يسمع قراءته ، وهكذا كل عام .

فلما اكتمل نزول القرآن وأتمه الله نزل جبريل عليه السلام فى رمضان الأخير وعارض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن مرتين.

فقد روت السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - عن السيدة فاطمة - عليها السلام : أسر الى النبى - صلى الله عليه وسلم - أن جبريل - عليه السلام - كان يعارضنى بالقرآن كل سنة وانه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه الا حضر أجلى » .

كما روى ابن عباس - رضى الله عنهما قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - أجود الناس بالخير . وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، لأن جبريل - عليه السلام - كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القرآن فاذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة » .

كما أورد الامام البخارى أيضا ماروى عن أبى هريرة قال: كان يعرض على النبى - صلى الله عليه وسلم - القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين فى العام الذى قبض فيه ، وكان يعتكف كل عام عشرا فاعتكف عشرين فى العام الذى قبض فيه » (١) .

هذا وغيره يوضح كيفية نزول القرآن وانه نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - منجما ، وراجعه جبريل الأمين - عليه السلام - كل عام فى رمضان ، حتى كان رمضان الأخير الذى راجع جبريل فيه رسول الله -

---

(١) صحيح البخارى - باب كان جبريل يعرض القرآن على النبى .

صلى الله عليه وسلم - مرتين ، فرتب القرآن كما هو فى اللوح المحفوظ وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقرأه الرسول - عليه الصلاة والسلام - على أصحابه - الذين حفظوه ووعوه بفضل من الله الذى هيأهم لذلك . وأمدهم بقدرة من عنده ومدد من مدده ، حفظا للقرآن ورعاية للاسلام . وصدق رب العرش العظيم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(١) .

المطلب الثانى :

القرآن الكريم فى عهد أبى بكر الصديق

رضى الله تعالى عنه

تقديم :

بينت فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم من اللوح المحفوظ جملة واحدة الى سماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى بضع وعشرين سنة ، وكان جبريل الأمين - عليه السلام - يعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما نزل فى رمضان من كل عام ، مرتبا ما نزل واضعا الآية بجوار الأخرى ، حتى اكتمل نزول القرآن نعرضه على الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرتين فى رمضان الأخير .

وهكذا رتب الله القرآن الكريم وعرضه جبريل الأمين على الرسول - صلى الله عليه وسلم - طبقا لترتيب السماء له ، وكما هو مرتب فى اللوح المحفوظ ، فترتيب القرآن توقيفى ومن عند الله تعالى (١) .

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٢) قال البغوى فى شرح السنة: الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين =

وقد ورد ذلك عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورد العلماء قول من قال بغيره واستدلوا لذلك بالنقل والعقل ·

أما ما استدلوا به من المنقول فمنه ماأخرجه الأئمة · أحمد وأبو داود عن وس بن وس عن حذيفة الثقفى قال : كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف ··· الى أن يقول : فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - : طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه » فسألنا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور ، وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور،واحدىعشرة وثلاث عشرة ، وحزب المفصل من ق حتى نختم ·

كما أورد الامام مسلم ما روى من أنه عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - خطب يوم الجمعة فذكر نبى الله - صلى الله عليهوسلم - وذكر أبا بكر ثم قال : انى لا أدع بعدى شيئا أهم عندى من الكلالة ، ماراجعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى شىء ما راجعته فى الكلالة ، وماأغلظ

=

- جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا ، خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته ، فكتبوه كماسمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -من غير أن قدموا شيئا أو أخروا أو وضعوا له ترتيبا لم يأخذوه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان الرسول يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصحفنا بتوقيف جبريل اياه على ذلك ، واعلامه عند نزول كل آية أخذ هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه ، فان القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة الى السماء الدنيا ثم كان ينزل مفرقا عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة ·

لى فى شىء ما أغلظ لى فيه حتى طعن بأصبعه فى صدرى ، وقال : « ياعمر الا تكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء ... » (١) .

ومما استدل به فى هذا أيضا ما أخرجه الأئمة أحمد ، وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن حيان ، والحاكم عن ابن عباس قال : قلت لعثمان : ماحملكم على أن عمدتم الا الانفال وهى من المثانى، والى براءة وهى من المئين ففرقتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتموهما فى السبع الطوال، فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد فكان اذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : « ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا» وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ووضعتها فى السبع الطوال .

ومن هذا أيضا ما أخرجه الامام أحمد عن عثمان بن أبى العاص قال : كنت جالسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال : أتانى جبريل فامرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (٢) .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الفرائض باب ميراث الكلالة .

(٢) السبع الطوال أولها البقرة وآخرها براءة هذا ما ذهب اليه جماعة من العلماء وأخرج الحاكم والنسائى وغيرهما عن ابن عباس قال : السبع الطوال البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة =

وروى عن ابن عباس أنه قال : آخر ما نزل من القرآن « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (١) فقال جبريل للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « يا محمد ضعها على رأس ثمانين ومائتين من البقرة » ٠

وفى رواية أخرى عن السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أمر أن توضع هذه الآية بين آيتى الربا والدين (٢) ٠

كما أن القارىء للقرآن يجد أن من سور القرآن سورا بدأت بكلمة « حم » وتسمى هذه السور بالحواميم ، وقد رتبت هذه السور ولاء دون أن يفصل بينها فاصل ٠

كما أن من سور القرآن سورا بدأت بكلمة « طس » وتسمى هذه السور بالطواسين فجاءت سورة الشعراء وأولها « طسم » والقصص وأولها

=

قال الراوى : وذكر السابعة فنسيتها ٠

وفى رواية عن ابن أبى حاتم أنها يونس ، وفى رواية انها الكهف ٠

« والمئون » ما ولى السبع الطوال ، وسميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مائة آية أو تقاربها ٠

« والمثانى » ما ولى المئين لأنها ثنتها أى كانت بعدها فهى لها ثوان والمئون لها أوائل ٠

وقال الفراء : هى السور التى آيها أقل من مائة آية ٠

يراجع ما جاء بفتح البارى لابن حجر جـ ١٩ ص ٥٠ وما بعدها ط مكتبة الكليات الأزهرية ٠

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة ٠

(٢) آية الربا أى ما نزل فى الربا من الآيات ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ من سورة البقرة ٠

وآية الدين هى الآية التى تتحدث عن الدين وكتابته الآية ٢٨٢ من سورة البقرة ٠

« طسم » وفصل بينهما بالنمل وأولهما « طس » ولم تقدم على الشعراء أو تؤخر على القصص ، مع أن أول النمل لم تأت فيه الميم : كما أن النمل أقصر من الشعراء والقصص ٠

كما جاءت سورا من سور القرآن وقد بدأت بكلمة « سبح » أو « يسبح » ولم ترتب هذه السور ولاء وانما فصل بين بعضها البعض بسور أخرى لم تبدأ بكلمة « سبح » أو مشتقاتها ٠

فلو كان الترتيب غير توقيفي لسوى بين السور التى بدأت بكلمة « حم » وغيرها مما بدأ بكلمة « طس » وبكلمة « سبح » ومشتقاتها ٠

لكن لما جاء الأمر كما هو عليها فى ترتيب المصحف وضح منه أن الترتيب ليس من فعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وانما هو من عند الله تعالى نزل به جبريل على سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أما ما جاء على غير هذا الترتيب كمصحف الامام على ، ومصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أبى ، فمرد ذلك الى أن هذه المصاحف كان هؤلاء الصحابة الأبرار قد كتبوها قبل العرضة الأخيرة التى عرضها جبريل ـ عليه السلام ـ على سيد المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبلغها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الصحابة الأطهار ٠ الذين رتبوا السور طبقا لهذا الترتيب الذى نزل به جبريل ، أما تلك المصاحف التى أشرت اليها فانها بقيت على الترتيب السابق على العرضة الأخيرة ، ففيها السور مجموعة غير مرتبة طبقا لما نزل به جبريل بعد أن اكتمل نزول القرآن الكريم ٠

ومما يدل على أن ترتيب المصحف يجب أن يلتزم فيه بالترتيب الذى جاء فى العرضة الأخيرة ، ويترك ما عداه من ترتيب النزول ، أن الآية كانت تنزل فى المدينة ثم يأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم بكتابتها فى سورة

من السور التى نزلت بمكة . ولذا نجد أن من السور وضع عنوانا لها أنها نزلت بمكة ما عدا آية كذا وآية كذا فانها نزلت بالمدينة وكذا عكس ذلك مما نجده من بعض السور كتب عليها أنها نزلت بالمدينة ما عدا الآيات كذا وكذا فانها نزلت بمكة .

وكذا نجد أن من السور التى نزلت كاملة بالمدينة ما قدم على ما نزل بمكة ، ووضعت فى المصحف قبلها ، من ذلك ما روى عن السيدة عائشة – أم المؤمنين رضى الله عنها – أنها قالت : ما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده – أى عند الرسول بالمدينة – وقد قدمتا فى المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة ، ولو الفوه على تاريخ النزول لوجب ان ينتقض ترتيب آيات السور (١) .

---

(١) روى عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسال لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة ، وانما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال قدمتا والف القرآن على علم من الفه به . ومن كان معه فيه ، واجتماعهم على علمهم بذلك ، فهذا مما ينتهى اليه ولا يسال عنه ، الاتقان جـ ١ ص ١٠٩

وقال أبو بكر الأنبارى : من عمل على ترك الأثر والاعراض على الاجماع ونظم السور على منازلها بمكة والمدينة ، لم يدر أين تقع الفاتحة ، لاختلاف الناس فى موضع نزولها ، ويضطر الى تأخير الآية التى فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة الى رأس الأربعين ، وهما آيتان الأولى تتحدث عن عدة المتوفى عنها وزجها ، والثانية تتحدث عن الواجب للمتوفى عنها زوجها من حق الاقامة فى بيت الزوجية وعدم اخراجها الى المدة التى =

جمع القرآن الكريم :

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم من يوم أن نزل عليه قول الله تعالى : « اقرأ » فى غار حراء دائم انتظار الوحى من السماء خصوصا بعد أن علم أنه الوحى الذى ينزل من قبل الله — تعالى — على الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين —

واتخذ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتابا يكتبون ما ينزل من القرآن الكريم فكان كلما نزلت عليه آية أو بعض آيات من القرآن الكريم أمر كتاب الوحى أن يكتبوا ما نزل ٠

وحرصا منه — صلى الله عليه وسلم — على تميز القرآن ، وعدم اختلاطه

=

نصت عليها الآية ثم يقول أبو بكر الأنبارى : ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به ، ورد على محمد — صلى الله عليه وسلم — ما حكاه عن ربه تعالى ٠ هذا فيما يتصل بالترتيب ، أما فيما يتصل بالقراءة وهل الالتزام بالترتيب المذكور عند القراءة أمر واجب أم لا فقد ذكر أبو الحسن ابن بطال، ان من قال بما سبق لا يقول : أن تلاوة القرآن فى الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب الموقف عليه فى المصحف ، بل انما يجب تأليف سوره فى الرسم والخط خاصة ، ولا يعلم أن أحدا منهم قال : ان ترتيب ذلك واجب فى الصلاة وقرءة القرآن ودرسه ٠٠ الا ترى الى قول عائشة — رضى الله تعالى عنها — للذى سألها : لا يضر آية قرأت قبل ٠ وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقرأ فى الصلاة السورة فى ركعة ، ثم يقرأ فى ركعة أخرى بغير السورة التى تليها ٠

يراجع الاتقان جـ ١ ص ١٠٩ وما قبلها ، تفسير القرطبى جـ ١ ص ٥٣ وما قبلها ، فتح البارى جـ ١٩ صـ ٤٩ وما بعدها ٠

بغيره ولو من قبيل اللبس ، أمر أصحابه — عليهم السلام — ألا يكتبوا عنه شيئا غير القرآن الكريم ، فقال — صلى الله عليه وسلم — : « لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه » ٠

وأخذ صحابة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ورضى الله عنهم أجمعين — يكتبون القرآن ويتداولون المكتوب بينهم ليحفظوه عندهم وفى صدورهم ٠

وعلى هذا فقد كتب كل ما ينزل من القرآن الكريم على الرسول — صلى الله عليه وسلم — كتابة مفرقة آية أو آيات أو سورة أو بعض سورة ، طبقا لحالات نزوله أو مراجعة جبريل له — عليه السلام — كل عام ٠

كما أن ما كتب من القرآن لم يكن مجموعا عند شخص واحد ، وانما كان مفرقا أيضا بين بعض الصحابة ، فمنهم من عنده بعضا من القرآن مكتوبا واعتمد فى البعض الآخر على حافظته ، حتى من كان عنده كل ما كتب — حتى لو افترض حدوث ذلك — فانه كان مكتوبا بصورة غير مرتبة ، كتابة مطابقة لوقائع النزول ٠ وغالب الأمر أن من ذلك ما كان عند أبى ، وعلى ابن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وقد أشار الى ذلك ما روى عن زيد بن ثابت من أنه قال : قبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن القرآن جمع فى شىء ٠

ويشير الخطابى الى ذلك فى شىء من البيان حين قال : انما لم يجمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه ، أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر — رضى الله تعالى عنهما — (١) ٠

---

(١) الاتقان جـ ١ ص ٩٨ ٠

وقد أشار الحاكم فى المستدرك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان قد عهد الى بعض الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - بأن يرتبوا ما نزل من القرآن مفرقا ، فيضعوا آيات كل سورة من السور بعضها مع البعض الآخر ، فيجمعون بين ما كتب مفرقا طبقا لما نزل ، يجمعونه معا مرتبا طبقا لما يعرض على الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل عام فى رمضان ، يشير الى ذلك أيضا ما روى عن زيد بن ثابت - رضى الله تعالى عنه - من أنه قال : كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نؤلف القرآن من الرقاع .. » .

كما أن فى حديث البخارى عن العراقى الذى جاء يسأل أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - ما يشير الى أنها أخرجت مصحفها واملت عليه آى السور ، وذلك بعد أن قالت : ما نزلت سورة البقرة والنساء الا وأنا عنده - ومما هو معروف أن هاتين السورتين لم تنزل كل منهما دفعة واحدة كاملة وانما نزلت آيات كل منهما متفرقة ، وعليه فقد أعلم الرسول بترتيب آيات كل منهما وأخبر بذلك أصحابه فرتبوا هذه الآيات المتفرقة . كل فى السورة التى أعلمت للرسول - صلى الله عليه وسلم - وحدد موضع كل آية مما قبلها وما بعدها (١) .

كما يدل على أن القرآن قد بدأ ترتيبه وجمعه محفوظا فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أورده الامام البخارى من أن أنس بن مالك سئل - رضى الله عنه - : من جمع القرآن على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار : أبى كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد .

---

(١) صحيح البخارى باب تاليف القرآن .

وقد وجه المفسرون المراد بهذا الحديث عندما أجابوا عنه بأجوبة كثيرة منها : أن المراد بجمعه تلقيه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا بواسطة أو أن المراد بالجمع الكتابة ، فلا ينفى أن يكون غيرهم جمعه حفظاً عن ظهر قلب ، وأما من أوردهم الحديث فانهم أضافوا الى حفظهم له كتابته .

ويؤكد أنه كان هناك من هو أحفظ منهم للقرآن ما روى من قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين سئل من يؤم الناس : فقال : « أقرؤهم لكتاب الله » ومما هو معلوم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر أبا بكر أن يؤم المسلمين أثناء مرض الرسول -عليه السلام - فدل ذلك على أن أبا بكر - رضى الله تعالى عنه - كان أقرأ المسلمين لكتاب الله .

كما روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة ، فبلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « اقرأه فى شهر » الحديث (١) .

من هذا كله يبين أن القرآن الكريم قد حفظه كثيرون من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكتبه بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - لكن كتابتهم له لم تكن بالصورة المرتبة لأنهم لم يعرفوا كمال نزوله وانقطاع آية عن أن تنزل الا بعد أن انتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الى الرفيق الأعلى فهى كتابات مفرقة ، وان ورد بها كتابة سور بأكملها اذ لم يعلموا أنها سورا كاملة الا بعد أن اكتمل نزول القرآن وهو أمر علم بوفاة الرسول - عليه الصلاة والتسليم -

---

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ٦٠ وما بعدها .

الصديق والفاروق وجمع القرآن الكريم

أبو بكر الصديق صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » (١) ·

صاحب المناقب العظيمة ، والسيرة العطرة ، الجواد بالمال والنفس · – والجود بالنفس أعلى مراتب الجود –

صاحب القولة الصادقة الصودقة ، حين قابله مشركو قريش يبلغونه – فى سخرية – مقالة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الاسراء به ليلا الى بيت المقدس ، علهم يحققون ماربا ، ويأملون أن يوافقهم أبو بكر ، حب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فما كان من الصديق الا أن قال لهم : ان كان رسول الله قد قال فقد صدق ، انى لأصدقه فى أن الأمر يأتيه من السماء ·

من مناقبه العظيمة ، وفضائله الفاضلة ما كان منه من الأمر بجمع القرآن الكريم وكتابة آياته وسوره مرتبة فى مصــحف واحد ، ولا يخفى ما فى هــذا من فضــل وما له عند الله من جزاء عليه ، وأجر دائم الى يوم القيامة على كل جمع وكتابة للقرآن الكريم ، أو طباعة له ، فهو وأصــحابه أصحاب هذه السنة الحسنة ، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » ·

أمر أبو بكر هذا جاء نتيجة ما اهتدى اليه فكر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، الفاروق ، الذى فرق الله به بين الحق والباطل · اهتدى اليا بالهام من الله تعالى وتوفيق ، ونور بصر وبصيرة حين قامت حروب الردة ، والتقى جيش المسلمين مع الكذاب الذى ادعى النبوة – مسيلمة – الملقب

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة التوبة ·

بالكذاب • الذى أخزاه الله وفضحه ، وطمس على بصره ، وجعل على قلبه غشاوة •

فقد ادعى مسيلمة الكذاب النبوة ، وتبع هذا الكذاب اناس ممن أكل الحقد قلوبهم ، ولم يتمكن الايمان من قلوبهم ، فارتدوا عن الاسلام ، وحاربوا المسلمين فى واقعة اليمامة ، هذه الواقعة التى استشهد فيها عدد كبير من المسلمين ، الذين يحفظون القرآن الكريم يوم التقى الجيشان • جيش الاسلام والحق بقيادة خالد بن الوليد مع جيش الالحاد والكفر ، تحت قيادة ذلك الكذاب مسيلمة ، وكتب الله النصر لجيش الحق ، وانتصر المسلمون بعد أن استشهد منهم قرابة سبعمائة شهيد •

وخشى عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – على القرآن وحفظته فذهب الى أبى بكر يحدثه فى هذا الأمر ، ويطلب منه أن يأمر بجمع القرآن وكتابته مرتبا فى مصحف واحد حتى لا يضيع منه شىء باستشهاد حفاظ القرآن ورجاله فى حروب الردة ، لكن أبا بكر الصديق – رضى الله تعالى عنه – أجاب عمر فى أول الأمر باجابة نابعة من منهجه فى حكمه – كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأبو بكر كان قد أعلن عشية توليه خلافة المسلمين ، أنه متبع وليس بمبتدع ، لذلك كانت هذه قولته لعمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنهما –

وفكر عمر فى مقولة أبى بكر وهداه فكره الى أن النبى – صلى الله عليه وسلم – وان لم يأمر بجمع القرآن فى مصحف واحد الا أنه لم ينه عن جمعه – فليس اذا فى جمع القرآن مخالفة لأمر من أوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا خروج عن سنته ، فرجع الى الصديق وناقشه ، حتى شرح الله صدر أبى بكر لما شرح الله له صدر عمر – رضى الله تعالى عنهما –

فأرسل أبو بكر الصديق الى واحد من كتاب الوحى ، المعروفين بالعقل والذكاء والأمانة والاخلاص ، أرسل الى زيد بن ثابت فتردد زيد فى الأمر

أولا ، وراجعه أبو بكر (١) حتى شرح الله صدره الى ما شرح اليه صدر عمر وأبى بكر ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين •

واختبار أبى بكر لزيد بن ثابت قد جاء اختبارا موفقا ، فزيد واحد من هؤلاء الذين كتبوا الوحى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو اذا ذو دراية بالقرآن الكريم ، وعلم به من خلال كتابته لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أنه فى مقتبل عمر ، ذو قوة وشباب وجلد ومثابرة تمكنه من تحمل هذه التبعة التى تنوء بها الرجال أولوا القوة • ولقد عبر عن مدى هذه التبعة زيد نفســه حين قال : فو الله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن •

---

(١) انما أبو بكر أولا ثم زيد بن ثابت ثانيا لأنهما لم يجدا رسول الله ـ صلى الله عليه وســلم ـ فعله ، فكرها أن يحلا أنفســهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما نبههما عمر على فائدة ذلك وأنه خشية أن يتغير الحال فى المستقبل اذا لم يجمع القرآن فيصير الى حالة الخفاء بعد الشهرة رجعا اليه •

ويدل ذلك أن فعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اذا تجرد عن القرائن ، وكذا تركه لا يدل على وجوب ولا تحريم •

قال ابن الباقلانى : كان الذى فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية بدلالة قوله ـ صلى الله عليه وســلم ـ : « لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن » ••• فكل أمر يرجع لاحصــائه ، وحفظــه فهو واجب على الكفاية • وكان ذلك من النصيحة لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم • وقد فهم عمر أن ترك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جمعه لا دلالة فيه على المنع ، ورجع اليه أبو بكر لما رأى وجه الاصابة فى ذلك •

يراجع فتح البارى ج ١٩ ص ١٥ •

كما أن زيد بن ثابت من هؤلاء الرجـال محمودى السـيرة ، مأمونى المسلك ، كريمى الطويه ، صاحب عقل يعتمد على ذكائه وفطنته غير متهم فى علمه و خلقه أو مسلكه ٠

انها بصيرة أبى بكر الصديق الصادق التى ترى بنور من الله فتحتار فى توفيق من يجمع نور الله « لقد جاءكم نور وكتاب مبين » وتحدد المنهج والمسـلك فيقول أبو بكر ـ رضى الله تعالى عنه ـ لعمر بن الخطـاب ولزيد ابن ثابت المكلفين بهذه المهمة الهامة : اقعدا على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه ٠

أى من يأتى بشىء من القرآن فلابد أن يشهد على أن هذا مما عرضه جبريل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عرضته الأخيرة فى العام الذى توفى فيه سيد الخلق أجمعين ٠

ولا يخفى أن الشاهدين الذين يشهدان ، ويضاف اليهما أيضـا أن زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب كانا ممن يحفظ القرآن ، وبذا يتوفر لكل ما يكتب حد التواتر ٠

وبدأ الرجلان العظيمان الصحابيان الجليلان مهمتهما ، وكان الناس يأتون من كل حدب وصوب يخبرون زيدا بما معهم من القرآن ، فكان رضى الله تعالى عنه لا يكتب آية الا اذا انطبق عليها المنهج الذى وضعه الصديق بغية الاستيثاق ٠ واستمر الأمر حتى جاء أبو خزيمة بن ثابت ، وهو رجل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل شهادته بشهادة رجلين ، نظرا لصدقه ورجاحة حجته وقوة ايمانه وتأييده لرسول الله ـ صلى الله عليهوسلم ـ وجاء هذا الصحابى بآخر سورة براءة ، ولم توجد الا معه ، فقال أبوبكر الصديق : اكتبوها فان رسول الله ـ صلى الله عليه سلم ـ قد جعل شهادة أبى خزيمة بشهادة رجلين ، فكتب زيد بن ثابت ما جاء به خزيمة من آخر سوره براءة : « لقد جاءكم رسول من أنفسـكم عزيز عليه ما عنتم حريص

عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فان تولو فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم »(١) ٠

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة فقال أشهد أنى سمعتهما من رسول الله — صلى

---

(١) الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة روى أنهما أقرب القرآن بالسماء عهدا وعلى قول سعيد بن جبير آخر ما نزل من القرآن « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله » يحتمل أن يكون آخر التوبة هو أقرب القرآن عهدا بالسماء بعد قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله »

وآخر التوبة خطاب للعالم اجمع بأنهم قد جاءهم رسول من البشر ، تاليفا لهم وايناسا « من أنفسكم » قرئت بضم الفاء وكسر السين،كما قرئت بفتح الفاء أيضا ، فالأولى والثانية : مدح للنبى — صلى الله عليه وسلم — وأنه من أخلص أنساب العرب وأنقاها ، فقد جاء فى صحيح الامام مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » كما روى أنه — صلى الله عليه وسلم — قال : « انى من نكاح ولست من سفاح » أى أن نسبه من آدم — عليه السلام — لم يكن النسل فيه الا من نكاح ٠

وعلى القراءة الثانية أنفسكم ، بفتح الفاء من النفاسة ، وعن السيدة فاطمة — رضى الله تعالى عنها — أى جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ٠

« فان تولوا فقل حسبى الله » عن أبى الدرداء : من قال اذا أصبح واذا أمسى : حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا ٠

يراجع تفسير القرطبى جـ ٤ ص ٣١٤٠ وما بعدها ٠

الله عليه وسلم - ووعيتهما ، فقال عمر : وانا أشهد لقد سمعتهما (١) •

وقال يحى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لا يثبت آية فى المصحف حتى يشهد عليه رجلان ، فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فقال عمر : والله لا أسالك عليهما بينة ، كذلك كان النبى - صلى الله عليه وسلم - فأثبتهما

وقيل : انما أثبتهما عمر - رضى الله تعالى عنه - بشهادته وحده ، لقيام الدليل على صحتها فى صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فهى قرينة تغنى عن طلب شاهد آخر (٢) • وفى رواية أخرى أن خزيمة بن ثابت جاء وحدث بما سبق فقال عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - وأنا أشهد ، أى على ما جاء به خزيمة (٣) •

---

(١) يراجع فتح البارى ج ١٩ ص ١٧ •

(٢) المرجعين السابقين •

(٣) يقول الخطابى فيما روى من أن خزيمة جاء بآخر التوبة وأنها لم توجد مع غيره : هذا مما يخفى معناه ، ويوهم أنه كان يكتفى فى اثبات الآية بخبر الشخص الواحد ، وليس كذلك فقد اجتمع فى هذه الآية زيد بن ثابت وأبو خزيمة ، وعمر •

وحكى ابن التين عن الداودى قال : لم يتفرد بها أبو خزيمة، بل شاركه زيد بن ثابت ، فعلى هذا تثبت برجلين •

ولا يكفى أن المراد بخبر الواحد : الذى فقد شرطا من شروط المتواتر وقد يكون رواته كثيرين •

كما قال آخرون أن نفى وجودها عند غيره أى وجودها مكتوبة عند غير وان كان يحفظها الكثيرون غيره بدليل أن عمر صدقه وكذلك عثمان رضى الله تعالى عنهما •

وعلى هذا المنهج الذى رسمه الخليفة الأول الصديق الصدوق سار الصحابيان الجليلان عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت فى جمع القرآن الكريم - رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وأثابهم عن القرآن والمسلمين خير الجزاء -

أورد الامام البخارى فيما نحن بصدده ، ما روى عن الصحابى الجليل زيد بن ثابت - رضى الله تعالى عنه من أنهقال : أرسل الى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر - رضى الله عنه : ان عمر أتانى فقال : ان القتل قد استحر (١) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن (٢) فيذهب كثير من القرآن • وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن • قلت لعمر : كيف نفعل

=

فقد أورد ابن أبى داود فى رواية يحى بن عبد الرحمن بن حاطب فجاء خزيمة بن ثابت فقال : انى رأيتكم تركتم آيتين فلم تكتبوها ، قالوا: وما هما ؟ قال : تلقيت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الى آخر السورة • فقال عثمان : وأنا أشهد ، فكيف ترى أن نجعلهما ؟ قال : اختم بهما آخر ما نزل من القرآن •

ومن طريق أبى العالية أنهم لما جمعوا القرآن فى خلافة أبى بكر كان الذى يملى عليه أبى بن كعب ، فلما انتهوا من براءة الى قوله : « لايفقهون » ظنوا أن هذا آخر ما نزل منها • فقال أبى بن كعب : أقرأنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آيتين بعدهن « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الى آخر السورة •

فتح البارى جـ ١٩ ص ١٧ •

(١) « استحر » أى اشتد وكثر استشهاد المسلمين فى موقعة اليمامة فى حربهم لمسيلمة الكذاب •

(٢) « بالمواطن » أى فى المواطن الذى يلتقى فيها المسلمون بأعداء الاسلام •

شيئا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب بالوحى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن (١) قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال هو والله خير (٢) .

---

(١) « فوالله لو كلفونى ... مما أمرنى به » جمع أولا باعتبار أبى بكر ومن وافقه من الصحابة الأبرار . ثم أفرد الضمير ثانية « أمرنى » نظرا لأن أبا بكر الصديق هو الذى أصدر الأمر .

ومقالة زيد بن ثابت هذه ناتجة من خشيته التقصير فى احصاء واستقصاء ما أمره بجمعه أبو بكر الصديق ، اذ هو قد أمره بجمع القرآن الكريم وهو من أعظم الأمور وأصعبها وصدق الله العظيم « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » لكن الله يسر ذلك الأمر مصداقا لقوله تعالى :«ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

(٢) يقول ابن حجر : وقد تسول لبعض الروافض أنه يتوجه الاعتراض على أبى بكر بما فعله من جمع القرآن فى المصحف فقال : كيف جاز أن يفعل شيئا لم يفعله الرسول - عليه أفضل الصلاة والسلام ؟ .

والجواب أنه لم يفعل ذلك الا بطريق الاجتهاد السائغ الناشىء عن النصح منه لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - أذن فى كتابه القرآن ، ونهى عن أن يكتب معه غيره ، فلم يأمر أبو بكر الا بكتابه ما كان مكتوبا ، ولذلك توقف عن كتابة الآية من آخر سورة براءة حتى وجدها مكتوبة . مع أنه كان يستحضرها هو ومن ذكر معه » .

يراجع فتح البارى ج ١٩ ص ١٤ .

فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – فتتبعت القرآن أجمعه من العسب(١)، واللخاف (٢) ، وصدور الرجال (٣) حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر – رضى الله عنه .

وهكذا وفق الله تعالى أبا بكر وعمر وزيد بن ثابت وغيرهم من صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ورضى عنهم أجمعين ، فجمعوا القرآن الكريم فى مصحف واحد . تحسبا لما سيأتى من أمور وخلافات ومحاولات الدس فى كتاب الله تعالى ، لكن الله أراد حفظ كتابه وقضى بذلك فى قوله: « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وهكذا أتم الله على يدى أبى بكر الصديق وأصحابه أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مرحلة من مراحل حفظ الله للقرآن ، الذى هو معجزة السماء الخالدة التى ستبقى باذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها معجزة للبشر ، ومنهاجا واضحا للدنيا باسرها فيه الهداية والرشاد . والرحمة والسداد ، انه النور فى دنيا الناس واخراهم ، ومعاشهم ومعادهم وهو الشهيد عليهم فى الدنيا والشفيع لهم فى الآخرة وصدق الله العظيم :

---

(١) العسب: بضم العين والسين جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فى الطرف العريض .

(٢) اللخاف : بكسر اللام ثم خاء معجمة ، فجمع لخفته بفتح اللام وسكون الخاء . وهى الحجارة الرقاق . ويطلق أيضا على الخزف .

(٣) وصدور الرجال : أى حيث لايجد ذلك مكتوبا، وقيل الواو بمعنى مع أى أكتبه مع المكتوب الموافق المحفوظ فى الصدر .

« ... قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » (١) .

وبعد أن أتم الله تعالى لأبى بكر وعمر ما أراد أودعت هذه الصحف عند أبى بكر الصديق ، حتى توفاه الله تعالى عنه - فانتقلت الصحف الى عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - وظلت عنده حتى أودعها عند ابنته وأمه - أم المؤمنين السيدة حفصة - رضى الله تعالى عنها - زوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت السيدة حفصة وصية أبيها عمر والأمينة على ما عنده ، ولم يكن عنده أمانات وعهود ومنها القرآن الكريم واستمر عندها حتى طلبه الخليفة الثالث ذو النورين عثمان بن عفان - رضى الله تعالى عنه - ليتدارك ما كان من أمر الاختلاف فى القراءة فى بعض الأمصار وليكتب منه نسخا ويرسلها لمختلف بلدان الدولة الاسلامية جمعا للكلمة وحفاظا على كتاب الله .

---

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة .

المطلب الثالث :

القرآن الكريم فى عهد ذى النورين عثمان بن عفان

رضى الله تعالى عنه

تقديم :

يطيب لى قبل أن أبدأ الحديث عما تم فى عهد سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنه – أن أثبت فى تأكيد أن ما تم فى عهد سيدنا أبى بكر الصديق – رضى الله تعالى عنه – وعلى يد عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت – رضى الله عنهما – كان اعادة لما كتب فى عهد النبى – صلى الله عليه وسلم – وجمعا لما كان مفرقا عند الصحابة الأطهار – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هذا الجمع الذى تم بشهادة الصحابة واجماعهم على أنه هو ما كتب فى عهد النبى – صلى الله عليه وسلم –

فما قام به سيدنا عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت كان جمعا لما كتب قبل ذلك مفرقا ، فكتابة زيد ، لم تكن الكتابة الأولى للقرآن ، وانما هى الكتابة التى أعيد فيها ما كان مكتوبا فى عهد نزول القرآن وبعد المراجعة الأخيرة التى عرض فيها جبريل القرآن على النبى – صلى الله عليه وسلم – ولم يكن زيد يقبل شيئا من أحد ويثبته فى جمعه هذا الا اذا جاء به مكتوبا وأشهد على أنه من القرآن شاهدين على الأقل بالاضافة الى عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت اللذين كانا يحفظان القرآن الكريم ·

كما أن عمل زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب هذا لم يكن عملا سريا مفردا وانما هو عمل أعلن عن القيــام به ، ودعى الصــحابة الأطهار جميعا للمشاركة فيه والاسهام فى اتمامه ، كل بقدر ما عنده من القرآن الكريم

مكتوبا ، بالاضافة الى أن ما يحفظ القرآن - وأغلبهم كان يحفظه - (١) جلس يسمع ما يجبىء به غير ويشهد عليه ، فجاء ما كتبه زيد مطابقا لما نزل من عند الله تعالى ، وقرأه الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه وأمرهم بكتابته وحفظه ، بعد الفرصة الأخيرة ٠

ولا يخفى أن ما كتبه زيد بن ثابت ومن معه ، وأتم كتابته ، أعيد عرضه على صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضى الله تعالى عنهم أجمعين فأقر الجميع صحته ، ومطابقته لما حفظوه ووعته صدورهم وكتبته أقلامهم عند نزوله ٠

وعلى هذا فما جاء مكتوبا بخط زيد جاء متواترا كتابة وحفظا وأجمع علي صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يختلف واحد منهم عليه أو على آية منه أو حتى بعض آية ، نصا وترتيبا ٠

كما أن ما نقله سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ، أو ما نقل بأمر منه نقل عن هذه النسخة التى كتبها زيد بن ثابت ومعه الصحابة الأطهار جميعا ٠

فما نقل اذا الى الأمصار مما أمر سيدنا عثمان بنسخة نقل مطابقا لما نزل من السماء ، وكتب فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجمع وكتب فى عهد أبى بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه ٠ دون زيادة

---

(١) أورد البخارى ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - من أنه قال : والله الذى لا اله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله الا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله الا أنا أعلم فيمن نزلت ، ولو اعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه ٠
صحيح البخارى باب القراء من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ٠

أو نقصـان سـورة أو آية أو جملة ، أو كلمة أو حرف من الحروف • اذ الزيادة أو النقصـان خروج عما نزل من السـماء وكتب متواترا ، وجمع متواترا فوجب على كل من يقرأ القرآن الالتزام اذا بما فى المصحف المكتوب فى عهد سيدنا عثمان ــ رضى الله تعالى عنه ــ وهو المصحف الموجود لدينا الآن •

وقد أجيز للبعض ممن يقرأون القرآن ، وفى ألسنتهم بعض من العجمة أن ينطقوه بلـكنتهم التى لا تسـقط حرفا من الحروف وان اختلف نطق الحرف بالامالة أو المد ، أو التخفيف أو التفخيم أو الترقيق ، وما الى ذلك مما ينتج من تغاير البيآت والامصـار ، مما تناولناه بالحديث والبيـان فيما سبق •

وهذه الاجازة موقوته تنتهى باستقامة لسان الناطق وطواعيته لنطق العربية الصحيحة كما كانت تنطقها قريش ، الذين نزل القرآن بلغتهم • وقد أشـار سـيدنا عثمان الى ذلك حين قال لمن أمرهم بكتابة النسخ الى الأمصـار : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربية القـرآن فاكتبوها بلسان قريش ، فان القرآن أنزل بلسانهم ، ففعلوا (١) •

---

(١) صحيح البخارى باب نزل القرآن بلسان قريش •

ذو النورين ونسخ الصحف فى المصاحف

مما سبق وضح أن القرآن الكريم نزل على سبعة أحرف تيسيرا على المسلمين ، خصوصا هؤلاء الذين لا يستطيعون النطق بلهجة قريش ، واستقر الأمر فى العرضة الأخيرة ، التى عرضها جبريل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - على حرف واحد ، ونسخ ما عدا ذلك ، وجمع أبو بكر وعمر وزيد بن ثابت ، وغيرهم من الصحابة الأطهار - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - القرآن الكريم فى صحف استقرت فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه - عند السيدة حفصة - أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها - لتكون هذه الصحف التى جمع القرآن فيها مرجعا ليرجع اليه من شاء من المسلمين .

أما من أراد أن يأخذ القرآن ويتعلمه ويحفظ آياته ، فانه كان يتلقى ذلك عن الذين يحفظونه ، عن طريق مشافهتهم ، والسماع منهم وهكذا كان يتلقى القرآن ، ولا زال حتى اليوم ، يتعلم ويحفظ عن طريق التلقى ممن يحفظ ، لا يكتفى بما هو مكتوب فى أخذ القرآن وحفظه ، لأن هناك بعض كلمات لا يمكن لمتعلم الوقوف على نطقها دون الاستعانة بمن يحفظ القرآن الكريم .

ومن هنا فان أهل البلاد التى فتحها المسلمون ، ودخلها الاسلام وأشرقت بنوره . أخذوا يقبلون على القرآن وحفظه وتعلمه ، وتتلمذوا على صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين خرجوا ينشرون دين الله فى كل مكان .

ولم يكن هؤلاء الصحابة الأطهار جميعهم من قريش ، انما كانوا من قبائل متفرقة ، بل ومنهم غير العربى أيضا ، ومن هنا فان بعض اللهجات أخذت تظهر بآثارها الواضحة فى نطق البعض لآيات القرآن .

هذا بالاضافة الى أن بعض الصحابة الأطهار لم يكن قد علم بما استقر عليه الأمر فى العرضة الأخيرة للقرآن ، من حيث نسخ بعض ما أجيز نطقه أولا للتخفيف ، نظرا لوجود هؤلاء فى أماكن بعيدة ونائية ، وعدم بلوغهم ما جاء فى هذه العرضة الأخيرة لتفرقهم فى مناطق مختلفة ، وأماكن بعيدة عن المدينة المنورة التى تم فيها العرضة الأخيرة ، وكذا جمع القرآن الكريم فى الصحف على يد عمر وزيد بن ثابت ٠

وظل البعض من الصحابة الذين اختلفت لهجاتهم عن لهجة قريش يعلمون القرآن كما بلغهم أول الأمر ، وقت التيسير فى نطق بعض الكلمات وطبقا لما طبعت عليهم ألسنتهم ٠

وبدأ أثر ذلك يظهر واضحا فى عهد سيدنا عثمان بن عفان،ذى النورين ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ خصوصا فى البلدان النائية عن المدينة المنورة واشتد أثر الاختلاف فى نطق بعض الكلمات حين التقى سكان المناطق المتعددة من الدولة الاسلامية فى صعيد واحد للذود عن الدولة الاسلامية والدفاع عن حدودها ٠ وعند فتح أرمينية (١) وأذربيجان (٢) وتعصب

---

(١) أرمينية : مدينة كبيرة ، يضرب المثل بحسنها وطيب هوائها وكثرة مائها وبشجرها قيل أنها من بناء أرمين من ولد يافث بن نوح ٠ وتقع الآن بالاتحاد السوفيتى وهى على حدوده مع ايران وتركيا ٠ كانت قد فتحت فى خلافة عثمان بن عفان ، وكان قائد الجيش الاسلامى الذى قدم من الشام لفتحها حبيب بن مسلمة الفهدى ٠ وكان حذيفة اليمان ممن غزا معه ، وكان على أهل المدائن وهى وقتها كانت من جملة أعمال العراق ٠

يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ١٩ ، الأطلس العربى ص ٥٠ ، ٥٣ طبعة سنة ١٩٨٤ م ٠

(٢) أذربيجان : بفتح الهمزة والذال ـ المعجمة ـ وبسكون الراء وقيل =

أبناء كل لهجة للهجتهم ، وتلاميذ كل صحابى لمن سمعوا عنه ، الى حد أن البعض منهم أخذ يتهم الآخر ويكفره ·

وأفزع الأمر من كان موجودا من صحابة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما جعل حذيفة بن اليمان يتوجه فور عودته من جهاده فى أرمينية واذربيجان وقبل أن يدخل بيته أو يرى أهله وذويه فيقصد خليفة المسلمين عثمــان بن عفـان ــ رضى الله تعالى عنه ــ ويقول له : يا أمير المؤمنين أدرك الناس ، قال له عثمان : وا ذاك ؟ فأجابه حذيفة قائلا : غزوت ثغر أرمينية فاذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبى بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق واذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام فيكفر بعضهم بعضا (١) ·

=

غير ذلك وهى بلد كبير وتقع الآن بالاتحاد السوفيتى وهى قريبة من أرمينية وذكر ابن حجر أنه يطلق عليها الأمبريز ، ولكن طبقا لما هو موجود بالأطلس العربى ، فانهما متغايران ادربيجان بالاتحاد السوفيتى ، وتبريز من بلاد ايران وهما مجاورتان لبحر قزوين المرجعين السابقين

(١) أورد بن حجر ما حدث به الرواة فى هذا فذكر ما جاء فى رواية عماره بن غزية من أن حذيفة قدم من غزوة فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال : ياأمير المؤمنين ، أدرك الناس ··· وفى رواية أخرى من طريق النخعى قال : انى لفى المسجد زمن الوليد بن عقبة فى حلقة فيها حذيقة ، فسمع رجلا يقول : قراءة عبد الله بن مسعود ، وسمع آخر يقول قراءة أبى موسى الأشعرى ، فغضب ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : هكذا كان من قبلكم اختلفوا ، والله لأركبن الى أمير المؤمنين · ومن طريق آخر أن اثنين اختلفا فى آية من ســورة البقرة ، قرأ هذا « وأتموا الحج والعمرة لله » الآية ١٩٦ ــ وقرأ هذا « وأتموا الحج والعمرة للبيت » فغضب حذيفة واحمرت عيناه ·

ووقع الأمر موقعه فى نفس خليفة المسلمين ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه - خصوصا وقد كان هو نفسه قد وقف على شىء من هذا يوم اختلف الغلمان الذين يحفظون القرآن الكريم نتيجة أن بعضهم قد أخذ عن هذا الذى اختلفت لهجته عن الآخر الذى أخذ عنه البعض الآخر من الغلمان .

يومها وحين بلغ ذلك أمير المؤمنين خطب الناس فقال لهم : أنتم عندى تختلفون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا .

ونتيجة لهذا كله أرسل سيدنا عثمان بن عفان الى أم المؤمنين السيدة حفصة - رضى الله عنهما - يطلب الصحف التى كانت قد جمعت فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق على يد أبيها عمر بن الخطاب والصحابى الجليل زيد بن ثابت - رضى الله عنهم أجمعين .

وأخذ الخليفة هذه الصحف وعهد الى كتبها أولا زيد بن ثابت ومعه آخرون من أهل الثقة والأمانة ، بلغ عددهم أثنى عشر رجلا أو يزيد ، عهد

=

وفى رواية أن حذيفة قال حين سمع البعض يقول قراءة بن مسعود ، والبعض يقول قراءة أبى موسى : والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لآمرنه أن يجعلها قراءة واحدة .

ومن طريق آخر أن ابن مسعود قال لحذيفة : بلغنى عنك كذا ، قال : نعم ، كرهت أن يقال قراءة فلان وقراءة فلان ، فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب .

فتح البارى جـ ١٩ ص ٢٠ .

اليهم بنسخ هذه الصحف فى مصاحف ترسل الى الأمصار ليقرأ فيها ويطرح ما عداها ٠

روى الامام البخارى فى صحيحه ما حدث به أنس بن مالك : من أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ٠ فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : ياأمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك (١) ٠

فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف (٢) وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم

---

(١) وفى رواية أخرى : فاستخرج الصحيفة التى كان أبو بكر أمر زيدا بجمعها فنسخ منها مصاحف فبعث بها الى الآفاق ٠

والفرق بين الصحف والمصحف : أن الصحف عبارة عن الأوراق المجردة التى جمع فيها القرآن فى عهد أبى بكر ، وكانت سورا مفرقة كل سورة مرتبة بآياتها على حدة ، لكن لم يرتب بعضها اثر بعض ، فلما نسخت ورتب بعضها اثر بعض صارت مصحفا ٠

فتح البارى جـ ١٩ ص ٢١ ٠

(٢) وفى رواية أخرى : أن سيدنا عثمان جمع اثنى عشر رجلا من قريش والأمصار منهم أبى كعب ، وأرسل الى الرقعة التى فى بيت عمر ، فكان من أمرهم عثمان اذا اختلفوا فى الشىء أخروه ٠

قال ابن سيرين : أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة ٠

وفى رواية مصعب بن سعد : فقال عثمان : من أكتب الناس قالوا كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم — زيد بن ثابت ، قال: فأى الناس أعرب،

وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (١) ٠

وهكذا بدأ الصحابة الأصهار الذين عهد اليهم سيدنا عثمان كتابة المصاحف من الصحف التى كانت قد كتبت فى عهد أبى بكر ، وعمر بن الخطاب ٠

ويلاحظ أن من كتب هذه الصحف هو الذى قد كلف بكتابة المصاحف من الصحف التى كتبها من قبل ٠

هذا بالاضافة الى أن سيدنا عثمان قد استنفر الصحابة الأطهار للمشاركة فى هذا العمل الجليل ، الذى انحسمت به قضية كانت نتائجها

=

وفى رواية أفصح ، قالوا : سعيد بن العاص ، قال عثمان فليمل سعيد ، وليكتب زيد ٠ ولذا قيل : أن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص بن سعيد ابن العاص بن أمية ، لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله - صلى الله عليه وسلم ٠

وقد أدرك سعيد بن العاص هذا من حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - تسع سنين ، وعد بذلك فى الصحابة ٠ وحديثه عن عثمان وعائشة فى صحيح مسلم ، واستعمله عثمان على الكوفة ومعاوية على المدينة ، وكان من أجواد قريش وحلمائها ، كان معاوية يقول : لكل قوم كريم وكريمنا سعيد توفى بالمدينة سنة سبع أو ثمان أوتسع وخمسين ٠

المرجع السابق ص ٢١ وما بعدها ٠

(١) صحيح البخارى باب جمع القرآن ٠

لو تركت من غير مواجهة نتائج تؤدى الى الاختلاف والتمزق فى صفوف الدولة الاسلامية وبين المسلمين ٠

كما أن سيدنا عثمان كان حصيف الرأى حين قال لهم : اذا اختلفتم فى شيء فاكتبوه بلسان قريش ٠ وبين علة ذلك وأوضحها فى أن القرآن نزل بلسانهم ٠

ولذا فان من قاموا بهذا العمل ترسموا هذه القولة الفاصلة فيما عرض لهم حين اختلفوا فى كتابتهم لكلمة : « التابوت » فقال زيد : « التابوه » وقال القرشيون الثلاثة الذين معه : بل هى تابوت : وكتبت كما قاله القرشيون بعد أن رفع الأمر الى سيدنا عثمان وقضى فيه ٠

وبعد أن انتهى هذا العمل العظيم وكتبت المصاحف الخمس أو السبع كما فى بعض الروايات ، أرسلها سيدنا عثمان الى الآفاق ليقرأ فيها ٠ وأبقى عنده نسخة واحدة ، ليرجع اليها عند الحاجة ٠

أما الصحف التى أخذها من السيدة الجليلة حفصة أم المؤمنين - رضى الله تعالى عنها قد ردها اليها وبقيت عندها حتى توفاها الله تعالى (١) ٠

وأمر سيدنا عثمان باحراق كل ما هو مكتوب عدا النسخ التى أرسل بها الى الآفاق وأمر أن يقرأ فيها دون سواها ٠

بهذا حسم عثمان بن عفان ذو النورين أمرا وأنجز عملا يشهد له به الزمن ويجازيه عليه ربه الجزاء العظيم والأوفى ٠

---

(٢) بعد أن دفنت السيدة حفصة ٠ أرسل والى المدينة من قبل معاوية الى عبد الله بن عمر ليرسلن اليه تلك الصحف فارسلها ، فأمر مروان بها فشققة خشية أن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب فتح البارى جـ ١٩ ص ٢٣ ٠

وقد حاول بعض المغرضين النيل من عثمان الشهيد الذى اختلط دمه بمداد المصحف الذى كان يقرأ فيه ، حاول بعض المغرضين الطعن عليه بانه أمر بتحريق المصاحف ، وجعل ما كتبه اماما يقرأ فيه دون ما عداه ٠

ولقد رد عليهم سيدنا علىّ - رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه - فقال لا تقولوا فى عثمان الا خيرا،فوالله مافعل الذى فعل فى المصاحف الا عن ملأمنا قال : ما تقولون فى هذه القراءة ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول ان قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد أن يكون كفرا ، قلنا فما ترى ؟

قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ،قلنا : فنعم ما رأيت (١) ٠

وهكذا ينحسم القول فى هذه القضية وبحق الله الحق ويزهق الباطل ولو كره المغرضون ٠

يرحم الله سيدنا عثمان رحمة واسعة ، ويرحم الله الصحابة الأطهار الذى يسر الله لهم العمل على حفظ كتابه،لأنه سبحانه قد تكفل بذلك الحفظ وضمنه وصدق الله العظيم : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ٠

---

(١) وفى رواية أخرى أن سيدنا على قال : يا معشر الناس اتقوا الله، واياكم والغلو فى عثمان ، وقولكم حرق المصاحف ، فوالله ما حرقها الا على ملأمنا أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم -

وروى عن عمر بن سعيد أنه قال : قال على بن أبى طالب : لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت الذى فعل عثمان ٠

براجع فتح البارى جـ ١٩ ص ١٥ ، الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ ص ١٠٢

المعجزة الكبرى للشيخ أبو زهرة ص ٣٤ وما بعدها تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٦ وما بعدها ٠

الفصل الثانى

جوانب من فضل القرآن الكريم

ومنزلة من شغل نفسه به

القرآن الكريم ، نور من الله المبين مبين ، وذكر من الله الحكيم حكيم تخشع لجلاله القلوب ، اذ هو كلام صاحب الجلال والاكرام ، وتطمئن عند سماعه النفوس ، فهو حديث الرؤف الرحيم ، وتفرح لكلماته الأفئدة ، وتسعد بآياته الصدور ، اذ فيه شفاؤها ، من كل أسقامها ، وأدواء الحياة وأوجاعها ، وصدق الله العظيم الذى خاطب الناس فى قرآنه فقال : « يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرجوا هو خير مما يجمعون » (١) •

---

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة يونس « عليه السلام » وفيهما بين الله تعالى لقريش وغيرها من العرب وغيرهم أن القرآن موعظة من الله سبحانه ، أحكم من وعظ ، وأصدق من أخبر وحدث ، وأنه يشفى صدور المؤمنين من كل شك أو خلاف أو نفاق أو شقاق ، وأن الرشاد كل الرشاد والهداية والسداد لمن تبع القرآن ، وأنعم الله عليه بنعمه رحمته وفضله ، روى عن أبى سعيد الخدرى وابن عباس ــ رضى الله تعالى عنهما ــ أن فضل الله هو القرآن ، وأن رحمته الاسلام ، ومن رحمته أن جعلكم من أهله ، فمن رزقه الله الفضل والرحمة فليفرح بفضل الله ورحمته •

والفرح : لذة فى القلب ناتجه من ادراك المحبوب ، ومنه ما هو مذموم مثل ما جاء به القرآن من ذم الفرحين « ان الله لا يحب الفرحين » فاذا أطلق الفرح كان مذموما أما اذا قيد لم يكن كذلك • « فرحين بما آتاهم الله من =

والذى أعلم الناس فى تأكيد قاطع بين واضح أن فى القرآن الشفاء والرحمة فقال تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا » (١) ٠

فقد قطع الله تعالى بأن فى القرآن الشفاء والرحمة للمؤمنين ، ولقد فسر العلماء الشفاء هنا بأنه شفاء الله تعالى للقلوب مما علق بها من جهل الجاهلية وازالة الريب عنها ، وكشف الله تعالى لها ما فى الكون من أسرار وازالة الله تعالى عنها ما عليها من حجب وأستار فترى مالا يراه الناظرون وتبصر ما عميت عنه كثير من الابصار وصدق الله العظيم ، لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢) فتصل الى معرفة الله تعالى وتهتدى الى أنه وحده خالق الكون وما فيه من معجزات تدل على أنه الواحد (٣) أما من كفر وتولى واستكبر ، فهو ممن طمس الله على قلبه ، وجعل على سمعه وبصره غشاوة ، وحرمه ما فى القرآن من نعم ، وما لمن اتبعه من عزة ، لأنه هو الكتاب العزيز ، وصدق الله العظيم فيما قال :

=

فضله » « فبذلك فليفرحوا » وعن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم — قال : « من هداه الله للاسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا الفاقة ، كتب الله الفقر بين عينيه الى يوم يلقاه — ثم تلا — « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »تفسير القرطبى ح ٤ ص ٣١٩٢ وما بعدها ٠

(١) الآية ٨٢ من سورة الاسراء ٠

(٢) الآية ٢٢ من سورة ق ٠

(٣) وفسر ما فى القرآن من شفاء بأنه شفاء الأمراض الظاهرة بالرقى واستدل لذلك بما رواه أئمة الحديث عن أبى سعيد الخدرى من أنه قال : بعثنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سرية ، ثلاثين راكبا — قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا ، قال : فلدغ سيد الحى ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يرقى من العقرب ؟ وفى رواية أنهم قالوا :

=

« ان الذين كفرو بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ما يقال لك الا ما قد قبل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم ، ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » « الآيات ٤١ – ٤٤ من سورة فصلت ٠

=

أن الملك يموت ٠ قال : قلت أنا : نعم ، ولكن لا أفعل حتى تعطونا ، فقالوا فانا نعطيكم ثلاثين شاة ٠ قال : فقرأت عليه « الحمد لله رب العالمين » سبع مرات فبرأ ٠ فبعث الينا بالنزول وبعث الينا بالشاة ، فأكلنا الطعام ، أنا وأصحابى ، وأبوا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته الخبر فقال : « وما يدريك أنها رقية » قلت : يارسول الله شىء ألقى فى روعى ، قال : « كلوا وأطعمونا من الغنم » ٠

وفى الرقى روى البخارى عن السيدة عائشة أم المؤمنين – رضى الله تعالى عنها – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان ينفث على نفسه فى المرضى الذى مات فيه بالمعوذات فلما تقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها ، سئل الزهرى كيف كان ينفث ؟ كان ينفث على يديه – ينفخ نفخا ليس معه ريق – ثم يمسح بهما وجهه ٠

كما أورد البخارى أيضا ما روى عن السيدة عائشة – رضى الله تعالى عنها – من أنها قالت : ان النبى – صلى الله عليه وسلم – كان اذا أوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما – قل هو الله أحد – و– قل اعوذ برب الفلق – و – قل أعوذ برب الناس – ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات ٠

يراجع صحيح البخارى باب فضل فاتحة الكتاب ، باب فضل المعوذات ويراجع تفسير القرطبى حـ ٥ ص ٣٩٣٢ وما بعدها ٠

لأنهم لم يسمعوا ما يستحق أن يسمع من نداء الحق ، وقول الصدق ونور الهدى . ومنطق التـــوحيد والايمان ، والعرب قد عرف عنهم أنهم يقولون لمن يفهم ويعى الخير : أنت تسمع من قريب .

أما من لايفهم ولا يعى فانهم يقـــولون له : أنت تنادى من بعيد . أى انه كمن يناديه مناد من مكان بعيد ، فهو لا يسمع النداء « فى آذانهم وقر » أو أنه ينادى يوم القيامة بأقبح نداء وأقزع الأسماء « من مكان بعيد » ليشهر به ويفضح على رؤس الاشهاد .

أولئك الذين يسمعون الهدى والشفاء فيعرضون عنه لجهلهم وتشغلهم دنياهم ، ويدفعهم كفرهم الى الصد عن القرآن ، ويحرمون آذانهم وعقولهم وأفئدتهم وبصائرهم من أن تسمع وترى وتعى وتعقـــل أحسن حديث ، حديث الله فى قرآنه ، الذى تسمعه القلوب قبل الاسماع فتحيا به وتهتدى بنوره ، وتلين له : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقـلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » « الآية ٢٣ من سورة الزمر » .

انه القرآن طب القلوب وشـــفائها ، وعافية الابدان ودوائها ونور الابصار وضيائها ، وروح الارواح وسر بقائها .

ومن حدائق القرآن الغناء وقطوفه الجنيه ، وظلاله الظليلة اقدم فى هذا الفصل حديثا موجزا عن بعض جوانب الفضل فى القرآن الكريم التى لاتعد ولا تحصى ، ولا يحاط بها ولا تستقصى ، معرجا بالاشارة الى مـدى ما لمن يعايش هذا النور من منزله عند الله وجزاء فى الآخرة ومعـــذرة ان تداخل الحديث فالكل رؤيا لنور من نور الله ، يهدى الله لنوره من يشاء .

ويأتى ذلك فى مبحثين الأول : عن بعض جوانب فضل القرآن الكريم والثانى : عن منزلة من شغل نفسه بالقرآن الكريم وعلومه .

المبحث الأول :

جوانب من فضل القرآن الكريم

أولا : وقع القرآن فى القلوب .

القرآن كلام الله تعالى الذى لو أنزله الله على الجبال الرواسى الشم الشواهق لخشعت لجلال الله وسلطانه ، ولتصدعت ولزلزلت زلزالا شديدا « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (١) .

فى عظمة هذا القرآن الذى تتصدع الجبال خشية ممن أنزله طائعة لأوامره مجتنبة لنواهيه .

فهلا تذكر هؤلاء الذين خاطبهم الله به وهلا خشعوا لوعده وخافوا وعيده .

القرآن الكريم له أثره البالغ عن جميع المخلوقين من انس وجن وجماد ونبات وحيوان وطير . وبحار وأنهار ، فهو كلام خالق الكون ، ومبدع مافيه سبحانه هو الواحد القهار ، الذى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون .

لم تلبث الجن حين سمعته أن قالت قولة دالة فى وضوح على مدى تمكن سلطان القرآن من نفوسهم ، وقهره لقلوبهم وكيانهم .

يحكى لنا الله تعالى هذه المقولة فى قوله تعالى : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر .

به وان نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعلى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا» .. الى قومه تعالى : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا » (١) .

هذا هو جلال القرآن وسلطانه على القلوب والافئدة والبصائر ، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين هم صناديد الشرك نطقت السنتهم تصف القرآن، فيقول الوليد بن المغيرة لاقرانه رؤس الشرك وسدنة الضلال ، يوم حاولوا النيل من القرآن : والله ما منكم أحد أعلم بالاشعار منى ، أعرف رجزها وقصيدها ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئا ، والله لقد سمعت منه كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه وما يقول هذا بشر » .

الى هذا الحد ينطق زعيم المشركين ويحدث عن القرآن الكريم وهو بعد على دين قومه وضلالهم . الأمر الذى جعل قريش تقول : صبأ الوليد لتصبون قريش كلها .

وها هى مكة تشهد يوما صناديد الشرك يقول بعضهم لبعض : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم رجلا عالما بالشعر ، والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمر ، فقال عتبه بن ربيعة : والله لقد سمعت الكهانة والشعر والسحر ، وعلمت من ذلك علما لا يخفى على ان كان كذلك . فقالوا : ايته فحدثه ، فأتى النبى – صلى الله عليه وسلم – وحدثه حديثا عرض فيه عليه كل الوان الاغراء وصنوف المتاع والسلطان ، فلما فرغ قال له الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « قد فرغت يا أبا الوليد »

---

(١) الآيات ١ – ١٤ من سورة الجن .

قال نعم · قال « فاسمع منى » قال الوليد : يابن أخى أسمع · قال - صلى الله عليه وسلم - « بسم الله الرحمن الرحيم » حم · تنزيل من الرحمن الرحيم · كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » الى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) » فوثب عتبه ووضع يده على فم النبى - صلى الله عليه وسلم - وناشده الله والرحم ليسكتن ، ورجع الى أهله ، ولم يخرج الى قريش فجاءه أبو جهل ، فقال : أصبوت الى محمد ؟ أم أعجبك طعامه ؟ فغضب عتبة ، وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا ثم قال : والله لقد تعلمون أنى من أكثر قريش مالا ، لكنى لما قصصت عليه القصة أجابنى بشىء والله ما هو بشعر ، ولا كهانة ولا سحر ، ثم تلا عليهم ما سمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : ثم أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب ، فوالله لقد خفت أن ينزل بكم العذاب · يعنى الصاعقة (٢) ·

ولما وجد زعماء الكفر أن القرآن لا يقهر ، وأنه يصل الى القلوب قبل الآذان حاولوا منع الناس من سماعه ، وصموا آذانهم قبله ، فهذا أبو جهل

---

(١) الآيات ١ - ١٣ من سورة فصلت ·

(٢) وفى رواية أخرى · أن عتبة انصرف الى قريش فى ناديها فقالوا لقد جاءكم أبو اليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم · ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاما من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطيعونى فى هذه ، وأنزلوها بى خلوا محمدا وشأنه ، واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ . فان أصابته العرب كفيتموه بأيدى غيركم ، وان كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس به ، لأن ملكه ملككم ، وشرفه شرفكم ، فقالوا : هيهات سحرك محمد يا أبا الوليد ، فقال : هذا رأيى لكم فاصنعوا ما شئتم ·

يستغشى على راسه ثوبا ضخما سميكا لكى لا يسمع القرآن من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويقول : يامحمد بيننا وبينك حجاب ·

« وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون » (١) ·

وأخذ أبو جهل يصعد من عداوته للقرآن وحرصه على أن لا يسمعه أحد لما يعرف للقرآن من قوة تأثير وسلطان على القلوب ، ومن هنا قال أبو جهل لمن معه من المشركين : اذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه ، حتى لا يدرى ما يقول · فلا يظهر ، ولا يستميل القلوب ·

ويحكى القرآن مقالتهم وفعلتهم ، فيقول الله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون · ذلك جزاء اعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بياتنا يجحدون » (٢) ·

حاولوا صرف الناس عن القرآن الكريم وسماعه لعلمهم بما له من وقع فى القلوب والنفوس والافئدة والبصائر ، ونور فى الابصار والافهام والصدور انه نور الله الذى يغمر النفس بلطفه ، وبهائه ، ورحيقه وهداه ، ذلك هدى الله ، الذى تخشع الأفئدة لجلاله ، وتسلم القلوب السليمة اليه فى رضا وسعادة وانشراح ، دون خوف أو طمع ، انما هو نور اليقين حين تخالط بشاشة القلوب تنجذب القلوب اليه فرحة مطمئنة بنور ربها وهداه ، فياسبحان الله ، عمر يخرج متوشحا سيفه يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لينال منه ويقتله ، فيسمع القرآن ، فيقتل القرآن

---

(١) الآية ٥ من سورة فصلت ·

(٢) الآيات ٢٦ – ٢٨ من سورة فصلت ·

شيطان عمر ، وتتمكن آياته الهادئة المطمئنة التى لا تحدث عن نار أو جنة والتى تتدفق فى رحمة وحنو وكأنها النبع الصافى ، الذى صادف نفسا قتلها الظمأ تنهال على ما فيه حياتها فتترتوى وتسعد ، وتسرى فيها الحياة من جديدا ، لكنها الحياة الحقة بكل سموها ورقيها ونقائها وصفائها ، وبشاشتها وضوءها ، انها وحدها الحياة وما سواه لا شىء : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون » (١) .

عمر هذا الجسر القوى ، فى ثورته العارمة الثائرة ، يعير بأن أهله قد كفروا بآلهته ، وأن ختنه قد صبوا ، يا عمر أفلا ترجع الى أهلك فتقيم أمرهم ؟ .

ويغتاظ عمر البطاش الفتاك ، ويتوجه من فوره الى بيت أخته ، ويسمع هينمة فى البيت ، ويقتحم عمر البيت ويبطش بختنه سعيد بن زيد وبينما هو فى حالته هذه التى لاتوصف بقلم، الا واهتز فزعا من عمر اذ يرى صحيفة تخفيها أخته ، فطلب الصحيفة من اخته فامتنعت وقالت له : انك نجس على شركك ، وانه لا يمسها الا المطهرون . لك الله يا فاطمة البطلة . التى واجهت عمر فى حالته هذه بردها هذا - انها قوة اليقين- ويغتسل عمر ثم يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له مافى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى ، الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى » (٢) فاذ بعمر الثائر الهائج المحنق ، ينقلب فجأة هادئا

(١) الآية ٢٤ من سورة الانفال .
(٢) الآيات ١ - ٨ من سورة طه .

وديعا صافى القلب ، مطمئن الجوارح ، وينطق قلبه قبل لسـانه قائلا : ما أحسن هذا الكلم وأكرمه ٠٠٠ ياسبحان الله ، انه القرآن انه النور ، انه الهدى ، انه الحياة ، انه الرشـــد ، انه الرشـــاد ٠ نور يخترق الحجب فتقبله القلوب المحبة لتحيا به ، فيرتحى بها من الوهاد البعيدة ، ليصل بها الى ما فوق الثريا ، ويباهى الله الملائكة ٠

سمعه أبو ذر الغفارى وهو الذى يعرف بطول الباع فى التذوق وسبر أغوار الكلمة، فيقول : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أوزان الشعر ، فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد ، وانه لصادق وانهم لكاذبون ، ويسلم أبو ذر ويحسن ايمانه ويسلم أنيس الغفارى أخو أبو ذر ، وهو الشاعر البليغ الذى عد من فطاحل شعراء العرب فى الجاهلية ، يسلم بسماعه القرآن ، ايمانا بعلو بلاغته ، واكتمال فصاحته وسموه عن أن يقوله بشر ٠

ولقد حاولوا محاكاته ، ونسجوا نسجهم ، وأبدعوا فيه ، لكن نسجهم قد غدا خرقا ممزقة لما قيست بنسج القرآن البديع ٠

أنظر فهذه مقالة فحولهم وأفذاذ بلغائهم ، وعباقرة منتدياتهم محاولين منها محاكاته ، مثبتين بها قدمهم فى القول ، ومكانتهم فى المقولة ٠ وصدقوا ان مكانتهم عند مكانة قولتهم البالية الخرقة ، النكدة مسـيلمة الكذاب — أخزاه الله — هذا الجهول المخادع يحاول محاكاة النور القرآنى ، فتاتى محاكاته شاهدة على كذبه وجهله ، وضلاله واضـــلاله اذ يقول : والليل الاطقم ، والذنب الأدلم ، والجذع الآزلم ، ما انتهكت أسسيد من أحرم ٠

: والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسـيد من رطب أو يابس هذه كلمات قالها مسـيلمة الكذاب حين حكموه فى خلاف شب بين أسيد وغيرهم ٠

يالها من كلمات غثه فجة ، وخرق بالية مهلهلة ، يلفهـــا العفـن ، والوهن ، وتحوطها الركاكة والفجاجة ، والخراقة والسقوط ، أين هذا من قول الله تعلى : « والنجم اذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى • ذو مرة فاستوى، وهو بالافق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوســـين أو أدنى ، فاوحى الى عبده ما أوحى ماكذب الفؤاد ما رأى » (١) •

هكذا حتى آخر السورة ، جرس جميل عذب ووقع بديع واضـــح وفصل فى الخطاب بين ، وبلاغة تاخذ بمجامع النفس ، وتسلب اللب ، وتهيمن على الفؤاد ، وينشرح لها ومعها وبهـــا الصدر • انه كلام العزيز الحكيم ، فأين منه غيره •

أين فأفأة وتأتأة مسيلمة الـكذاب حين قال يتحـــدث فى خبل الى ضفدع : ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ماتنقين ، أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها •

أين هذه الثأثأة الفجة الهابطة الساقطة التى تحدث بها مخلـــوق ضعيف ، عن احدى المخلوقات الضعيفة ، ضعف الحديث والمتحدث به والمتحدث عنه •

أين هذا من قول الله تعالى يتحدث عن مخلوق ضعيف يصف حاله الذى تردى فيه بعد أن انعم الله عليه بالمال والولد والجاه والسلطان ، ويخبر الله عما ينتظر هذا المنكوب النكد ، الذى أرداه فكره وتقديره ، فهوى به

---

(١) الآيات ١ ـ ١١ من سورة النجم •

فى قاع جهنم ، فيقول تعالى مخاطبا سيد المرسلين مهدهدا ومطيبا خاطره ، مما قاله الوليد بن المغيرة ، المنكوب النكد : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر »(١) ياله من قول فصل ، وما هو بالهزل ، فى عبارة قوية قاطعة صارمة ، كالسيف البتار ، فى وقعه وحدته ، ومضائه وصولته ، جرسه بديع محكم ، ولفظه بليغ مفهم ، وأثره مسكت مفحم ، فما هو بقول بشر ، فلا يقاس بقول قائل ، ولا بنسج شاعر ، ولا بنطق بليغ انه القرآن الذى عنت له جباه الفصحاء ، وخضعت له اعناق البلغاء ، وسجدت له ألسنة الشعراء وعرف له قدره الاعداء قبل الاصدقاء ، فنطقت قلوبهم قبل السنتهم وهم فى أوج عداوتهم له قائلة عنه : ماهو بقول بشر ، انه القرآن الذى يقتحم القلوب المغلقة المظلمة ، فينيرها بعد ظلام ، ويزيل عنها أرجاس الكفر ، فيذيقها حلاوة الايمان والطهر انه القرآن الذى تفهم القلوب معناه قبل العقول ، وتحس النفس به ، ورحيقه ، وعبيره ، وبهائه وضيائه ، بمجرد أن تلامس كلماته الآذان ، ثم يخالط شغاف الأفئدة .

انه النور الذى يصل الى البصائر قبل الابصار ، انه القرآن الكريم انه كلام الله وكفى .

---

(١) الآيات ١١ ، ٣٠ من سورة المدثر .

ثانيا : فضل القرآن الكريم ، كلام الله العزيز الحكيم على سائر كلام المخلوقين :

القرآن الكريم كلام الله العزيز الحكيم ، اللطيف العليم ، لا يقاس به غيره ، ولا يقاس هو بغيره ، اذ غيره كلام مخلوق ، ونطق مصنوع ضعيف ، فان هذا المنطوق الذى تتحكم فيه قدرات مخلوق لا يملك لنفسه أن يجيد مخارج حروفه ، أو أن يلم بمعانى لغته التى يتكلمها . ولا يقدر على التوفيق بين الكلمات التى يعبها ليكون منها نسجا يفرق قدرات البشر وانما هو مهما نعلت فصاحته وبلاغته كلام انسان يزيد وينقص . فاذا علا كلام غيره من البشر فترة ، جاءه من يعلوه من كلام البشر فترة أخرى . هذا شأن كلام البشر ، أما وحى الله تعالى فلا يطاوله كلام ، ولا يدانيه نظم ناظم متحدثا كان أو شاعرا .

انه هو كلام الله ، الذى تضىء كلماته ، وتنير جمله وعباراته وتهدى المخلوقين آياته وتأخذ بيد الحكماء لحكمه وسوره وعظاته ، انه القرآن كلام الله ، الذى قال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى رواية أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : « فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » .

وفى رواية أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، « يقول الرب عز وجل ، من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » (١) .

هذه منزلة كلام الله تعالى ، منزلة لا تدانيها منزلة ، ولا تصل اليها

---

(١) وفى رواية أخرى ، من شغله القرآن وذكرى ... »
يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٧٨ وما بعدها .

همة انها أرفع من الرفعة وأسمى من السمو وأعلى من العلو ، تعالى من كلامه القرآن علوا كبيرا ٠

انه القرآن الذى يشرف به من اتصل به ، وتعلو منزلة قارئه ومتعلمه وسامعه وحافظه والعامل به، حتى يصل مرتبة تغبطه عليها الملائكة المقربون، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القائل : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ٠

والمقرب للافهام فضل قارىء القرآن بضرب مثال له بثمرة طيبة الرائحة والطعم كلها منافع ، فيقول - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب ، وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل الثمرة ، لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ، ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة ، لا ريح لها وطعمها مر » (١) ٠

---

(١) صحيح البخارى باب فضل القرآن على سائر الكلام ٠
« الأترجة » بضم الهمزة والراء بينهما تاء ساكنة ، وآخره جيم ثقيلة وقد تخفف « طعمها طيب وريحها طيب » قيل : خص صفة الايمان بالطعم ، وصفة التلاوة بالريح لأن الايمان ألزم للمؤمن من القرآن ، اذ يمكن حصول الايمان بدون القراءة ، وكذلك الطعم ألزم للجوهر من الريح ، فقد يذهب ريح الجوهر ويبقى طعمه ٠ ثم قيل : الحكمة فى تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة ، التى تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة لأنه يتداوى بقشرها ، ويستخرج من حبها دهن له منافع ٠ ومنافعها وفوائدها كثيرة ٠ أما المنافق فحاله بين أمرين : يقرأ القرآن ٠ وحينئذ يصبح نطقه طيب ، لأن القرآن طيب فمه ، اما معدنه فخبيث ، والريحانه كذلك ، ريحها طيب وطعمها مر ٠، الثانى المنافق الذى لا يقرأ القرآن فهو مر كله ريحه ومعدنه ٠ والمرارة وان كانت من أوصاف الطعوم الا أنها استعيرت للتعبير عن الرائحة أيضا لكراهة النفس منها ٠
المرجع السابق ٠

انه القرآن الكريم الذى يضفى على قارئه روح وريحان وجنة نعيم ، فيسـعد القارىء ويسـعد المكان الذى يقرأ فيه وتدنو منه ملائكة الرحمة تحوطه وتظله ، وتبارك مجلسه • وتتبـارك بالقرآن الذى يقرأ حيث تنزل الرحمة ونعم النعمة ، وتهنأ القلوب ، وتنفرج الكروب وها هو سعيد ممن أسعدهم الله لقراءة القرآن • أسيد بن خضير الصـحابى الجليل ، يحدث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما رآه وهو يقرأ من الليل بعضا من آيات القرآن الكريم ، فيرى العجب العجاب •

قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة – وفرسه مربوطة عنده – اذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكنت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف – وكان ابنه يحيى قريبا منها – فأشفق أن تصيبه ، فلما اجتره رفع رأسه الى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال له : « اقرأ يا ابن خضير ، اقرأ يا ابن خضير ، قال : فاشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريبـا ، فرفعت رأسى فانصرفت اليـه ، فرفعت رأسى الى السـماء ، فاذا مثل الظلة فيهـا أمثـال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها • قال : « وتدرى ماذاك » ؟ قال : لا • قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس اليها ، لاتتوارى منهم » •

وفى رواية : رفع رأسه الى السماء ، فاذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، عرجت الى السماء ، حتى ما يراها •

وفى رواية ثالثة : فقمت اليها فاذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج فعرجت فى الجو حتى ما أراها (١) •

---

(١) يقول ابن حجر : سياق الحديث يدل على محافظة أسـيد على خشوعه فى صلاته ، لأنه كان يمكنه أول ما جالت الفرس أن يرفع رأسه .
=

ففى هذه الروايات الثلاث وضح بيان حالة الملائكة التى نزلت تبارك المكان الذى يتلى فيه القرآن الكريم ، من رجل مؤمن خاشع ، حسن القراءة، نظيف الطوية ٠

كما أن فى ذلك القول الذى قاله له رســـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اقرأ يا ابن خضير » دعوته اليه ليستزيد بركة بنزول الملائكة عليه عند قراءته ، تبشره برحمة من الله ورضوان ٠ وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ان هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ان هذا القرآن هو حبل الله ، النور المبين ، والشفاء النافع عصمة من تمسك به ، ونجا من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقضى عجائبه ،ولا يخلق عن رد ، فاتلوه فان الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات ، أما انى لا أقول « ألم » حرف ، ولا ألفين أحدكم واضعا رجليه ، يدع أن يقرأ سورة البقرة ، فان الشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، وان أصفر البيوت من الخير ، البيت الصفر من كتاب الله » .

=

ويحتمل أن يكون رفع رأسه بعد انقضـاء صلاته فلهذا تمادى به الحال ثلاث مرات ٠

وفى الحديث ما يشير الى أن الملائكة لاستغراقهم فى الاستماع ، كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذى هو من شأنهم ، وفيه منقبة لأســـيد ، وفضل سورة البقرة فى صلاة الليل ، وفضل الخشوع فى الصلاة ، وان التشاغل بشىء من أمور الدنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير ، فكيف لو كان بغير المباح ٠

يراجع فتح البارى جـ ١٩ ص ٧٦ وما بعدها ٠ باب نزول السكينة عند قراءة القرآن صحيح البخارى ٠

يا سبحان الله ، ويا نعم المأدبة هذه التى ينعم بربها وشبعها كل من جلس اليها واقتطف منها وجنى من قطوفها الدانية ، التى هى الغــذاء للقلوب والصدور والأفئدة ، ونور للابصار والبصائر ، واشباع للنفوس ، لا يصيبها معه تخمة ، ولا يطرأ عليها بعده بطنة ، بل به أمنها وامانها ، وثوابها ومثوبتها ، وأجرها الجزيل ، ونعيمها المقيم ، وابعاد لوســاوس النفس والهوى ، وارصاد لمن يتسلط من الشـــياطين ونجاة للآدميين من وسوستهم ورهقهم •

انه القرآن • مأدبة الله – عز وجل – فمن دخل فيه فهو آمن • لأنه دخل فى حصن الله القوى المتين •

أخرج الطبرانى من حديث ابن عمر – رضى الله تعالى عنهما – ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق ، رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله ، أم به قوما وهم به راضون •• الحديث •

ومن حديث أبى هريرة : القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه •

ومن حديث أنس : من قرأ القرآن يقوم به آناء الليل والنهار يحل حلاله ويحرم حرامه ، حرم الله لحمه ودمه على النار ، وجعله مع السفرة ، الكرام البرره ، حتى اذا كان يوم القيامة كان القرآن حجة له •

ومن حديثه أيضا : حملة القرآن عرفاء أهل الجنة •

وأخرج البزار من حديث أنس : أن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره ، وأخرج الترمذى والحاكم من حديث ابن عبـاس ان الـذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » •

وصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى علم أصحابه فضل القرآن ومنزلته ، فيما يرويه الحارث الاعور عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » قلت يا رسول الله وما المخرج منها ؟ . قال : « كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم ، خذها اليك يا أعور » .

انه القرآن الكريم أنفس مافى الكون وأعظم ما يتعلمه انسان، لا يعدله شىء ولا يدانى منزلته غيره هو الفصل ، وفيه الهدى ولقد بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزلة سورة واحدة من سور القرآن الكريم فى الحديث الشريف الذى رواه زيد بن أسلم عن أبيه ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسير فى بعض أسفاره ، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء ، فلم يجبه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك ، نزرت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر ، فحركت بعيرى حتى كنت أمام الناس ، وخشيت أن ينزل فى قرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ ، قال : فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فى قرآن ، قال : فجئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسلمت

عليه فقال : لقد انزلت على الليلة سورة لهى أحب الى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « انا فتحنا لك فتحا مبينا » (١) ٠

يا سبحان الله ان النفس البشرية يستهويها بعض متاع الدنيا ويسيطر عليها حب المال أو الجاه ، أو السلطان ، فما بالها تغفل أحيانا عما هو خير مما طلعت عليه الشمس ، وأنى لنفس أن تملك ما طلعت عليه الشمس ، فما بالها لو كان معها ما هو أغلى وأثمن وأنفع واقيم وأعظم ، وأوفر ، وأكثر مما طلعت عليه الشمس ، انه القرآن الكريم والذكر الحكيم الذى حكم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأخبرنا وأخباره لنا هو الصدق بعينه وأبلغنا ما أوحى اليه به ربه – سبحانه وتعالى – من أن سوره واحدة هى سورة الفتح ، خير مما طلعت عليه الشمس ، من أرض وسماء ، ومال وسلطان وأهل وولد وجمال وجلال ٠

لقد صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو الذى أخبرنا ربنا بأنه – عليه السلام – لا ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى وصدق الله العظيم ٠

---

(١) يراجع صحيح البخارى باب فضل سورة الفتح ٠

كما يراجع فيما ذكرت من جوانب من فضل القرآن الكريم صحيح الامام مسلم أبواب فضائل القرآن ، ونزول السكينة لقراءته ، وفضيلة حافظه ، وفضل قراءته ٠

المبحث الثانى

منزلة من شغل نفسه بالقرآن الكريم وعلومه

وضح مما سبق جانب من جوانب فضل القرآن الكريم ، ذو الفضل العظيم والشذى العميم ، والطيب والنسيم ، والروح والريحان والجنة والنعيم ٠

ولقد علمنا رسول الله — صلى الله عليه وسـلم — أن مثل الجليس الصالح كحامل المسك ، فان لم يبتع منه جليسه أو ينفحه صاحب المسك فان الطيب يغمره من كل جوانبه ونواحيه ، والعطر بعبيره الفواح يحيط به ويثلج صدره ، ويطيب نفسه ، ويشرح فؤاده ٠

وليس هناك جليس أصلح من القرآن الكريم ، فهو الجليس الذى يسعد به كل من جالسه ، وتعمه الرحمة ، وتشمله السكينة ، ويملأ قلبه برد اليقين ، بآيات هى القوارير ، بل والقوارير منها فى حيـاء اذ نـور الآيات أتم وانفع ، وبريق فيضها ، أشفى وأرفع ٠

فهم ذلك صحابة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعرفه التابعون من هنا كان أبو عبد الرحمن السـلمى اذا ختم عليه القرآن واحد من تلاميذه ، أجلسه بين يديه ، ووضع يده على رأسه ، وقال له : يا هذا اتق الله فما أعرف أحدا خيرامنك ان عملت بالذى علمت ٠

انها نعم المنزلة التى ينزلها الله لمن تعلم القرآن وعمل به ٠

انها منزلة لايبلغها من الناس غيره منزلة الملائكة والأنبياء روى الدارمى عن وهب الذمارى قال : من آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار ، وعمل بما فيه ، ومات على الطاعة ، بعثه الله يـوم القيامة مع السـفرة والأحكام ٠

وروى الامام مسلم عن أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران كما روى ابن أبا أمامه الباهلى قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، يقول : « اقرءوا القرآن فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران ، فانهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » قال معاوية بلغنى أن البطلة السحرة (١) ٠

كما روى الامام مسلم أيضا ما روى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ قال : بينما جبريل قاعد عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل الى الأرض لم ينزل الى الأرض لم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما الا أعطيته » (٢) ٠

---

(١) صحيح الامام مسلم باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ٠
« كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان » الغمامة والغياية : كل شىء أظل الانسان فوق رأسه من سحابة وغيمة وغيرهما ٠ قال العلماء المراد أن ثوابهما يأتى كغمامتين « فرقان من طير » جماعتان من طير ٠ بظلالنه من وهج شمس يوم القيامة ٠

(٢) وروى عن أبى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » صحيح مسلم باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ٠

انها منزلة من قرأ شيئا من القرآن ـ يعطيه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ الدرجة العليا والمنزلة السامية فيحشر مع الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » (٣) ٠

وذكر أبو بكر الأنبارى عن أبى أمامة الحمصى قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ، ومن أعطى ثلثى القرآن فقد أعطى ثلثى النبوة ، ومن قرأ القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها غير أنه لا يوحى اليه ، ويقال له يوم القيامة اقرأ وارق ، فيقرأ آية ويصعد درجة حتى ينجز ما معه من القرآن ، ثم يقال له اقبض ، ثم يقال له أتدرى مافى يديك ، فاذا فى يده اليمنى الخلد وفى اليسرى النعيم » انه نعم النعيم ، وانها لدرجة عالية هذه التى يعطاها قارىء القرآن، ويرفعه الله اليها « درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما » (٢)٠

انها درجات عند الله لمن رضى الله عنهم ينزلهم فيهـــا رفعة لقدرهم « نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم » (٣) ٠

« يرفع الله الذين آمنــوا منــكم والذين أوتوا العــلم درجات والله بما تعملون خبير » (٤) .

---

(١) الآية ٧٠ من سورة النساء ٠

(٢) الآية ٩٦ من سورة النساء ٠

(٣) الآية ٧٦ من سورة يوسف ٠

(٤) الآية ١١ من سورة المجادلة ٠ ومن معانيها أن الله تعالى يرفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات فى الثواب فى الآخرة يوم لا يغنى والد عن ولده ، « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » فى هذه الوقت الصعب العصيب يرفع الله درجة قارىء القرآن ٠ وفى الدنيا يعطيه الله تعالى الكرامة ٠ فيرفع المؤمن

=

ويروى الترمذى عن أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول - أى القرآن - : يارب حله فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول يارب زده • فيلبس حلة الكرامة ثم يقول : يارب ارضى عنه فيرضى عنه ، فيقول له اقرأ وارق ، ويزاد لكل آية حسنة » •

=

على من ليس بمؤمن ، والعالم على من ليس بعالم ، « هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور » •

وقيل كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون الى مجلس النبى - صلى الله عليه وسلم - فالخطاب لهم • ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس اليه ، فقال : « يا فلان خشيت أن يتعدى غناك اليه أو فقره اليك » •

وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والايمان ، لا بالسبق الى صدور المجالس • وقيل أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن »

وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب - رضى الله تعالى عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير « اذا جاء نصر الله والفتح » فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، اعلمه اياه • فقال عمر : ما أعلم منها الا ما تعلم » •

وقال عمر لمن استنكر استخلاف أحد الموالى : انه قارىء لكتاب الله عز وجل وانه عالم بالفرائض ثم قال : أما أن نبيكم - صلى الله عليه وسلم قد قال : « ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين » •

يراجع صحيح مسلم باب فضل من يقوم بالقرآن ، ويراجع تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٦٤٦٩ وما بعدها •

يا سبحان الله ، ويا نعم الجزاء ، تاج الكرامة ، ثم حلة الكرامة ثم يرقى فى الجنة ، ويرقى فى الجنة ، ويعطى ويعطى ، فسبحان من يعطى ، ويا نعيم من اعطاه مالك الملك الغنى الكريم ٠

انه العطاء الذى يستحق أن يحسد عليه ، وأن يغبط صاحبه ٠

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمايرويه عنه ابن عمر - رضى الله تعالى عنهما - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : لا حسد الا على اثنتين ، رجل آتاه الله الكتاب ، وقام به آناء الليل ، ورجل أعطاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار » ٠

وفى رواية أبى هريرة - رضى الله تعالى عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا حسد الا فى اثنتين ، رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، فسمعه جار له فقال : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل (١) ٠

انها دعوة للتسابق فى حفظ القرآن والعمل به ، دعوة الى المسارعة الى الله ، الى خيره وفضله ، وجانبه ، وسلطانه ، وحصنه المتين ٠

---

(١) قوله عليه الصلاة والسلام : « لا حسد الا فى اثنتين » قال فيه العلماء : الحسد قسمان ، حقيقى ومجازى ، فالحقيقى تمنى زوال النعمة عن صاحبها ، وهذا حرام باجماع الامة مع النصوص الصحيحة ، وأما المجازى فهو : الغبطة ، وهو أن يتمنى مثل النعمة التى على غيره من غير زوالها عن صاحبها ، فان كانت من أمور الدنيا كانت مباحة ، وان كانت طاعة فهى مستحبة ، والمراد لا غبطة محبوبة الا فى هاتين الخصلتين ٠ فلا رخصة فى الحسد الا فى خصلتين ، أو لا يحسن الحسد - ان حسن - وأطلق الحسد من باب المبالغة فى الحث على تحصيل الخصلتين ٠

يراجع صحيح البخارى باب اغتباط صاحب القرآن ، صحيح مسلم باب فضل من يقوم بالقرآن ٠

انها دعوة الى الدرجة العليا ، والمنزلة القصوى والفضل العظيم ·

انه القرآن الذى يرفع الله به الذين احبهم فأحبوه وحفظوا كلامه وعاشوا معه وبه وله ، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون · هم الذين رفعهم الله وجعلهم خير أجناد الأرض ، وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عنه عثمان بن عفان – رضى الله تعالى عنه – ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(١)

فالقرآن الكريم أشرف العلوم وأعلاها قدرا ، ومن تعلم أشرف العلوم وأعلاها قدرا ، وعلمه غيره نزل منزلة ما تعلمه وعلمه بفضل علمه هذا وتعليمه لغيره ·

وصدق الله العظيم : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ·· » (٢)

---

(١) لا يلزم من ذلك أن يكون المقرىء أفضل من الفقيه · لأن المخاطبين كانوا فقهاء النفوس فكانوا يدرون معان القرآن بالسليقة أكثر مما يدريها من بعدهم بالاكتساب ·

يراجع فتح البارى جـ ٩ ص ٩١ ، صحيح البخارى باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ·

(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة فصلت ·

« من أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا » يقول المفسرون أن فى هذا توبيخ للذين تواصوا باللغو فى القرآن ، والمعنى : أى كلام أحسن من القرآن ، ومن أحسن قولا من الداعى الى الله ، وطاعته ، وهو محمد – صلى الله عليه وسلم – وكان الحسن اذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله =

واحسن القول هو القرآن الكريم ، انه الهدى من الله تعالى وصدق الله العظيم : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشــة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنس وكذلك نجـزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعـذاب الآخـرة أشـد وأبقى » (٢) ٠

وهكذا قسم الله الناس الى قسمين ، ومن اتبع هدى الله فانه لن يضل ولن يشقى فى الدنيا والآخرة ، وله عند الله الجزاء الأوفى أما من أعرض

=
أحب أهل الأرض الى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس الى ما أجاب اليه
وعن السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - : نزلت هذه الآية فى المؤذنين ٠ وقيل أنه أبو بكر الصديق - رضى الله تعالى عنه - فهو الذى قال لمن حنق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ٠

يراجع تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٥٨٠٤،ويراجع أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٦٣٤ ٠

(٢) الآيات ١٢٣ ، ١٢٧ من سورة طه ٠

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة ٠

وعنه : من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ٠

« ومن أعرض عن ذكرى » أى دينى وتلاوة كتابى ، والعمل بما فيه
يراجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٤٢٩٨ ٠
أسرار التنزيل ص ٤٢٤ ٠

عن القرآن ولم يتبعه ، فقد حرم من الخير كل الخير ، فى الدنيا والآخرة ، وله عند الله الوعيد ، والضنك والعمى ، نعوذ بالله منه ، ونرجو من الله أن يحشرنا مع الذين رضى الله عنهم ورضوانه عنه ويمن علينا بالتوفيق لاتباع الهدى ، ويجعل لنا فضلا من فضـل من قرأ القرآن ، الذين حدثت عنهم السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وعن أبيها ، حين سألتها أم الدرداء يوم كانت معها .

تقول أم الدرداء : دخلت على عائشة - رضى الله عنها - فقلت لها ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟
فقالت عائشة - رضى الله عنها - : ان عدد آى القرآن على عدد درج الجنة ، فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن .

وقال ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : من قرأ القرآن ، واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة ، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب ، وذلك بأن الله تبارك وتعالى يقول : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشـقى » (١) .

قال ابن عباس : فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .

وقال الليث : يقال ما الرحمة الى أحد بأسرع منها الى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره : « واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصـتوا لعلكم ترحمون » (٢) .

وفى مسند أبى داود الطيالسى : عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ،

---

(١) من الآية ١٢٣ من سورة طه .
(٢) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف .

ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »

كما أخرج الامام مسلم في صحيحه ما روى عن السيدة عائشة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث رجلا على سرية ، وان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ « قل هو الله أحد » فلما رجعوا ذكر ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك » فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، فانا أحب أن أقرأ بها • فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أخبروه أن الله يحبه » (١) •

يا نعم المنزلة ، منزلة من يحبه الله تعالى ، انها لمن قرأ القرآن وتعبد به لمن قرأه وتعبد به فضل يختطاه الى أهله وأقاربه ، اذ يشفعه الله تعالى فيهم فى يوم تعز فيه الشفاعة ، ويصعب فيه الأمر ، وتشق فيه المشقة ، « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين الى جهنم وردا ، لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا » (٢) •

فى هذا الوقت يشفع الله حفظة القرآن الكريم فى أهليهم ، يا نعم المنزلة العالية !!

فعن على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى وكرم الله وجهه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من قرأ القرآن وتلاه وحفظه •

---

(١) صحيح مسلم باب فضل قراءة قل هو الله أحد : قال المازدى محبة الله تعالى لعباده : ارادة ثوابهم ، وتنعيمهم • وقيل محبته لهم نفس الاثابة والتنعيم لا الارادة ••• وأما محبتهم له ـ سبحانه ـ فلا يبعد فيها الميل منهم اليه ـ سبحانه ـ وهو متقدس على الميل • وقيل محبتهم له استقامتهم على طاعته ، وقيل الاستقامة ثمرة المحبة من جمع وجوهها •

شرح النووى جـ ٦ ص ٩٥•

(٢) الآية ٨٥ ـ ٨٧ من سورة مريم •

أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار »

ففى ذلك الموقف العصيب ، وقت أن يتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، حين يظهر لهم الحق ويرون العذاب رأى العين ، عند ذلك تنقطع بينهم الأسباب ، ويتمنى التابعون أن تكون لهم الكرة ليتبرأوا من أولئك المضللين الضالين ، وتحيق النار بهم جميعا ٠

فى ذلك الوقت العصيب يجنى حفاظ القرآن ما وعدهم به ربهم من منزلة وجاه وفضل ومكرمة ٠ وصدق الله العظيم : « ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له » (٣) ٠

وحمله القرآن الكريم وحفاظه هم من هؤلاء الذين أخبروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم سيأذن الله لهم بأن يشفعوا فيمن وجبت له النار من ذويهم وأقربائهم ٠

من لوازم قراءة القرآن :

١ - قراءة القرآن لقاء دائم مجدد مع الله سبحانه وتعالى،ومن يستشعر ذلك يجد فى قلبه حلاوة وفى بصيرته ضياء ، وفى فؤاده سكينة ووقار ، وفى هيئته وسريرته نقاء وصفاء ٠ فلا يخوض مع الخائضين،ولكنه يتمرس على الملائكية ويعد نفسه ليكون من هؤلاء الذين اذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ٠

٢ - دوام تعاهد القرآن والمحافظة عليه بمداومة قراءته وترديده فقد روى الامامان البخارى ومسلم أحاديث كثيرة فى هذا الباب ، منها ما رواه الامام البخارى من حديث ابن عمر - رضى الله تعالى عنهم - أن رسول الله

---

(٣) الآية ٢٣ من سورة سبأ ٠

– صلى الله عليه وسلم – قال : « انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة ان عاهد عليها أمسكها ، وان أطلقها ذهبت » .

وفي رواية : « ان تعاهدها صاحبها فعقلها أمسكها ، وان أطلق عقلها ذهبت » .

وفي رواية عبد الله قال : قال النبي – صلى الله عليه وسلم – بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسي ، واستذكروا القرآن فانه أشد تفصيا من صدور الرجال من النعم » (١) .

٣ – عن ابن مسعود قال : جردوا القرآن وزينوه باحسن الأصوات ، واعربوه فانه عربي والله يحب أن يعرب به .

وقال عمر – رضي الله تعالى عنه – : من قرأ القرآن فاعربه كان له عند الله أجر شهيد .

وعن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أحب العرب لثلاث ، لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي » .

وروى أن أعرابيا قدم في زمان عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد – صلى الله عليه وسلم – فقال : من يقرئني مما أنزل الله على محمد – صلى الله عليه وسلم –؟ قال فاقرأه رجل براءة ، فقال : « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بالجر فقال الأعرابي : أو قد برىء الله من رسوله !! فان يكن الله برىء من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه ، فقال : يا أعرابي أتبرأ من

---

(١) صحيح البخاري باب استذكار القرآن وتعاهده .

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ • فقال : يا أمير المؤمنين ، انى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسالت من يقرئنى ، فاقرانى هذا سورة براءة فقال : ان الله برىء من المشركين ورسوله ـ بالجر ـ فقلت أو قد برىء الله من رسوله ، ان يكن الله برىء من رسوله فانا أبرأ منه ، فقال عمر : ليس هكذا يا أعرابى • قال : فكيف هى يا أمير المؤمنين ؟

قال : « ان الله برىء من المشركين ورسـوله » يرفع رسـول • فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ مما برىء الله ورسوله منه •

فأمر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الا يقرىء الناس الا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود فوضع النحو •

وروى عن ابن عمر • قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من قرأ القرآن فلم يعربه • وكل به ملك يكتب له كما أنزل بكل حرف عشر حسنات ، فان أعرب بعضه ، وكل به ملكان يكتبان له بكل حرف عشرين حسـنة ، فان أعربه ، وكل به أربعـة ملاك يكتبون له بكل حرف سبعين حسنة » (١) •

٤ ـ لا يخفى على عاقل أن الله تعالى جعل من حرمة القرآن الا يمسه الا المطهرون أعمالا لقول الله تعالى : « انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون تنزيل من رب العالمين » (٢) •

أنه القرآن الكريم الذى يتضاءل كل قول أمامه حتى لا يكاد يظهر فى حضرته قول قائل •

انه أشرف ما نزل من السماء ، وأشرف ما نزل الى أهل الأرض ، انه النور ، انه هو القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وكفاية ذلك من وصف •

فالهم اجعله نور قلوبنا ، وعافية ابداننا ، وشفعه فينا واجعله الهادى لنا فى دنيانا وآخرنا يا رب العالمين •

---

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ١٧ وما بعدها •
(٢) الآيات ٧٧ ـ ٧٩ من سورة الواقعة •

الباب الثاني

محكم القرآن الكريم ومتشابهه

تمهيد :

القرآن منبع العلوم ومفجرها ، ودائرة شمسها ومطلعها ، أودع الله سبحانه وتعالى فيه كل شيء ، وأبان فيه كل هدى ، فكل صاحب علم منه يستمد ، وعلى علوم القرآن يعتمد ، فالفقيه يأخذ منه أحكامه ، والنحوى يبنى منه قواعد اعرابه ، ويرجع اليه فى معرفة خطأ القول من صوابه ، والبيانى يهتدى به الى حسن النظم ، ويأتم به فى مسالك البلاغة وصوغ الكلام ، وفيه القصص والأخبار ما يذكر أولى الأبصار ، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولوا الفكر والاعتبار (١) ٠

وهو الفارق بين الشك واليقين ، الذى اعجزت الفصحاء معارضته ، واعيت ارباب البلاغة مناقضته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، فقال تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٢) خاطب به أولياءه نفهموا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا (٣) ٠

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى ٨٤٩ - ٩١١ هـ له ٥٠٠ مصنف ٠ الاعلام ص ٤٨٨ ٠

(٢) من الآية ٤٨ من سورة الانعام ٠

(٣) القرطبى : ابى عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ هـ ٠ انظر الجامع لأحكام القرآن طبعة الشعب ١/١ ٠

وصدق الرسول الكريم حين قال لأصحابه فيما أسنده الحارث عن علي رضى الله عنه وخرجه الترمذى ، قال : ســـمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » قلت · يارسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله · هو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم وهو الصراط المســتقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشـــبع منه العلماء ، ولا يمله الاتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته أن قالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم (١) ·

فبلاغة القرآن فى أعلى طبقات الاحسان ، وأرفع درجات الايجاز والبيان بل تجاوزت حد الاحسان والاجادة ، الى حيز الارباء والزيادة ، هذا رسول الله صلى الله عليه وســـلم أوتى من جوامع الكلم ، واختص به من غرائب الحكم ، اذا تأملت قوله صلى الله عليه وسلم فى صفة الجنان ، وان كان فى نهاية الاحسان ، وجدت القرآن أعلى رتبة ، وذلك فى قوله عليه السلام : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » · فأين ذلك من قوله عز وجل : « وفيها ما تشـــتهيه الأنفس وتلذ الأعين » (٢) وقوله : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » (٣) ·

هذا أعدال وزنا ، وأحسن تركيبا ، وأعذب لفظا ، وأقل حروفا ، على أنه لا يعتبر الا فى مقدار سورة أو أطول آية ، لأن الكلام كلما طال

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن : للقرطبى · طبعة الشعب ١/٤ ·
(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف ·
(٣) من الآية ١٧ من سورة السجده ·

اتسع مجال المتصرف ، وضاق المقال على القاصر المتكلف ، وبهذا قامت الحجة على العرب • اذ كانوا أرباب الفصاحة (١) •

وهذا رسول قريش يدلي باعترافه الصريح الواضـــح • فيما أخرجه الحاكم عن ابن عباس قال : جاء الوليد بن المغيرة الى النبى صلى الله عليـه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم ان قومك يريدون أن يجمعوا له مالا ليعطوكه لئلا تأتى محمدا لتعرض لما قاله • قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا • قال • فقل فيـه قولا يبلغ قومك أنك كاره له ، قال : وماذا أقول فوالله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى تقول شيئا من هذا ، والله ان لقوله الذى يقول حلاوة ، وان عليـــه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته (٢) •

قرآنا عربيا غير ذى عوج ، لاشبهة فيه ولا ارتياب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) •

هذا القرآن الكريم دل على أنه بكليته محكم . ودل على أنه بكليته متشابه ، ودل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه •

الأول : مادل على أنه بكليته محكم وهو قوله تعالى •• « الر تلك آيات الكتاب الحكيم (٤) » وقوله تعالى •• « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٥) » •

---

(١) انظر الجامع لاحكام القرآن : طبعة الشعب ٦٨/١ •
(٢) انظر الاتقان للسيوطى طبعة ثالثة ١٩٨/٢ •
(٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت •
(٤) الآية ١ من سورة يونس •
(٥) الآية ١ من سورة هود •

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين أن القرآن جميعه محكم ، والمراد من المحكم بهذا المعنى : كونه كلاما حقا ، فصيح الألفاظ صحيح المعانى ، وكل قول وكلام يوجد فالقرآن أفضل منه فى فصاحة اللفظ وقوة المعنى ، ولا يتمكن أحد من الاتيان بكلام يساوى القرآن فى هذين الوصفين ، والعرب تقول فى البناء الوثيق والعقد الوثيق الذى لا يمكن حله محكم ، فهذا المعنى وصف جميعه بأنه محكم (١) ، فهو كتاب أحكمت آياته : أى فى باب النظم والفصاحة ، ونفى الدخل والخلل والباطل (٢) ، فلا تفاوت فيه فى النسق والاعجاز ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والثانى : مادل على أن القرآن بكليته متشابه وهو قوله تعالى .. الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم (٣) ... والمعنى أنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن ، ويصدق بعضه بعضا ، واليه الاشارة بقوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٤) ، اى لكان بعضه واردا على نقيض الآخر ، ولتفاوت نسق الكلام فى الفصاحة والركاكة (٥) .

---

(١) الرازى : محمد بن عمر بن الحسين ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى :امام مفسر قرشى النسب ولد فى الرى وتوفى فى هراه ٥٤٤ — ٦٠٦هـ له تصانيف كثيرة . الأعلام ص ٩٥٨ .

انظر مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير : المطبعة الحسينية المصرية ٣٩٤/٢ .

(٢) انظر الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى شيخ المفسرين المتوفى سنة ٣١٠هـ جامع البيان عن تأويل آى القرآن . المشهور بتفسير الطبرى ١٨٠/١١ طبعة البابى الحلبى سنة ١٣٧٣ .

وانظر أيضا الجامع لأحكام القرآن للقرطبى طبعة الشعب ٣١٤٤ ، ٣٢٣٠ .

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٨٢ من سورة النساء .

(٥) انظر التفسير الكبير للرازى طبع المطبعة الحسينية ٣٩٤/٢ .

وأيضا اذا علمنا أن القرآن الكريم استمر نزوله بضعا وعشرين سنة في مكة والمدينة ، في الحضر والبادية ، في السهل والجبل ، في الشدة والرخاء ، في العسر واليسر ، في الفرح والحزن ، في المغرم والمغنم ، في الحر والبرد ، في التهنئة والتعزية ، في السلم والحرب ، في الترحال والاقامة ، في الحلال والحرام ، في الوعد والوعيد ، في هذا كله وأكثر منه بكثير .

اذا علمنا ذلك ، استطعنا أن نلمس وجه الاعجاز في أحكامه ، وتشابه آياته ، وتصديق بعضه بعضا ، وورود آيات كثيرة منه بألفاظ منمقة ، وقد يقع في بعضها زيادة أو نقصان ، أو تقديم أو تأخير ، أو ابدال حرف مكان حرف (١) ، أو اختلاف ألفاظ معان مكررة ، وتنويع عبارات فنونه المحررة (٢) ، أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين أو الآيات ، مما تتبعه العلماء والمؤلفون في علوم القرآن ببيان سبب تكرارها ، والفائدة في اعادتها ، وما الموجب للزيادة أوالنقصان ، أو التقديم أو التأخير ، أو الابدال ، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الأخرى ، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة الآخرى من الآيات التي تشابهت وتشاكلت أم لايصلح (٣) .

والحديث عن مرجحات الوارد من ذلك من المعاني عند ذوي الافهام ،

---

(١) انظر مقدمة البرهان في متشابه القرآن للكرماني : تحقيق المؤلف

(٢) انظر مقدمة كشف المعاني في المتشابه من المثناني . لشيخ الجماعة أبي عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي المتوفي في جمادى الأول سنة ٧٣٣هـ : النسخة رقم ٢٢٥ تفسير تيمور مخطوطة بدار الكتب المصرية في مجموعة من ص ٢٥ الى ص ١٢٨ . ترجمة بن جماعة في المنهل الصافي جـ ٤ من ٥٤٠ الى ٥٤٢ .

(٣) انظر مقدمة البرهان في متشابه القرآن للكرماني . تحقيق المؤلف .

ومقتضيات من لزوم جليل التركيب من ذلك المعجز العلى من النظام ، فلا يليق بكل من تلك المواضع الا الوارد فيه ، وان تقدير وقوع آية منها فى موضع نظيراتها ينافى مقصود ذلك الموضع وينافيه (١) ·

وهذا المعنى من التشابه ومقتضياته وأسبابه هو ما تناوله كتاب البرهان فى متشابه القرآن الذى ألفه الكرمانى وجمع فيه من هذه الألوان ما تناوله بالشرح والتعليق حتى وضح وظهر ·

الثالث : ما دل على أن بعض القرآن محكم وبعضه متشابه وهو قول الله سبحانه وتعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات (٢) » ·

وان كان ما تدل عليه هذه الآية بعيدا عن موضوع هذه الدراسة الا أنه من الواجب أن أشير اليه ، وأتحدث عنه من خلال ما تحدث به العلماء والمفسرون ، وما بينوا من معنى المحكم والمتشابه من ناحية اللغة ، واصطلاح العلماء ، حديثا أعرض فيه بعض آرائهم ، دون التعرض لترجيح رأى على آخر ، فلهذا موضعه ومكانه ، وانما أورد ذكره استكمالا للحديث عن متشابه القرآن ومحكمه من زواياه المختلفة التى أفاض العلماء فى الحديث عنها ·

---

(١) انظر مقدمة كتاب : ملاك التأويل القاطع لذوى الالحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه من آى التنزيل لابى جعفر احمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفى الغرناطى · محدث مؤرخ انتهت اليه الرئاسة بالأندلس فى العربية ورواية الحديث والتفسير ولد فى حيان وتوفى فى غرناطة سنة ٨٠٧هـ · النسخة ٥٧ مجاميع بدار الكتب المصرية والنسخة المصورة بجامعة الدول العربية عن النسخة ٣٠٨ من مكتبة مراد سلا ·

انظر ·· الدرر الكاملة ١/٨٤ ·

(٢) من الآية ٧ من سورة آل عمران ·

الفصل الأول

المحكم والمتشابه فى اللغة

اولا : « المحكم والمتشابه عند ابن منظور »

(أ) قال ابن منظور (١) صاحب لسان العرب عند حديثه عن مادة « حكم (٢) » : الله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وهو الحكيم له الحكم • ومن صفات الله الحكم والحكيم والحاكم • وهو القاضى ، فهو فعيل بعمنى فاعل أو هو الذى يحكم الاشياء ويتقنها ، فهو فعيل بمعنى مفعل ، وقيل : الحكيم ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة افضل الأشياء بأفضل العلوم ، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم • والحكم العلم والفقه • قال تعالى : « وآتيناه الحكم صبيا »(٣) أى علما وفقها ، وفى الحديث فى صفة القرآن ، وهو الذكر الحكيم ، أى الحاكم لكم وعليكم أو هو المحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، فعيل بمعنى مفعل أحكم فهو محكم •

وفى حديث ابن عباس (٤) : قرأت المحكم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم • يريد المفصل من القرآن ، لأنه لم ينسخ منه شىء ، وقيل : مالم يكن متشابها ، لانه أحكم بيانه بنفسه ولم يفتقر الى غيره •

---

(١) جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى ٦٣٠ – ٧١١هـ •

(٢) انظر لسان العرب ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ٣٠/١٥ وما بعدها •

(٣) من آية ١٢ من سورة مريم •

(٤) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى :٣ق هـ – ٦٨هـ

والعرب تقول : حكمت وأحكمت وحكمت بمعنى منعت ورددت ومن هذا قيل للحاكم بين الناس حاكم ، لأنه يمنع الظالم من الظلم .

ثم يقول (١) . وأحكمت الشيء فاستحكم صار محكما . وقول الله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير (٢) » فان التفسير جاء أحكمت آياته ، بالأمر والنهي والحلال والحرام ثم فصلت بالوعد والوعيد ، قال : والمعنى والله أعلم أن آياته أحكمت وفصلت بجميع ما يحتاج اليه من الدلالة على توحيد الله ، وتثبيت نبوة الأنبياء ، وشرائع الاسلام ، والدليل على ذلك قول الله عز وجل : « ما فرطنا في الكتاب من شيء (٣) » .

وقال بعضهم في قول الله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب الحكيم (٤) » أنه فعيل بمعنى مفعل ، واستدل بقوله عز وجل : « الر كتاب أحكمت آياته (٥) » وهذا شأن الله والقرآن يوضح بعضه بعضا وانما جوزنا ذلك وصوبناه لأن حكمت يكون بمعنى أحكمت وحكم الشيء وأحكمه كلاهما منعه من الفساد .

ب - ويقول ابن منظور صاحب لسان العرب عند حديثه عن مادة « شبه (٦) » : الشبه والشبه والشبيه المثل والجمع أشباه ، وأشبه الشيء الشيء ماثله ، في المثل من شابه أباه فما ظلم . وأشبه الرجل أمه

---

(١) انظر ص ٣٣ من لسان العرب .
(٢) من الآية ١ من سورة هود .
(٣) من الآية ٣٨ من سورة الانعام .
(٤) الآية ١ من سورة يونس .
(٥) من الآية ١ من سورة هود .
(٦) انظر لسان العرب لابن منظور طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر ١٧/٣٩٧ . وما بعدها .

اذا عاز وضعف ، وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه علىّ وتشابه الشيآن واشتبها أشبه كل واحد منهما صاحبه • وفى التنزيل « مشتبهان وغير متشابه »(١) وشبهه اياه وشبهه به مثله ، والمشبهات من الامور المشكلات والمتشابهات المتماثلات ، وتشبه فلان بكذا ، والتشبيه التمثيل والمشبه الالتباس ، وأمور مشتبهة ومشبهه يشبه بعضها بعضا • وبينهم أشباه أى أشياء يتشابهون فيها ، وشبه عليه خلط عليه الأمر حتى اشتبه بغيره، ويقال : شبهت هذا بهذا وأشبه فلان فلانا •

وفى التنزيل العزيز : منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات (٢) • قيل معناه يشبه بعضها بعضا ، وقد اختلف المفسرون فى تفسير قوله (وأخر متشابهات) فروى عن ابن عباس أنه قال:المتشابهات الم ، الر ، وما اشتبه على اليهود من هذه ونحوها • ثم قال : وهذا لو كان صحيحا عن ابن عباس كان مسلما له ، ولكن أهل المعرفة بالاخبار وهنوا اسناده •

ثم تحدثت عما روى عن ابن عباس والضحاك (٣) : أن المحكمات ما لم ينسخ ، والمتشابهات ما قد نسخ • وقال غيره : المتشابهات هى الآيات التى نزلت فى ذكر القيامة والبعث • ضرب قوله : « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد ، افترى على الله كذبا أم به جنة » (٤) •

---

(١) من الآية ٩٩ من سورة الانعام •
(٢) من الآية ٧ من سورة آل عمران •
(٣) الضحاك بن مزاحم • هو أبو القاسم البلخى المفسر المحدث النحوى المتوفى سنة ١٠٥ أو سنة ١٠٦ • انظر معجم الأدباء لياقوت ١٥/١٢ •
(٤) الآية ٧ ومن الآية ٨ من سورة سبأ •

وضرب قوله : وقالوا « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا المبعوثون أو آباؤنا الأولون » (١) ٠

فهذا الذى تشابه عليهم فأعلمهم الله الوجه الذى ينبغى أن يستدلوا به على أن هذا المتشابه عليهم كالظاهر لو تدبروه ٠ فقال : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » (٢) ٠

أى اذا كنتم اقررتم بالانشـــاء والابتـداء فما تنكرون من البعث والنشور ٠ وهذا قول كثير من أهل العلم وهو بين واضح ٠ ومما يدل على هذا القول قوله عز وجل : « فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » (٣) أى انهم طلبوا تأويل بعثهم واحيائهم ، فأعلم الله أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه الا الله عز وجل ٠ والدليل على ذلك قوله (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله (٤) يريد قيام السـاعة وما وعدوا من البعث والنشور والله أعلم ٠

وأما قوله : « وأوتوا به متشابها » (٥) ٠ فان أهل اللغة قالوا معنى متشابها يشبه بعضه بعضا فى الجودة والحسن ٠

وقال المفسرون : متشابها يشبه بعضه بعضا فى الصورة ويختلف فى الطعم ودليل المفسرين قوله تعـالى « هـذا الذى رزقنـا من قبل (٦) :

---

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الصافات ٠
(٢) الآيات ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ومن الآية ٨١ من سورة يس ٠
(٣) من الآية ٧ من سورة آل عمران ٠
(٤) من الآية ٥٣ من سورة الاعراف ٠
(٥) من الآية ٢٥ من سورة البقرة ٠
(٦) من الآية ٢٥ من سورة البقرة ٠

لأن صورته الصورة الأولى ، ولكن اختلاف الطعم مع اتفاق الصورة أبلغ وأغرب عند الخلق ، لو رأيت تفاحا فيه طعم الفاكهة لكان نهاية فى العجب·

وفى الحديث فى صفة القرآن « آمنوا بمتشابهه واعملوا بمحكمه »

المتشابه ما لم يتلق معناه من لفظه وهو على ضربين :

أحدهما : اذا أراد المحكم عرف معناه· **والآخر** : مالا سبيل الى معرفة حقيقة فالمتتبع له مبتغ للفتنة لأنه لا يكاد ينتهى الى شئ تسكن نفسه اليه·

ثانيا : « المحكم والمتشابه عند الفيروزابادى » (١) :

(أ) قال الفيروزابادى (٢) : والحكمة بالكسر العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن والانجيل ، وأحكمه أتقنه فاستحكم ، ومنعه من الفساد ، كحكمه حكما ، وعن الأمر رجعه فحكم ، ومنعه مما يريد كحكمه ، وحكمه · والفرس جعل للجامة حكمه محركة ، ما أحاط بحنكى الفرس ، وسورة محكمة · غير منسوخة والآيات المحكمات :قوله تعالى : « اتل ما حرم ربكم الى آخر الآيات الثلاث (٣) · أو التى أحكمت فلا يحتاج سامعها الى تأويل لبيانها كاقاصيص الأنبياء ·

(ب) وقال الفيروزابادى (٤) : الشبه بالكسر والتحريك المثل جمعه أشباه · وشابهه وأشبهه ماثله · وتشابها واشتبها · أشبه كل منهما الآخر التبسا · وفى القرآن المحكم والمتشابه ·

---

(١) صاحب القاموس المحيط ·
(٢) انظر القاموس المحيط طبعة المكتبة التجارية الطبعة الرابعة · سنة ١٩٣٨ ٤/٩ ·
(٣) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام ·
(٤) انظر القاموس المحيط طبعة المكتبة التجارية الطبعة الرابعة سنة ١٩٣٨ ٤/١٨٦ ·

الفصل الثانى

المحكم والمتشابه فى اصطلاح العلماء

١ - قال ابن جرير الطبرى (١) :

الآيات المحكمات هن اللواتى قد أحكمن بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه ، من حلال وحرام ، ووعد ووعيد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل ، وعظة وعبر ، وما أشبه ذلك ٠

ثم وصف جل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب ، يعنى بذلك : أنهن أصل الكتاب الذى فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق اليه الحاجة من أمر دينهم ، وما كلفوا به من الفرائض فى عاجلهم وآجلهم ٠

وانما سماهن أم الكتاب ، لانهن معظم الكتاب ، وموضع مفزع أهله عند الحاجة اليه ، وكذلك تفعل العرب ، تسمى الجامع معظم الشىء أماله ، فتسمى راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم ٠

وقد اختلف أهل التأويل فى تأويل : منه آيات محكمات (٢) ٠

فقال بعضهم : المحكمات من آى القرآن ، المعمول بهن ، وهن الناسخات ، أو المثبتات الأحكام ٠

والمتشابهات من آيه : المتروك العمل بهن ، المنسوخات ٠

---

(١) أنظر جامع البيان عن تأويل آى القرآن لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٠ الطبعة الثانية ٣/١٧٠ وما بعدها ٠

(٢) من الآية ٧ من سورة آل عمران ٠

عن ابن عباس قال هي الثلاث الآيات التي ههنا : قل تعالوا أتل ماحرم ربكم (١) الخ • وقال أيضا :

المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ومايؤمن به يعمل به • والمتشابهات : منسوخة ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله ، وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به • وهذا هو حاصل ماروى عن ابن عباس، لأن ما قاله من تحديد المحكمات بآيات معينة حتى يكون ما وراءها من المتشابه انما هو مثال أعطاه للآيات المحكمات فاختار لها ما لا سبيل الى نسخه من الحدود والفرائض وغيرها •

وقال ابن مسعود (٢) وبعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما الآيات المحكمات فهن الناسخات التى يعمل بهن •

وأما المتشابهات : فهن المنسوخات •

وقال آخرون : المحكمات من آى الكتاب : ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه (٣) ، وهذا مروى عن مجاهد •

والمتشابهات منها ، ما أشبه بعضه بعضا فى المعانى ، وان اختلفت

---

(١) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام •

(٢) ابن مسعود : عبد الله بن مسعود بن غافل يصل نسبه الى مضر ويكنى بأبى عبد الرحمن الهذلى كان يخدم النبى صلى الله عليه وسلم • وهو صاحب طهوره وسواكه حتى ظنه الأشعرى أنه من أهل بيت النبى - صلى الله عليه وسلم - • توفى سنة ٣٢ هـ عن بضع وستين سنة ودفن بالبقيع • انظر أسد الغابة ٣/٢٥٦ - ٢٦٠ •

(٣) هذا رأى مجاهد بن جبر المكى أبو الحجاج مولى بنى مخزوم تابعى مفسر من أهل مكة أخذ التفسير عن ابن عباس • توفى سنة ١٠٤ الاعلام ٦/١٦١ • انظر تفسير الطبرى - الطبعة الثانية ٣/١٧٤ •

ألفاظه . وقال آخرون (١) ، المحكمات : فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف وتحريف ، وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام ، لا يصرفهن الى الباطل ولا يحرفن عن الحق . وهذا مروى عن محمد بن جعفر بن الزبير .

وقال آخرون : معنى المحكم : ما أحكم الله فيه من آى القرآن ، وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا اليهم ، ففصله ببيان ذلك لمحمد وأمته .

والمتشابه : هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم ، عند التكرير فى السورة ، فقصه باتفاق الألفاظ واختلاف المعانى وقصه باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى .

وقال آخرون : المحكم من آى القرآن : ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره .

المتشابه ما لم يكن لأحد الى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى بن مريم ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا ، وما أشبه ذلك (٢) .

وقالوا : انما سمى الله من آى الكتاب المتشابه ، الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض سور القرآن ، من نحو الم ، الر ، المص ، المر ، وما أشبه ذلك ، لأنهن متشابهات الألفاظ ، وموافقات حروف حساب

---

(١) هذا رأى محمدا بن جعفر بن الزبير بن العوام الأسدى المدنى كان من نقهاء المدينة وقرائهم كان عالما بالحديث مات ما بين عام ١١٠ - ١٢٠ هـ . انظر التهذيب لابن حجر ط سنة ١٣٢٦ . ٩٣/٩ . انظر تفسير الطبرى الطبعة الثانية ١٧٤/٣ .

(٢) انظر الاكليل فى المتشابه والتأويل مجموع الرسائل ٧/٢ لابن تيمية تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى الدمشقى المتوفى سنة ٧٢٨ هـ .

الجمل ، وكان قوم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم طمعوا أن يدركوا من قبلها معرفة مدة الاسلام وأهله ، ويعلموا نهاية أجل محمد وأمته فاكذب الله احدوثهم بذلك وأعلمهم أن ما ابتغوا علمه من ذلك من قبيل هذه الحروف المتشابهه لا يدركونه ، ولا من قبل غيرها وان ذلك لا يعلمه الا الله »

ثم قال الطبرى (١) : لا يخلو المحكم من أن يكون محكما بمعنى واحد ، لا تأويل له غير تأويل واحد وقد استغنى بسماعه عن بيان مبينه • أو يكون محكما وان كان ذا وجوه وتأويلات وتصرف فى معانى كثيرة ، فالدلالة على المعنى المراد منه ، اما من بيان الله تعالى ذكره عنه ، أو بيان رسوله صلى الله عليه وسلم لامته ، ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة • ثم تحدث الطبرى عن قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث » (٢) يعنى القرآن « متشابها » يشبه بعضه بعضا ، لا اختلاف فيه ولا تضاد • الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف • يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، ويدل بعضه على بعض •

ومن هذا ما تناوله العلماء ممن كتبوا فى توجيه متشابه القرآن مثل الكرمانى والخطيب (٣) الاسكافى وغيرهما •

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٣/١٧٥ •

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الزمر • انظر جامع البيان للطبرى ٢٣/٢١٠ •

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافى من أهل اصبهان عالم باللغة والأدب • الاعلام ٧/١٠٣ • انظر درة التنزيل وغرة التأويل •

٢ - الراغب الأصفهانى وتعريفاته :

قال الراغب (١) : حكم أصله منع ، منعا لاصلاح ، ومنه سميت اللجام حكمه للدابه فقيل : حكمته وأحكمتها • قال الشاعر : (٢)

ابن حنيفة أحكموا سـفهاءكم   أنى أخاف عليكم أن أغضـبا

ثم قال الراغب : قوله عز وجل « آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » (٣) فالمحكم مالا يعرض فيه شبهه من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى • ثم تحدث الراغب عن المتشابه فقال (٤) :

الشبه ، والشبه ، والشبيه ، حقيقتها فى المماثلة من جهة الكيفية «كاللون والطعم» وكالعدالة والظلم والشبهة : هو أن لا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان أو معنى • قال تعالى : « وأتوا به

---

(١) هو الحسن بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهانى - المعروف بالراغب الأصفهانى - أديب لغوى مفسر من أهل أصبهان ، سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالامام الغزالى ، من كتبه المفردات فى غريب القرآن ، محاضرات الأدباء ، جامع التفسير ، الأخلاق ، ونسب اليه خطا كتاب الخطيب الاسكافى درة التنزيل وغرة التأويل • توفى سنة ٥٠٢ أو ٥٠٣ هـ • انظر الاعلام ٢٧٨/٢ • وانظر كتاب المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى • طبع الحلبى سنة ٣٨١ تحقيق محمد سيد كيلانى ص ١٢٦ •

(٢) قائل البيت هو جرير • انظر لسان العرب لابن منظور طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة ٣٣/١٥ ومعناه ردوا سفهاءكم وكفوهم وامنعوهم من التعرض لى •

(٣) من الآية ٧ من سورة آل عمران •

(٤) انظر ص ٢٥٤ من المفردات فى غريب القرآن •

متشابها » (١) أي يشبه بعضه بعضا ، لونا لا طعما وحقيقة • وقيل متماثلا في الكمال والجودة • وقرىء قوله تعالى « مشتبها وغير متشابه » (٢) وقرىء « متشابها » جميعا ومعناها متقاربان • وقال تعالى : « ان البقر تشـــابه علينا » (٣) على لفظ الماضي فجعل لفظه مذكرا ، وتشابه أي تتشابه علينا على الأدغام ، وقوله تعالى : « تشابهت قلوبهم (٤) » أي في الغي والجهالة • قال تعالى : « وأخر متشابهات (٥) » •

والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره ، أما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى • فقال الفقهاء : المتشابه مالا ينبىء ظاهره عن مراده — ثم بدأ الراغب الأصفهاني يقسم الآيات الى أضرب مختلفة فقال : وحقيقة ذلك أن الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب :

١ — محكم على الاطلاق •

٢ — متشابه على الاطلاق •

٣ — محكم من وجه متشابه من وجه •

فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب :

(أ) متشابه من جهة اللفظ فقط •

(ب) متشابه من جهة المعنى فقط •

(ج) متشابه من جهتهما •

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة البقرة •
(٢) من الآية ٩٩ من سورة الأنعام •
(٣) من الآية ٧٠ من سورة البقرة •
(٤) من الآية ١١٨ من سورة البقرة •
(٥) من الآية ٧ من سورة آل عمران •

والمتشابه من جهة اللفظ ضربان :

أحدهما : يرجع الى الألفاظ المفردة وذلك اما من جهة غرابته نحو « الأب (١) » « ويزفون (٢) » وامـا من جهـة مشـاركة فى اللفظ « كاليدين (٣) والعينين (٤) » ·

والثـانى : يرجع الى جمـلة الكلام المركب ، وذلك ثلاثة أضرب ·

١ ــ ضرب لاختصار الكلام نحو قوله تعالى : « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » (٥) ·

٢ ــ ضرب لبسط الكلام نحو قوله تعالى « ليس كمثله شىء » (٦) لأنه لو قيل ليس مثله شىء كان أظهر للسامع ·

٣ ــ ضرب لنظم الكلام نحو قوله تعالى : « أنزل على عبده الكتـاب ولم يجعل له عوجا قيما (٧) » تقديره الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا · وقوله تعالى : « ولولا رجال مؤمنون » الى قوله تعالى : « لوتزيلوا (٨) » ·

والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامه ،

---

(١) قال تعالى وفاكهة وأبا · الآية ٣١ من سورة عبس ·
(٢) قال تعالى : فاقبلوا اليه يزفون · الايه ٩٤ من سورة الصافات ·
(٣) مثال قوله تعالى : أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ·· من الآية ٧١ من سورة يس ·
(٤) مثال قوله تعالى : واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ·· من الآية ٤٨ من سورة الطور ·
(٥) من الآية ١ من سورة النساء ·
(٦) من الآية ١١ من سورة الشورى ·
(٧) من الآيتين ١ ، ٢ سورة الكهف ·
(٨) من الآية ٢٥ من سورة الفتح ·

فان تلك الصفات لا تتصور لنا اذا كان لا يحصل فى نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه .

والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعا خمسة أضرب :

الأول : من جهة الكمية ، كالعموم والخصوص نحو قوله تعالى ـ «اقتلوا المشركين » (١) .

والثانى : من جهة الكيفية ، كالوجوب والندب نحو قوله تعالى ـ « فانكحوا ما طاب لكم » (٢) .

والثالث : من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو قوله تعالى ـ « اتقوا الله حق تقاته » (٣) .

والرابع : من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها نحو قوله تعالى ـ « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » (٤) وقوله تعالى : « انما النسىء زيادة فى الكفر (٥) » فان من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية .

الخامس : من جهة الشروط التى بها يصح الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح ، وهذه الجملة اذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم ، نحو قول من قال المتشابه

---

(١) من الآية ٥ من سورة التوبة .

(٢) من الآية ٣ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران : يرجع الى ما قيل فيها من دعوى نسخ والرد على ذلك الى كتاب النسخ فى القرآن الكريم دراسة تشريعية تاريخية نقدية لاستاذنا الجليل الدكتور مصطفى زيد . المجلد الأول من الطبعة الأولى . الناشر دار الفكر العربى الفقرة ٨٤٧ ص ٦١٣ ومابعدها .

(٤) من الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

(٥) من الآية ٣٧ من سورة التوبة .

« الم » وقول قتادة (١) : المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ ٠

وقول الأصم : المحكم ما أجمع على تأويله والمتشابه ما اختلف فيه ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب ٠

١ ـ ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة وخروج دابة الأرض وكيفية الدابة ونحو ذلك ٠

٢ ـ وضرب للانسان سبيل الى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام الغلقة ٠

ـ وضرب متردد بين الأمرين يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين فى العلم ويخفى على من دونهم ، وهو الضرب المشار اليه بقوله عليه السلام فى على رضى الله عنه : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وقوله لابن عباس مثل ذلك ٠

واذا عرفت هذه الجملة علم أن الوقف على قوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله » ووصله بقوله تعالى : « والراسخون فى العلم » جائز . وان لكل واحد منهما وجها حسبما دل عليه التفصيل المتقدم ٠

وقوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (١) » فانه يعنى ما يشبه بعضه بعضا فى الأحكام والحكمة واستقامة النظم ٠ وقوله تعالى : « ولكن شبه لهم (٢) » أى مثل لهم من حسبوه اياه ، والشبه من

---

(١) قتادة : أبو الخطاب ، قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه . عربى الأصل كان يسكن البصرة ، روى عن انس وأبى الطفيل . وابن سيرين ، وعكرمه وعطاء بن أبى رباح وغيرهم ٠ كان قوى الحافظة واسع الاطلاع مشهورا بالتفسير ٠ توفى سنة ١٢٧ هـ وعمره انذاك ٥٦ سنة على المشهور ٠ انظر تهذيب التهذيب ١/٣٥١ ـ ٣٥٦ ٠

(١) من الآية ٢٣ من سورة الزمر ٠

(٢) من الآية ١٥٧ من سورة النساء ٠

الجواهر ما يشبه لونه لون الذهب (١) .

« ملاحظات على قول الراغب فى المحكم والمتشابه »

١ ـ وضع الراغب الأصفهانى حدا للمحكم بقوله : المحكم : ما لا يعرض فيه شبهه من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى : وهـذا الحد جامع لكل أنواع المحكم .

٢ ـ قسم الأصفهانى المتشابه الى أضرب ووجوه وتوسع فى ذلك حتى شمل التشـابه فى اللفظ والمعنى والمفرد والمركب ، وهو بذلك يهدف الى جمع ما قاله المفسرون فى المتشابه على اختلاف أقوالهم ، بل انه حدد هذا الهدف حين قال فى آخر مقالته عن المتشابه « وهذه الجملة اذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم » .

٣ ـ الراغب يميل الى اعتبار كل ما احتاج الى تفسير من المتشابه ، بينما التفسير يخالف التأويل (٢) ، والله سبحانه وتعالى قال :

« وما يعلم تأويله الا الله .. » لكن تفسـير القرآن يعلمه العلماء أيضا المشتغلون بالقرآن ومدارسته . وهو بتعريفه هذا للمتشابه يجعله شاملا لكل ما اشتبه من ناحية لفظه أو معناه . وهذا لا يخصص المتشـابه بما أشارت اليه آية آل عمران (٣) .

---

(١) انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سـنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ، طبع المجلس الأعلى للشئون الاسـلامية سنة ١٩٦٦ ج ٣ ص ٢٩٣ وما بعدها .

(٢) انظر محاسن التأويل للقاسمى . محمد جمال الدين القاسمى ١٣٣٢ هـ تصحيح محمد فؤاد عبد الباقى طبع الحلبى ج ٤ ص ٧٨٠ وما بعدها وانظر أيضا : التفسير والمفسرون الذهبى ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٦١ ج ١ ص ١٣ ـ ٢٢ ، الاتقان للسيوطى ١٨٣/٣ . وانظر الاكليل فى المتشـابه والتأويل لابن تيمية ١٥/٢ ـ ١٧ وغيرهم .

(٣) الآية ٧ من سورة آل عمران .

٤ ـ وقول الاصفهانى فى تعريف المتشابه • هو كل ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره اما من جهة اللفظ أو من حيث المعنى : يبعده عن موضوع هذا البحث ••• لأن التشابه الذى هو موضوع هذا البحث : تشابه لا ينشأ عنه أشكال فى تفسير أو تأويل وانما الذى ينشأ عنه بيان اعجاز القرآن الكريم وبلاغته وبعده عن التكرار الذى ليس من ورائه طائل • وبيان أسرار تراكيبه واحكام ترتيبه ومناسبة الفاظه لمعانيه وآياته لسوره • ولم لا والله سبحانه وتعالى قد جعله المعجزة الخالدة على الزمن ، وتحدى به العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة ، فأعجزهم به ، وجعل آياته حجة عليهم ، واثبات بين لقصورهم عن الاتيان بمثله كبر ما يأتون به أو قل • وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين (١) •

فالراغب لم يشر فى تعريفاته وتقسيماته للمتشـــابه اللفظى الى موضوع هذا البحث الا بما قاله فى حديثه عن قول الله سـبحانه وتعالى « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها » (٢) حيث أشار اشارة من بعيد الى موضوع هذا البحث حيث قال : « فانه يعنى ما يشبه بعضه بعضا فى الأحكام ، والحكمة ، واستقامة النظم وقد يشير هذا بوجه عام الى مايهدف اليه هذا البحث من بيان استقامة نظم القرآن وأحكام آياته وان جاءت بألفاظ متفقة أو فى بعضها زيادة أو نقصان كل آية حسـب ما يقتضيه موقعها وسياقها وسابقها ولاحقها بعيدا عن تكرار العرب المؤدى الى الملل والسأم • وانما تأكيد المعنى واضافة وتبيان من لدن حكيم خبير •

---

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة •
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الزمر •

٣ ـ الكرمانى وتعريفاته :

تحدث الكرمانى عند تفسيره لقول الله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب » أى القرآن « منه » من الكتاب « آيات محكمات هن أم الكتاب » أى أصله يعمل به فى كل كتاب أنزله الله .

فقال (١) : اختلف المفسرون فى المحكم والمتشابه فروى ابن عباس : أن المحكم الناسخ الذى يعمل به ، وروى عنه أيضا : أن المحكم ما أمر الله به فى كل كتاب أنزله ، نحو قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم عليكم » الآيات (٢) ، ومثله « وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » (٣) .

وما سوى المحكم متشابه ، وعن محمد بن جعفر بن الزبير (٤) : المحكم لا يحتمل من التأويل الا وجها واحدا والمتشابه ما احتمل أوجها .

وأورد الكرمانى أيضا تعريف المحكم بقوله : الذى لم تتكرر ألفاظه . والمتشابه الذى تكررت ألفاظه .

وحكى الكرمانى أيضا تعريف مجاهد (٥) للمحكم بقوله : مالم يشتبه معناه ، كقوله تعالى ، « لا يظلم مثقال ذرة (٦) » ، وكقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (٧) » والمتشابه ما اشتبهت معانيه وذكر غير ذلك من آراء .

---

(١) الكرمانى : محمود بن حمزة بن نصر المتوفى حوالى سنة ٥٠٠هـ انظر لباب التفاسير ، مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٨ تفسير تيمور .

(٢) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الاسراء .

(٤) محمد بن جعفر بن الزبير بن العوام ت مابين ١١٠ ، ١٢٠ هـ

(٥) مجاهد بن جبر المكى المتوفى سنة ١٠٤ .

(٦) من الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٧) الآية ١٢ من سورة المؤمنين .

ثم قال رأيه فى المسألة :

قلت : القرآن كله محكم من قوله • « الر كتاب أحكمت آياته (١) أى أحكمت بالنظم العجيب والمعنى البديع •

وكله متشابه من قوله : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها (٢)» أى يشبه بعضه بعضا لاخلاف فيه ولا تناقض •

والمراد بالمحكم ههنا والله أعلم مالا يتطرق اليه النسخ بوجه ما ، من قولهم أحكمت الشىء أى منعت منه الخلل ، وأصله من المنع • والمراد بالمتشابه والله بعلمه ، ما هو داخل فى شبه غيره ، ومثله المشكل أى دخل فى شكل غيره اهـ

ملاحظات على قول الكرمانى

١ ـ أورد الكرمانى تعريفا للمحكم بأنه مالم تتكرر الفاظه • والمتشابه ما تكررت الفاظه اهـ

وهذا هو بعينه ما تحدث عنه فى كتابه البرهان الذى هو موضوع البحث حيث أورد فى مقدمته أن هذا الكتاب (٣) اذكر فيه الآيات المتشابهات التى تكررت فى القرآن وألفاظها متفقة فكأنه قال وما عدا هذه الآيات التى تكررت فهى آيات محكمة •

٢ ـ الكرمانى فى تعريفه للمحكم والمتشابه لم يفرق بينهما فى بادىء الأمر حيث قال القرآن كله محكم • أى أحكمت آياته بالنظم العجيب والمعنى البديع ، وكله متشابه • أى يشبه بعضه بعضا لاخلاف فيه ولا تناقض •

---

(١) من الآية ١ من سورة هود •
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الزمر •
(٣) البرهان فى متشابه القرآن •

وهو تعريف واحد لا يفرق بين محكم ومتشابه مما تشير اليه آية آل عمران (١) : فالاحكام والتشابه هنا يجمعهما اعجاز النظم والتماثل فى الاحكام البلاغى ، والوحدة المتكاملة النسق « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (٢) .

٣ - وفى حديث الكرمانى عن آية آل عمران : المحكم عنده يساوى تماما للمتشابه السابق الحديث عنه عنده .

فالمحكم عنده فى آل عمران هو الذى لايدخله الخـــلل وهو بعينه المتشابه الذى لا تناقض فيه .

لكن الذى قد يحدد محكم آية آل عمران هو ما يقابل تعريف المتشابه فيها الذى عناه الكرمانى بقوله : ما استأثر الله بعلمه .

٤ - من هذا نرى أن الكرمانى فى كتابه البرهان يحـــاول أن يرد الآيات المتشابهة التى تكررت فى القرآن والفاظها متفقة ، يحاول ردهـا الى أنها آيات محكمات وأن تكرار الفاظها ماهو الا بحسب ظاهر كلماتها فقط كما يبدو لأصحاب النظر المحدود ، أما هؤلاء الذين أعطاهم الله من علمه ماعلموا به أسرار القرآن وآياته فلا يرون فيها تكرارا وانما احكام ربانى وبيان الهى ، واعجاز مطلق ناطق بالحق بأنه كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولاَ من خَلفه تَنزِيلٌ من حكيم حميد » (٣) .

---

(١) الآية ٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

٤ - الامام الغزالى وتعريفه للمحكم والمتشابه :

قال الامام الغزالى (١) : المحكم يرجع الى معنيين ..

أحدهما ، المكشوف المعنى الذى لا يتطرق اليه أشكال أو احتمال .

والثانى : ما انتظم وترتب ترتيبا مفيدا ، اما على ظاهر أو على تأويل .

والذى يقابل المحكم بمعناه الأول عند الامام الغزالى المتشابه وعرفه بقوله : ما تعارض فيه الاحتمال .

ويقابل المحكم بمعناه الثانى عن الامام الغـــزال . غير المنتظم الذى لا ترتيب فيه . أو ترتيبه غير مفيد .

وعلى المعنى الأول للمحكم عند الغزالى يدخل فى حد المتشابه الأسماء المشتركة كالقرء .

ويدخل فى حد المتشابه أيضا عند الغزالى ما ورد فى صـــفات الله سبحانه وتعالى مما يوهم ظاهره الجهة والتشبيه ويحتاج الى تأويل . وعى هذا لا يرتضى الغزالى قول من قال ان المتشابه هو الحروف المقطعة فى أوائل السور مثل : الم ، الر ، وغيرها والمحكم ماوراء ذلك وكذا لا يرتضى الرأى القائل بأن المحكم ما يعرفه الراسخون فى العلم ، والمتشابه ما انفرد الله سبحانه وتعالى بعلمه .

---

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى أبو حامد حجة الاســـلام الامام الفيلسوف المتصوف له نحو مائتى مصنف مولده ووفاته فى قصبة طوس بخراسان ورحل الى نيسابور ثم بغداد فالحجاز فبلاد الشــــام فمصر ثم عاد الى بلدته وتوفى بها سنة ٥٠٥ هـ . الاعلام ٢٤٧/٧ .

انظر المستصفى من علم الأصول ٦٨/١ طبعة المـــكتبة التجارية سنة ١٣٥٦ ط أولى .

والغزالي يؤكد على تحكيم اللغة في هذا الموضوع والرجوع اليها ، وهذا ما ذكره أبو حيان (١) وسار عليه الآمدى (٢) ٠

وتأكيد الغزالى على تحكيم اللغة يشمل أيضا ما تحويه هذه الدراسة للمتشابه من بيان مناسبه الألفاظ لموضعها فى الآية بل ومناسبة الآية لموضعها من القرآن وان تكررت فاللغة تكشف عن هذا الاعجاز بها يرى وعليه تقوم •

٥ - الامام الرازى وما تحدث به عن المحكم والمتشابه :

تحدث الرازى (٣) عن المحكم والمتشابه وبين أن الله سبحانه وتعالى قد بين أن القرآن الكريم كله محكم بقوله تعالى « الر تلك آيات الكتاب الحكيم (٤) وبقوله تعالى : الر كتاب أحكمت آياته (٥) » ٠

وأن الله سبحانه وتعالى قد بين أن القرآن الكريم كله متشابه ٠ يقول تعالى : كتابا متشابها (٦) ٠

---

(١) انظر البحرالمحيط لأبى حيان ٢/٣٨١ ٠

(٢) هو أبو الحسن على بن محمد سيف الدين الآمدى من اصول المتكلمين ، ولد فى آمد وهى من ديار بكر ٠ وتعلم فى بغداد و [illegible] ، وتوفى فى دمشق سنة ٦٣٩هـ من مصنفاته : الاحكام فى أربعة أجزاء ، ومختصره ٠٠ ابكار الأفكار فى علم الكلام ، الاعلام ٥/١٥٣ ٠

انظر تفسير النصوص فى الفقه الاسلامى : دراسة مقارنة [illegible] محمد اديب صالح ٠ طبعة أولى ، مطبعة دمشق سنة : ١٣٨٤ هـ ص [illegible]

(٣) الامام محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين [illegible] المشتهر بخطيب الرى المتوفى سنة ٦٠٦هـ ٠ انظر مفاتيح الغيب [illegible] بالتفسير الكبير ٠ طبع المطبعة الحسينية المصرية ٢/٢٩٤ وما بعدها ٠

(٤) الآية ١ من سورة يونس

(٥) الآية ١ من سورة هود ٠

(٦) الآية ٢٣ من سورة الزمر ٠

ولقد تحدث عن ذلك كله فى المقدمة ٠

ثم تحدث الرازى عما دل من قول الله سبحانه وتعالى ان القرآن الكريم بعضه محكم وبعضه متشابه ، وبين من أنه لابد من تفيرها بحسب أصل اللغة ثم تفسيرهما فى اصطلاح العلماء فقال :

أما المحكم : فالعرب تقول ٠ حاكمت وأحكمت ، بمعنى رددت ومنعت والحاكم يمنع الظالم عن الظلم ٠ الى آخر ما جاء فى ذلك الى أن قال وسميت الحكمة حكمة لانها تمنع عمالا ينبغى ٠

وأما المتشابه : فهو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز ٠ قال الله تعالى : « ان البقر تشابه علينا » (١) وقال فى وصف ثمار الجنة : « وأتوا به متشابها (٢) » ومنه يقال اشتبه الأمران اذا لم يفرق بينهما ٠ ويقال لأصحاب المخاريق أصحاب الشبه وقال عليه السلام «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات» وفى رواية أخرى « مشتبهات » ٠

ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الانسان عن التمييز بينهما سمى كل حال يهتدى الانسان اليه بالمتشابه اطلاقا لاسم السبب على المسبب ونظيره المشكل سمى بذلك لأنه أشكل أى دخل فى شكل غيره فاشبهه وشابهه ٠

ثم يقال لكل ما غمض ولم يكن غموضه من هذه الجهة مشكل ٠

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة البقرة ٠
(٢) من الآية ٢٥ من سورة البقرة ٠
(٣) من الآية ١١٨ من سورة البقرة ٠

ويحتمل أن يقال أنه الذى لا يعرف أن الحق ثبوته أو عدمه ، وكان الحكم بثبوته مساويا للحكم بعدمه فى العقل والذهن ، ومشابها له وغير متميز أحدهما عن الآخر بمزيد رجحان ٠

فلا جرم سمى غير المعلوم بأنه متشابه ٠

ثم قال : هذا تحقيق القول فى المحكم المتشابه بحسب أصل اللغة ٠

ثم قال الرازى : ان الناس قد أكثروا من الوجوه فى تفسير المحكم والمتشابه وبين أنه سيذكر الوجه الذى عليه أكثر المحققين ، ثم يذكر عقيبه أقوال الناس فيه ٠ فقال :

اللفظ الذى جعل موضوعا لمعنى : اما أن يكون محتملا لغير ذلك المعنى ، واما أن لا يكون ٠ فاذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهذا هو النص ٠

واما ان كان محتملا لغيره فلا يخلو اما أن يكون احتماله لاحدهما راجحا على الآخر ، واما أن لايكون كذلك بل يكون احتماله لها على السواء فان كان احتماله لأحدهما راجحا على الآخر سمى ذلك اللفظ بالنسبة الى الراجح ظاهرا ، وبالنسبة الى المرجوح مؤولا ٠

وأما ما كان احتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة اليهما معا مشتركا ، وبالنسبة الى كل واحد منهما على التعيين مجملا ٠

فقد خرج من التقسيم الذى ذكرناه أن اللفظ أما أن يكون نصا ظاهرا أو مؤولا ، أو مشتركا ، أو مجملا ٠

أما النص والظاهر فيشتركان فى حصول الترجيح ٠ الا أن النص راجح مانع من الغير ٠

والظاهر راجح غير مانع من الغير ٠

فهذا القدر المشترك هو المسمى بالحكم ٠

وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان فى ان دلالة اللفظ عليه غير راجحه وان لم يكن راجحا لكنه غير مرجوح والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد ، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه ٠ لأن عدم الفهم حاصل فى القسمين جمعا ٠ وقد بينا أن ذلك يسمى متشابها ، اما لأن الذى لا يعلم يكون النفى فيه مشابها للاثبات فى الذهن ، واما لأجل أن الذى يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم ، فاطلق لفظ المتشابه على مالايعلم ، اطلاقا لاسم السبب على المسبب ٠

وهذا هو الكلام المحصل فى المحكم والمتشابه ٠

ثم اعلم أن اللفظ اذا كان بالنسبة الى المفهومين على السوية فههنا يتوقف الذهن ٠ مثل القرء بالنسبة الى الحيض والطهر ٠

انما المشكل بأن يكون اللفظ بأصل وضعه راجحا فى أحد المعنيين ومرجوحا فى الآخر ، ثم كان الراجح باطلا والمرجوح حقا ، ومثاله من القرآن قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) ٠

فظاهر هذا الكلام أنهم يؤمرون بأن يفسقوا ، ومحكمه قوله تعالى : « ان الله لا يأمر بالفحشاء » (٢) ردا على الكفار فيما حكى عنهم « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها (٣) » ٠

---

(١) الآية ١٦ من سورة البقرة ٠
(٢) الآية ٢٨ من سورة الأعراف ٠
(٣) الآية ٢٨ من سورة الأعراف ٠

وكذلك قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم (١) » وظاهر النسيان ما يكون ضد العلم ومرجوحه الترك ٠

والآية المحكمة فيه قوله تعالى : « وما كان ربك نسيا (٢) وقوله تعالى : « لايضل ربى ولاينسى » (٣) ٠

وهذا باب خلاف عظيم ذهب فيه أصحاب المذاهب كل يدعى رجحان قوله وضعف قول الآخر ٠

لكن الرازى أراد أن يحكم المسالة فوضع قانونا يرجع اليه فقال : اللفظ اذا كان محتملا لمعنيين وكان بالنسبة الى أحدهما راجحا وبالنسبة الى الآخر مرجوحا ، فان حملناه على الراجح ولم نحمله على المرجوح فهذا هو المحكم ٠

واما ان حملناه على المرجوح ولم نحمله على الراجح فهذا هو المتشابه وقسم ذلك ووضع له معايرا وشروطا ٠ فقال :

صرف اللفظ عن الراجح الى المرجوح لابد فيه من دليل منفصل ، وذلك الدليل المنفصل اما أن يكون لفظيا ، واما أن يكون عقليا ٠

أما القسم الأول فيتم اذا حصل بين الدليلين اللفظين تعارض واذا وقع التعارض بينهما فليس ترك ظاهر أحدهما رعاية لظاهر الآخر أولى من العكس ٠

اللهم الا أن يقال : ان أحدهما قاطع فى دلالته ، والآخر غير قاطع فحينئذ يحصل الرجحان ٠

---

(١) الآية ٦٧ من سورة التوبو ٠
(٢) الآية ٦٤ من سورة مريم ٠
(٣) الآية ٥٢ من سورة طه ٠

أو يقال كل واحد منهما وان كان راجحا الا أن أحدهما يكون ، رجح ، وحينئذ يحصل الرجحان ·

الا أنا نقول : أما الأول فباطل لأن الدلائل اللفظية لا تكون قاطعة البتة لأن كل دليل لفظى موقوف على نقل اللغـات ، ونقل وجـوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشتراك وعدم المجاز وعدم التخصيص وعدم الاضمار وعدم المعارض النقلى والعقلى وكل ذلك مظنون ، والموقوف على المظنون أولى أن يكون مظنونا · فثبت أن شيئا من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعا ·

أما الثانى: وهو أن يقال أحد الدليلين أقوى من الدليل الثانى وان كان أصل الاحتمالين قائما فيهما معا فهذا صحيح ، ولكن على هذا التقدير يصير صرف الدليل اللفظى عن ظاهره الى المعنى المرجوح ظنيا ومثل هذا لايجوز التعويل عليه فى المسائل الأصولية · بل يجوز التعويل عليه فى المسائل الفقهية ·

فثبت بما ذكرناه أن صرف اللفظ عن معنـاه الراجـح الى معناه المرجوح فى المسائل القطعية لا يجوز الا عند قيام الدليل القطعى العقلى على أن ما أشعر به ظاهر اللفظ محال ·

وقد علمنا فى الجملة أن اسـتعمال اللفظ فى معناه المرجوح جائز عند تعذر حمله على ظاهره فعند هذا يتعين التأويل · فظهر انه لاسبيل الى صرف اللفظ عن معناه الراجح الى معناه المرجوح الا بواسـطة اقامة الدلالة العقلية القاطعة على أن معناه الراجح محال عقلا · وبعد هذا كله بين الرازى أنه بعد اقامة الدلالة العقلية على ان حمل اللفظ على الظاهر محال لا يجوز الخوض فى تعين التأويل ·

وهذا يجعل الرازى من الفرق الذى يقف عند قوله تعالى : « وما يعلم تأويله الا الله » ·

الرازى وأقوال العلماء فى المحكم والمتشابه :

ذكر الرازى ما نقل ابن عباس فى حديثه عن الآيات المحكمات بأنهما الثلاث آيات التى فى سورة الأنعام (١) • والآيات المتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور •

وقال الرازى مفسرا ذلك ومحددا له •

التكاليف الواردة من الله تعالى تنقسم الى قسمين :

١ – مالا يجوز أن يتغير بشرع وشرع كالأمر بطاعة الله تعالى ، والبعد عن الظلم والكذب وغير ذلك •

٢ – ما يختلف بشرع وشرع كاعداد الصلوات ومقادير الزكوات ، وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك •

فالقسم الأول المسمى بالمحكم عند ابن عباس ، لأن الآيات الثلاث (٢) فى سورة الأنعام مشتملة على هذا القسم •

وأما المتشابه فهو الذى سماه الرازى بالمجمل فيما سبق •

ثم ذكر الرازى باقى الأقوال فى تعريف المحكم والمتشابه وناقشها وبين مافيها وردها الى ما تحدث به عن المحكم والمتشابه فيما سبق •

٦ – القاسمى وما تحدث به عن المحكم والمتشابه :

أما القاسمى (٣) فقد تحدث عن المحكم والمتشابه حديثا طويلا بين فيه كلا منهما وافيا شاملا ، ذكر من أقوال العلماء الكثير مما يوضح جوانب

---

(١) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام •

(٢) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الأنعام •

(٣) محمد جمال الدين القاسمى ١٢٨٣ – ١٣٣٢هـ انظر محاسن التأويل ، تصحيح محمد فؤاد عبد الباقى طبع الحلبى ٤/٧٥٢ وما بعدها

هذا الموضوع ويوفيه حقه ، مشــــيرا الى أن أبدع ما رآه فى ذلك مقالة شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية التى يقول فيها : المحــكم فى القرآن عادة يقابل بالمتشابه ، والجميع من آيات الله ، وتارة يقــابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان • ومن الناس من يجعله مقابلا لما نسخه الله مطلقا ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكما ، وان كان الله أنزله اتباعا للظاهر من قوله : « فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » • (١)

فهذه ثلاثة معان تقابل المحكم ينبغى التفطن لها : وجماع ذلك ••

١ ـ أن الاحكام تارة يكون فى التنزيل ، فيكون فى مقابلته ما يلقيه الشيطان • فالمحكم المنزل من عند الله ، أحكمه الله أى فصله من الاشتباه بغيره ، وفصل منه ما ليس منه ، فان الأحكام هو الفصل والتمييز والفرقة والتحديد الذى به يتحقق الشيء ويحصل اتقانه •

٢ ـ وتارة يكون فى ابقاء التنزيل عند مقابله بالنسخ الذى هو رفع ما شرع ، وهو اصطلاحى، أو يقال السلف كانوا يسمون كل رفع نسخا سواء كان رفع حكم ، أو رفع دلالة ظاهرة فكل ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق فهو منسوخ فى اصطلاح السلف •

وعلى هذا التقدير يصح أن يقال المتشابه هو المنسوخ •

٣ ـ وتارة يكون الاحكام فى التأويل والمعنى • وهو تميز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها • وفى مقابلة المحكمات ، الآيات المتشابهات التى تشبه هذا وتشبه هذا فتكون محتملة للمعنيين • ولم يقل الله سبحانه وتعالى فى المتشابه « لا يعلم تفسيره ومعناه الا الله » وانما قال سبحانه وتعالى : « وما يعلم تأويله الا الله » (٢) •

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة الحج •
(٢) من الآية ٧ من سورة آل عمران •

الفصل الثالث

أمور تبين الأقوال فى المحكم والمتشابه وما ذهب اليه العلماء فيهما

الأمر الأول : هو اختلاف المحكم والمتشابه فى ماهيتهما ٠

١ ـ فلقد نقل عن مجاهد (١) أن المحكم مالا يحتمل الا معنى واحدا والمتشابه ما احتمل أكثر من معنى ٠

والمحكم على هذا هو النص الجلى وغير هو المتشابه ٠

فالآيات المحكمات هى الآيات التى فيها حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف لما وضعها عليه والآيات المتشابهات هى الآيات التى لهن تصريف وتحريف وتأويل ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام لا يصرفن الى الباطل ولا يحرفن عن الحق ٠ (٢) ٠

٢ ـ ونقل عن بعض العلماء أن المحكم ما كان من آى القرآن الى معرفة سبيل ، وعرف تأويله وفهم معناه وتفسيره ٠

والمتشابه مالم يكن لاحد الى علمه ومعرفته والوقوف عليه سبيل ٠ مما استأثر لله سبحانه وتعالى بعلمه دون خلقه جميعا ومثال ذلك المتشابه وقت قيام الساعة ٠ وما ذكره الله سبحانه وتعالى فى قوله : « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير (٣) » وغير ذلك مما اختص الله به نفسه ٠

---

(١) مجاهد بن جبر المكى ت ١٠٤ انظر تفسير الطبرى ١٧٤/٣ ط ٢

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٧٤/٣ ، تفسير القرطبى ١١/٤ ٠

(٣) الآية ٣٤ من سورة لقمان ٠

٣ - ومن العلماء من قصر الآيات المتشابهة على آيات مخصوصه فقال بعض أصحاب هذا الرأى :

أ - الآيات المتشابهات هى الحروف المقطعة فى أوائل السور مثل قوله تعالى : « الم ، الر ، المص ، المر ، وغيرها ·

ب - وقال بعضهم : الآيات المتشابهات هى آيات الشقاوة والسعادة

جـ - وروى عن ابن مسعود ومعه بعض العلماء : أن الآيات المتشابهات هن الآيات المنسوخات المتروك العمل بهن · (١) ·

د - ومن العلماء من جعل الآيات المتشابهات آيات القصص والأمثال فى القرآن الكريم ، التى لم يفصل فيها خبر الأنبياء مع أممهم ، واشتبهت ألفاظها عند تكرارها · (٢)

هـ - ومن العلماء من قال ان الآيات المحكمات فى القرآن الكريم آيات مخصوصة ، هى آيات الحلال والحرام ، وما عدا هذه الآيات متشابه ، الى غير ذلك من الأقوال التى حكيت عن العلماء فى كتب التفسير وغيرها ، مما عرفوا به المحكم والمتشابه ، وما ذكروه من أمثلة لهما ، مستدلين به على اقوالهم ·

الأمر الثانى :

هناك نوع من المتشابه الواضح التشابه فيه ، والمانع من معرفته هو عدم الوقوف على ماالله سبحانه وتعالى من أسرار فى قدره السابق

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٣/١٧٢ ، ١٧٣ طبع عيسى البابى الحلبى وانظر تفسير القاسمى طبع عيسى البابى الحلبى ٤/٧٥٢ ما بعدها ·

(٢) أنظر تفسير القرآن الحكيم للامام محمد عبده : تأليف محمد رشيد رضا طبع بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ٣/١٦٥ وما بعدها ·

لعباده ، مع ما قد يبدو فى هذا القدر من الشر ، الله سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، وهو على ما يشاء قدير .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ، ما تحدث به الملائكة الكرام عليهم السلام ، لما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال انى أعلم مالا تعلمون » (١) .

ولقد ذكر الامام الغزالى (٢) : ان ذكر بعض الحقائق قد يكون مضرا ببعض الخلق كما يضر نور الشمس أبصار الخفافيش .

وذكر أيضا أنه ان خطر للانسان نوع من الشر لايرى فيه خيرا ، أو ان تحصيل ذلك الخير من غير شر أولى ، فانه لا شك أن عقل هذا الانسان الذى خطر له ذلك قاصر عن ادراك الحق ، وانه فى هذا مثل أم الصبى التى ترى فى الحجامه شرا محضا ، أو الغبى الذى يرى القصاص شرا محضا .. ولا يدرى أن التوصل بالشر الخاص الى الخير العام لا ينبغى الحكيم أن يهمله أو يغفل عنه (٣) .

الأمر الثالث :

من المتشابه أيضا الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ولقد حاول اليهود أن يحسبوا مدة بقاء الأمة الاسلامية بما لهذه الحروف من عدد عندهم ، فاكذب الله ما هدفوا اليه ، وأخبر أنه لا يعلم ذلك الا هو سبحانه

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) الامام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ انظر احياء علوم الدين « كتاب العلم » أقسام العلوم الباطنية .

(٣) انظر احياء علوم الدين للامام الغزالى : شرح أسماء الله الحسنى شرح الرحمن الرحيم .

وتعالى (١) ، وللعلماء فى ذلك آراء كثيرة ، ذكر القاسمى منها أكثر من عشرين حجة ، والحقيقة أن الأمر فى هذه الحروف متروك الى الله سبحانه وتعالى •

الأمر الرابـع :

هناك من المتشابه ماهو مجمل لا يظهر معنـــاه بعلم ولا ظن : وهذا التشابه سببه الاشتراك فى معناه ، أو غرابة هذا المتشـابه ، أو أن تفسيره غير صحيح فى اللغة أو الشرع ، أو لسـبب ما من الأسـباب الأخرى •

ولقد حدث هذا التشابه فى أحد أنواع هذا الاجمال لنبى الله نوح عليه السلام ، وذلك حين خاطب نوح ربه بقوله : رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » (٢) • فأعلمه الله سبحانه وتعالى أن هذا الابن ليس من أهله ، انما أهله من آمن به وبدعوته وصـدقه : « قال يانوح انه ليس من أهلك (٣) انه عمل غير صالح » •

وهذا من الاجمال الذى اشتبه على نوح عليه السـلام ، فما بال غيره من البشر ؟ •

بعد استعراض هذه الآراء أرى أن المحكم ، بصفة عامة هو ماعدا المتشابه •

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٤/٣ •
(٢) من الآية ٤٥ من سورة هود •
(٣) من الآية ٤٦ من سورة هود •

أى أن المحكم هو النص الجلى الظاهر الذى لم يعارض فى لفظـــه أو مفهومه شاملا للخاص والمقيد ، وان عارضهما العام والمطلق لأنهما مع هذه المعارضة ثابتين بالخصوص والتقييد .

اعتراضات حول الاحـــكام والتشـــابه

أعداء الاسلام وخصومه ، الذين حاولوا جاهدين النيل منه ، بكل ألوان الدس والتشكيك ، ونفث السموم ، وخلق الأباطيـــل ، حاولوا الكسب من وراء خلق تجارة لهم رائجة حول الاحكام والتشابه فى آيات القرآن الكريم حيث قالوا : انكم يامن اتبعتم القرآن وما فيه من تعاليم وربطتم ما كلف الله به خلقه من أوامر ونواهى وحق وعدل ، ربطتم ذلك وغيره بالقرآن الى قيام الساعة ، أفلا ترون القرآن يتمسك به كل أصحاب المذاهب كل حسب رأيه واعتقاده فى مذهبه .

فهؤلاء الذين قالوا بالجبر يتخذون دليلهم القوى ، وحجتهم الأكيدة من هذا القرآن ماثلة فى قوله تعالى : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقــرا » (١) حيث فسروا هذا بما يناســـب رأيهم وهؤلاء القدريون يقولون ، بل هذا مذهب الكفار ويســـتدلون لقولهم أن الله سبحانه وتعالى حكى هذا القول عن الكفار فى معرض ذمه لهم حين قال تعالى ، « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون (٢) » . وقوله تعالى فى موضع آخر حكاية لما قاله الكفار « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون (٣) » .

---

(١) من الآيتين : ٢٥ من سورة الأنعام ، ٤٦ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٨٨ من سورة البقرة .

ثم هؤلاء مثبتو الرؤية يتمسكون بقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » (١) ٠

ومانعو الرؤية يتمسكون بقول الله سبحانه وتعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » (٢) ؛

وأيضا مثبتو الجهة يرددون قول الله سبحانه وتعالى : « يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون » (٣) ، ويقولون : الرحمن على العرش استوى (٤) (استوى) فى تسع آيات من القرآن الكريم (٥) بما يفهمونه حسب رأيهم وما يقولون به فى اثبات الجهة ، وهؤلاء الذين ينزهون الله سبحانه وتعالى عن كل شبهه فيقولون « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (٦) ٠

كل واحد من أصحاب هذه المذاهب يطلق على الآيات التى توافق مذهبه بانها آيات محكمة وما خالف مذهبه من الآيات سماها آيات متشابه وقد يتبع صاحب مذهب من المذاهب فى تعليله وترجيحه الى آراء ضعيفة أو أدلة خفية لا يعرفها غيره ويحاول أن يقوى رأيه بما هو ضعيف فى نفسه ، ويلجأ الى ما لا حد له من التلاعب بالحجج واختلاف البراهين ٠

بل ان أصحاب الرأى الواحد قد ينشقوا الى فرق عدة لكل منهم دليله وحجته ، وقد يرجع عن رأيه ويبطله بدليل آخر من القرآن ٠

---

(١) الايتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة ٠

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام ٠

(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل ٠

(٤) الآية ٥ من سورة طه ٠

(٥) فى الآية ٢٩ من البقرة ، ٥٤ من الأعراف ، ٢ من يونس ، ٢ من الرعد ، ٥ من طه ، ٥٩ من الفرقان ، ٤ من السجدة ، ١١ من فصلت ، ٤ من سورة الحديد ٠

(٦) من الآية ١١ من سورة الشورى ٠

كيف يمكن ان يكون هذا الكتاب هو الذى يرجع اليه فى كل أمور الدين الى يوم تقوم الساعة وقد جاء به مثل كل هذه الآيات المتشابهات التى ذكرت ·

أليس من الأجدى والأنفع ان يكون خاليا من كل هذه الآيات المتشابهات حتى يرجع اليه صاحب كل غرض وحاجة فيجد غرضه واضحا وحاجته سهلة مقضية ، من غير لبس أو تشابه أو مشاكله ؟ (١) ·

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى بعض القرآن محكما وبعضه متشابها

لقد أجاب العلماء عن كل ما ذكره واعترض به صحاب القلوب المريضة فى مسالة الأحكام والتشابه ، بأجوبة كثيرة ، دافعوا بها عن الحق فانتصرت حقائق القرآن ، واندحرت أباطيل خصومه ·

ومما أجابوا به مما يثلج صدور المؤمنين ، ويوضح الهدف السامى الذى من أجله جعل الله سبحانه وتعالى بعض القرآن محكما وبعضه متشابها ما يأتى :

١ - الله سبحانه وتعالى أنزل بعض آيات كتابه الكريم متشابهة امتحانا لقلوب خلقه ومدى تصديقهم وايمانهم بكتابه والله سبحانه وتعالى لو جاء بكل ما فى كتابه الكريم معقولا لا شبهة فيه عند أحد من عباده ، أذكياء كانوا أو غير أذكياء ، لما كان فى الايمان بالله وكتابه شىء من معنى الخضوع له سبحانه ، والتسليم لرسله الأكرمين فيما جاؤا به ، بل ومن

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازى ص ٣٩٤ وما بعدها · طبع المطبعة الحسينية المصرية ، وكذا انظر تفسير القرآن الحكيم للامام محمد عبده ، طبع مطبعة المنار ٣/١٧٠ وما بعدها ، سنة ١٣٢٤ هـ ·

حاول من العباد الوصــول والبحث ، مع وجود المتشــابهات فانه لا شك سيقابل من الصعاب والمشقة الذهنية والعلمية ما يثاب عليه من الله سبحانه وتعالى ، والله يقول « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذينجاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (١) ، فاذا وصل الى غايته استحق الثواب ، وان لم يصل ، وسلم لله ما أراد استحق الجزاء ٠

٢ ـ الاسلام يدعو دائما الى البحث والتفكير والتدبر ، والله سبحانه وتعالى بجعله من آياته ما هو متشابه يدعو عقل المؤمن الى النظر ، ويجعل له حافزا على البحث ، حتى لا يضعف بالخمول والركود ، فيموت ويقضى عليه ، فتقديم السهل الواضح تجريد للعقل من وظيفته ٠ والدين والعقيدة أغلى وأعز شيء على الانسان ، فاذا كانا خاليين من مجالات البحث والنظر العقلى مات عقل المؤمن ، لأنهما أول ما يدعوه الى الحياة ٠ أو اذا لم يجد العقل مجالا للبحث فى الدين مات الدين ، واذا مات الدين فلا حياة للعقل. فمن رحمته تعالى أن جعل فى كتابه الكريم مجالا للبحث العقلى بما جاء فى الكتاب من الآيات المتشابهات،التى تدعو العقل الى البحث عنها،وتمييزها، وهذا يستلزم البحث فى كل الأدلة ـ كونية وغيرها ـ وكل البراهين ـ عقلية وغيرها ـ وطرق الوصول الى هذه البراهين حتى تنجلى للعقل هذه المتشــابهات ، وقد يكون فى هذا ترجيح لقــول من عطف قول الله تعالى « والراسخون فى العلم » على لفظ الجلالة فى قوله تعالى « وما يعلم تأويله الا الله » (٢) ٠

٣ ـ بعث الله سبحانه وتعالى الأنبياء الى جميع الأمم « وان من أمة

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران ٠

(٢) من الآية ٧ من سورة آل عمران ٠ انظر حديث الامام محمد عبده عن تفسيرها فى تفسير القرآن الحكيم ١٧٠/٣ وما بعدها ٠

الا خلا فيها نذير » (١) وسواء كانت بعثة النبي خاصة بأمة من الأمم أو زمن من الأزمان ، كالأنبياء السابقين عليهم السلام ، أو كانت بعثة النبي الى الناس كافة ، حتى تقوم الساعة ، كرسول الله ومصطفاه محمد — صلى الله عليه وسلم — الذى بعثه للعالمين ، بدعوة موجه الى العالم والجاهل ، والذكى والغبى ، السيد والمسود ، والغنى والفقير ، والرجل والمرأة ، وكان فى هذه الدعوة ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته ، وتشرح معناه ، بصورة نفهمها العامة والخاصة • ففى هذه الدعوة من المعانى العالية البعيدة ، والحكم الغالية الدقيقة ، ما يفهمه الخاصة بطريق أو بآخر ، كطريق الكناية أو التعريض •

وهذه المعانى يؤمر العامة بتفويض العلم فيها الى الله سبحانه وتعالى ، لأنها من المتشابهات الصعبة عليهم ، وهم انما يعرفون المحكم القريب المنال ، وبذا يكون لكل من العامة والخاصة نصيبه من معرفتها ، وما يترتب عليها ، كل بقدر طاقته واستعداده العقلى من هذا : اطلاق كلمة الله وروحا ، منه على عيسى عليه السلام « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه » (٢) •

فالخاصة يعرفون من هـذا ويفهمون مالا تعرفه العامة ولا تفهمه • لذا فتن النصارى بمثل هذا التعبير القرآنى ، ولم يقفوا عند حد المحكم من الآيات التى تنزه الله سبحانه وتعالى ، وتحكم باستحالة أن يكون له سبحانه وتعالى أم أو ولد « سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » (٣) •

والمحكم الصريح فى مسالة عيسى عليه السلام واضح فى قول الله تعـالى : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة فاطر •
(٢) من الآية ١٧١ من سورة النساء •
(٣) الآية ٤٣ من سورة الاسراء •

فيكون ، (١) وغير هذا من الآيات الدالة على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله ٠

الى غير ذلك من الأسباب ، التى من أجلها جعل الله سبحانه وتعالى من آيات الكتاب الكريم ما هو محكم وما هو متشابه ، لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى علام الغيوب ، والله أعلى وأعلم ٠

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران ٠

الباب الثالث

الإعجاز البلاغى

فى

القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة فصول :-

الفصل الأول : وفيه مقالة عن المعجزة الخالدة التى تحدى الله بها أرباب البلاغة والفصاحة .

الفصل الثانى : بين القرآن وكلام العرب .

الفصل الثالث : من الوان البلاغة القرآنية .

الفصل الاول

اعجاز القرآن

أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من ظلمات الكفر الى نور الايمان ، من عبادة الأحجار والأصنام والشرك والضلال الى عبادة الواحد القهار ، يخلصهم من مجتمع الظلم والقوة ، ووأد البنات ، وظلم الضعفاء والعبيد • يحقق لهم حياة كلها حب ورحمة ، ومساواة وعدالة • من همجية الجاهلية ، الى نظام السماء الربانى ، فى تعاملهم فى كل مجالات حياتهم ، اجتماعية أو اقتصادية ، دينية أو سياسية •

وهكذا بدأ الاسلام ينظم حياتهم ويحد من همجيتهم ، ويسمو بهم الى حيث الطهر والنقاء • دعاهم الى الصلاة ليرتفع بجباههم عن أن تسجد لغير الله ، وأمرهم بالزكاة فجعل فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم • ودعاهم الى الصوم وحثهم على الصدقة ، ونهاهم عن قتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، وحرم عليهم الخمر والميسر ، والميتة والدم ، أمرهم بالمعروف ، ونهاهم عن المنكر ، أحل لهم الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث • لكن طباعهم الخبيثة ، ونفوسهم التى شربت وارتوت من كؤوس الكفر والشرك والضلال ، وجدت فى دعوة الاسلام أعباء ثقيلة لم يعتادوها ، وطهارة تنفر منها الطبائع الدنيئة • فعابوا الاسلام ، وشهروا به ، فعاب الرسول صلى الله عليه وسلم آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وسخر من أصنامهم وعقائدهم ، فانطلقوا كالثور الهائج ، يدافعون بكل قوة وشراسة ، يشيعون الارهاب ، والظلم ، والاضطهاد ، بين صفوف المسلمين ، محاربين كل من أسلم ، فى ماله وحياته وعرضه •

وحاجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وظل يدعوهم ويستصرخ عقولهم علها تفيق ، فكذبوه وسخروا منه وآذوه وشهروا به •

وجاء القرآن الكريم ، يقدم الدليل على صدق محمد ، وصحة دعوته ، ويؤكد لهم أنه رسول من عند الله ، جاءهم بالهدى ودين الحق ، ليخرجهم من الظلمات الى النور ، باذن ربه ويهديهم صراطا مستقيما ، فلم يؤمنوا ولم يصدقوا ، فتحداهم القرآن الكريم ان كانوا فى ريب من أمر محمد ودعوته ، وما جاء به ، فليأتوا بدليل على صدقهم • ان كنتم فى ريب مما نزلناعلى عبدنا فأتوا بكتاب مثل ما جاء به وأنى لهم : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) ، وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم هذا التحدى لقومه جميعا ، قويهم وضعيفهم ، غنيهم وفقيرهم ، شاعرهم ، وجاهلهم ، فصيحهم وغبيهم ، حكيمهم ، وفاسقهم ، وعجز الجميع عن الاتيان بكتاب مثله • فبالغ القرآن فى تحديهم ورده عليهم : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فالم يستجيبوا لكم فاعلوا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون (٢) » • وعجز القوم أيضا عن الاتيان بعشر سور مثله ، فبالغ القرآن أكثر فى تحديه لهم ، وطالبهم بسورة واحدة • « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (٣) •

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطتم من دون الله ان كنتم صادقين ، بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف عاقبة الظالمين » (٤) هذا التحدى لقوم

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الاسراء •
(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة هود •
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة •
(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة يونس •

، بلغت شـــهرتهم الآفاق فى بلاغتهم وفصـــاحتهم وبيانهم ، فمنهم فطاحل الشعراء ، وكبار البلغاء ، وسادة الأدباء ، وأئمة الخطباء ، ولهم كما يقول الجاحظ » (١) (القصـــد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنثور »، « وكانوا يتنافسون على الفصاحة والذلاقة ، ويتحاجون بذلك ويتفاخرون بينهم (٢) ، ولقـد حكى القرآن الكريم عنهم تحاجهم معه فقال الله تعالى حكاية عنهم : « وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون » (٣) • وخاطب الله سـبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسـلم بقوله : « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (٤) •

واحتار القوم ، وأحسوا بما للقرآن من حلاوة لفظ وقوة معنى وتأثير بالغ لم يحسوه لغير القرآن من كلام منظوم أو منثور أو مسجوع ، كيف يكون ردهم والحال هذه ؟ تخبطوا واختلفوا على أنفسهم ، ونكروا وقدروا، وعاندوا وجحدوا ، ويحكى القرآن كفرهم وعنـادهم فيما كان من أحـد زعمائهم ، حين اجتمعوا للتشاور ، وسألوه رأيه فيما أنزل على محمد من آيات الكتاب المنير • « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا

---

(١) الجاحظ : أبى عمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ • انظر البيان والتبيين المطبعة التجارية الكبرى سنة ١٣٤٥ وانظر نظم القرآن •

(٢) الباقلانى : أبوبكر محمد بن الخطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بالباقلانى ، ولد بالبصرة ٣٣٨ هـ ثم رحل الى بغداد قاض من كبار علماء الكلام ، توفى ببغداد سنة ٤٠٣ هـ • الاعلام الطبعة الثانية ٤٦/٧ انظر اعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر ص ٢٦ •

(٣) الآية ٩٧ من سورة مريم •

(٤) الآية ٥٨ من سورة الزخرف •

الا قول البشر (١) » • وتارة أخرى يقولون بل هو شعر ومن جاء به شاعر ويحكى القرآن عنهم « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون (٢) » • ويقول القرآن « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٣) •

وهكذا تخبطوا فى مقالتهم تخبط العاجز المحنق ، الذى يخفى عن الناس عجزا لا يستطيع هذا القول أن يستره أو يخفيه « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين (٤) » • انه العجز الظاهر فلم لم يشاءوا القول ، والقرآن يدعوهم فى كل آونة الى القول (٥) •

وتارة أخرى يخفون عجزهم وراء وصفهم للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه مجنون لا يستحق منهم أن يعارضوه ، أو أن يسمعوا لكلامه ، أو يؤمنوا بما جاء به • ويحكى القرآن الكريم قولهم « وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون (٦) » ، « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (٧) » ، « ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » (٨) •

---

(١) الآيات من ١٩ ـ ٢٥ من سورة المدثر •
(٢) الآية ٥ من سورة الأنبياء •
(٣) الاية ٤٣ من سورة سبأ •
(٤) الآية ٣١ من سورة الأنفال •
(٥) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى مطبعة النهضة المصرية ص ٤٧ سنة ١٩٥٠ •
(٦) الآية ٦ من سورة الحجر •
(٧) الآية ٣٦ من سورة الصافات •
(٨) الآية ١٤ من سورة الدخان •

وكلما لجوا فى القول وضح ظهور عجزهم ، والقرآن الكريم فى كل وقت يقرع آذانهم ، ويذكرهم بأنهم أعجز من أن يعارضوه بكثير أو قليل بل ويتطاول القرآن عليهم ، ويسموا بما يذكره الله سبحانه وتعالى من تعظيم شأن آياته ، وحالها من جمال لفظى ومعنوى ، تخشع لها القلوب ، وتخضع لعظمته النفوس ، ويزداد المؤمنون بها ايمانا « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد (١) » ، « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم (٢) » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا (٣) » ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٤) .

وفى هذا كله مدعاة لأن يحاولوا مباراة القرآن والتغلب عليه ، أو الاتيان بمثله ، أو بمثل أقل سورة منه ، ليثبتوا أنه من عند محمد ، جاء به سحرا وكذبا ، وانهم قادرون على الاتيان بمثله . لكنهم عجزوا عن هذا كله ، ولم يفعلوا وأنى لهم . بل الأكثر من هذا أنهم أحسوا بما للقرآن من سلطان على قلوبهم ، ونفوسهم ، وخافوا من ذلك ، فحاولوا أن يبعدوا أنفسهم عن سماع القرآن ، ويمنعوا غيرهم من الذهاب الى مجلسه ، وكم [illegible] مواثيقهم على هذا « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (٥) ولا عجب فهذه عقولهم الضالة . فانها لا تعمى

---

(١) [illegible] ٢٣ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٨٧ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٨٢ من سورة الاسراء .
(٤) [illegible] ٢١ من سورة الحشر .
(٥) [illegible] ٢٦ من سورة فصلت .

الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (١) ٠ أليسوا هم الذين قالوا : « **اللهم ان كان هـذا هو الحق من عنـدك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذا أليم (٢)** » ٠ **وكان الأحرى بهم** لو كانوا يعقلون أن يقولوا : اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه وارزقنا اتباعه ٠

لكن الله أصمهم وأعمى أبصارهم فلجوا فى طغيانهم يعمهون وحاربوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحاولوا طمس دعوته « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (٣) ٠

وآذوا أصحابه وأذاقوهم ألوانا من العذاب ٠ وازدادوا حنقا وكفرا ، وشهروا سيوفهم ورماحهم ، وأعلنوها حربا على الرسول وأصحابه ودعوته، وهذا آخر ما للعاجز من حجة ٠ ودليل كامل دامغ على عجزهم عن الاتيان بالدليل ، والبينة والاتيان بمثل القرآن أو عشر سور مثله أو مثل أقل سورة منه ، ولو اجتمعوا ومعهم أهل السماوات وأهل الأرض « لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٤) ٠

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج ٠

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال ٠

(٣) الآية ٨ من سورة الصف ٠

(٤) من الآية ٨٨ من سورة الاسراء ٠

لما عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن

تحدث العلماء كثيرا عن اعجاز القرآن ، وبينوا أسباب عجز العرب عن تحدى القرآن والمجىء بمثله أو بمثل أقصر سورة من سوره او آية من آياته ٠

وهذا ما أجده يشفى الصدر ، ويحسم القول فى هذا الموضــوع ، بما ينــاسب عظمة القرآن واعجــاز آياته « قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون » (١) ، سمعته الجن ، فقالوا « انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » (٢)٠

١ ـ القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة . الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه (٣) ، ناعجازه الواضــح فيما فيه من بلاغة ، وقف أمامها أهل البلاغة والفصاحة مشدوهين ، عاجزين معترفين بفضله وقوته ، لم يحاولوا أن يشغلوا أنفسهم بمعارضته ، لاتضاح الحق لهم ، وعلمهم بالعجز عن بلوغ ما بلغ القرآن من بعيد مدى فى البلاغة والفصاحة لا يبارى ولايدانى ٠ وان كان القوم قد قالوا « لو نشاء لقلنا مثل هذا »(٤)، الا أن قولهم هذا هو دليل عجزهم ، فلم لم يقولوا والله قد تحداهم ، لمــاذا وقفوا عند مرحلة الوعد ولم يتجاوزوها الى الوفاء بوعدهم ، لماذا لم ينجزوا ما وعدوا ٠

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر ٠

(٢) من الآية ١ ، ٢ من سورة الجن ٠

(٣) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٥١ تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ٠

(٤) من الآية ٣١ من سورة الأنفال ٠

انه الفشل الذريع والعجز المحدق بهم ، وهذا دليله فما لهم لا يؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذبون ، والله أعلم بما يوعون » (١) ، « والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » (٢) ٠

٢ ـ تضمن القرآن الكريم أخبارا عن الغيب ، ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لقومه وجاءت كما ذكرها لهم ٠ من هذا قول الله سبحانه وتعالى « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٣) وكان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما كلما غزا الجيش الاسلامى بلدا من البلاد ، ذكر كل منهما الجنود بماوعدهم الله سبحانه وتعالى من اظهار دينه ، وعلو كلمته، وحقق الله سبحانه للمسلمين ما وعدهم به ، حتى وصل الاسلام الى ما وصل اليه من البلاد المختلفة التى أظلتها راية لا اله الا الله محمد رسول الله ، ومما تحدث القرآن عنه من الغيوب أيضا قول الله سبحانه وتعالى : « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٤) وتم وعد الله سبحانه وتعالى وغلبت الروم كما أخبر سبحانه ٠

ولقد تحدث القرآن الكريم أيضا حديثا حققه الله سبحانه وتعالى لنبيه « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعلوا من

---

(١) الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ من سورة الانشقاق ٠
(٢) الآيات ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج ٠
(٣) الآية ٣٣ من سورة التوبة ٠
(٤) الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة الروم ٠

دون ذلك فتحا قريبا » (١) ، وأتم الله ما وعد ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جند الله البيت الحرام آمنين منتصرين • ويحطم الرسول أصنام قريش ويهتف معه جند الحق « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (٢) •

٣ ـ الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ فى بنى سعد ، يرعى الغنم ، لم يذهب الى معلم يعلمه . كان أميا لا يقرأ ولا يكتب « وما كنت تتلوا من قبله من كتـاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (٣) •

ولم يعرف شيئا من أقاصيص السابقين وأخبارهم ، ومع هذا كله جاء بأخبار من سبقوه ، وما حدث لهم من أنبياء وملوك ، أمم وجبابرة ،وفراعنة وقياصرة وأكاسرة ، من يوم خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام الى يوم يرث الله الأرض ومن عليهـا ، ويبعث الله الخـلق ، وتحـدث الأرض أخبارها ويرى كل انسان عمله •

وهذه الاقاصيص والأخبار لا سبيل الى معرفتها الا بالتعلم والمدارسة، ولما كان من الثابت الواضح انه عليه الصلاة والسلام لم يذهب الى معلم يعلمه ، ولم يقرأ ذلك فى كتاب من الكتب • كان من الثابت أنه لم يصل اليه علم ذلك كله الا عن طريق الوحى من الله سبحانه وتعالى ، وهذا هو الثابت الذى تحدث القرآن عنه « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين » (٤) ، « وكلا

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الفتح •
(٢) من الآية ٨١ من سورة الاسراء •
(٣) الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت •
(٤) الآية ٤٩ من سورة هود •

نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) ٠

وان كان هذا يصلح دليلا على النبوة الا أنه يصلح أيضا للدلالة على اعجاز القرآن الكريم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم سمح للعرب أن يأتوا بالأقاصيص فما يأتوا به من مثل القرآن ، ولم يتحداهم الرسول بالأساليب اللفظية فحسب ، ولكن تحداهم أيضا بما فى القرآن من معان وخواطر ، فلو أنهم جاءوا بمعانى وخواطر كاذبة أو خاطئة ما صح أن تكون سورا مثل سور القرآن الكريم ، ولا آيات مثل آياته ، لأن ما جاءوا به كاذب خاطىء (٢) ٠

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود ٠
(٢) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى طبع النهضة المصرية سنة ١٩٥٠ ص ٥١ وانظر تفسير القرطبى ص ٦٤ ط الشعب ٠

بيان فى القول بان القرآن معجز بالصرفه

ذهب البعض الى أن وجه اعجاز القرآن الكرم هو المنع من معارضته والصرفة عند التحـدى بمثله ، وان المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن ، وذلك أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة من مثله •

وهذا الرأى فاسد ، لأن اجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز فلو قلنا : ان المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزا ، وذلك خلاف الاجماع ، واذا كان كذلك ، علم أن نفس القرآن هو المعجز ، لفصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ، اذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه ، فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفا معتادا منهم ، دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزا •

واختلف من قال بهذه الصرفة على قولين :

احدهما : انهم صرفوا عن القدرة عليه ، ولو تعرضوا له لعجزوا عنه •

الثانى : أنهم صرفوا عن التعرض له مع كونه فى مقدورهم ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه (١) •

قال ابن عطية (٢) : وجه التحدى فى القرآن انما هو بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، ووجه اعجازه : ان الله تعالى قد أحاط بكل

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٦٦/١ ط الشعب •

(٢) ابن عطية • عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى من محارب قيس الغرناطى أبو محمد ، مفسر فقيه أندلسى عارف بالأحكام والحديث توفى بلورقة ٤٨١ – ٥٤٢ هـ له المحرز الوجيز انظر الاعلام ٥٣/٤ الطبعة الثانية •

شيء علما ، وأحاط بالكلام كله علما ، فعلم باحاطته أى لفظه تصلح لأن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره،والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن محيطا قط ، فبهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا النظر يبطل قول من قال : ان العرب كان فى قدرتها أن تأتى بمثل القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم صرفوا عن ذلك ، وعجزوا عنه ، والصحيح أن الاتيان بمثل القرآن لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ويظهر لك قصــور البشر فى أن الفصــيح منهم ، ليضع خطبه أو قصيدة يفرغ فيها جهده ، ثم لا يزال بعد ذلك فيها مواضع للنظر والبدل ، وكتاب الله تعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد (١) •

وليس ذلك فقط ولكن أيضا هناك ما يدفع القول بالصرفة ويوضح بطلانه • ويبين زيف القول به •

(أ) لو لم يكن القرآن الكريم معجزا لما فيه من ألوان البلاغة وفنون البيــان ، لكان اذا نزل فى درجة البلاغة وانحط فى مرتبة الفصــاحة ، أبلغ فى الأعجوبة اذا صرفوا عن الاتيان بمثله ، ولما عنى أن يكون على هذا النظام العجيب وان يظفر من الفصاحة بأوفى نصيب •

(ب) لو كان العرب قد صرفوا عن معارضته • لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه لأنهم لم يتحدوا به ، فكان من الجائز أن نعثر فى كلام العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن ، وذلك ما لم نجده فى تاريخ أدبهم •

(جـ) لو كانت المعارضة ممكنة ، ولكنهم منعوا منها بالصرفة لم يكن الكلام معجزا وانما يكون المعجز هو المنع ، فلا يتضمن الكلام فى نفســه

---

(١) انظر تفسير القرطبى ١/٦٦ ط الشعب •

فضيلة على غيره ، فيصبح فى مكنة العظماء والبلغاء – بعد زمن التحدى – أن يأتوا بمثله ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ، فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا به ، واهتدى العلماء الى تبيين أسباب الجمال فى القول ، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد ، أو يقارب هذا الأفق المتسامى ، وكلما اهتدوا الى سر من أسرار الفصاحة ازدادوا ايمانا بالضعف والعجز أمام كتاب الله ٠

(د) لو كان عجز العرب عن المعارضة بالصرفة ، لما استعظموا بلاغة القرآن وتعجبوا من حسن فصاحته ، كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة حيث قال « ان أعلاه لمورق ، وان أسفله لمغدق ، وان له لطلاوة ، وان عليه لحلاوة » (١) بل كان الجدير بهم أن يتعجبوا من تعذر ذلك عليهم بعد أن كانوا قادرين (٢) ٠

مما تقدم يظهر فساد القول بالصرفة ويتأكد بلا ريب ، القول باعجاز القرآن الكريم ، الذى جاء ببديع النظم وعجيب التأليف ، مما جعله متناهيا فى البلاغة الى الحد الذى عجز الخلق عن الاتيان بمثله ٠ وضح أنه لابيان أبين ، ولا حكمة أبلغ ، ولا منطق أعلى ، ولا كلام أشرف – من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوما فى زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة ، وقيل الشعر والفصاحة ، والسجع والكهانة ، على خطيب منهم وبليغ ، وشاعر

---

(١) انظر الطراز تأليف يحيى بن حمزة العلوى ص ٣٩٤ مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩١٤ ٠

(٢) انظر اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر طبع دار المعارف ص ٤٢ وما بعدها ، وانظر نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز [illegible] بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ ٠

وانظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى ص ٥١ ط نهضة مصر ١٩٥٠ ٠

منهم وفصيح ، وكل ذى سجع وكهانة ، فسفه أحلامهم وقصر بعقولهم وتبرأ من دينهم ودعا جميعهم الى اتباعه والقبول منه والتصديق به والاقرار بأنه رسول اليهم من ربهم ، وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته ، وحجته على حقيقة نبوته ـ ما أتاهم به من البيـان والحـكمة والفرقان ، بلسان مثل ألسنتهم ، ومنطق موافق فى معانيه معانى منطقهم ، ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزه ، ومن القدرة عليه نقصه ، فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق ، وشهدوا على أنفسهم بالنقص ، الا من تجاهل منهم وتعامى ، واستكبر وتعاشى ، فحاول تكلف ما قد علم أنه عنه عاجز ، ورام ماقد تيقن أنه عليه غير قادر نأبدى من ضعف عقله ما كان مستترا،ومن عمى لسانه ما كان مصونا فاتى بما لا يعجز عنه الضعيف الأخرق ، والجاهل الأحمق فقال : « والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، فالخابزات خبزا والثاردات ثردا واللاقمات لقما » (١) ونحو ذلك من الحماقات المشبهة دعواه الكاذبة (٢) ٠

من هذا يتضح مدى سمو بيان القرآن الكريم ، وارتفاع اعجازه عن أن يدانى ، وكيف وهو كلام الله أحكم الحكماء ، وأحلم الحلماء ،وأبين البيان بيانه وأفضل الكلام كلامه ، وان قدر فضل بيانه جل ذكره على بيان جميع خلقه كفضله على جميع عباده ٠

---

(١) من هذيان مسيلمة الكذاب لعنه الله ٠ انظر تاريخ الطبرى ٣/٢٤٥
(٢) انظر تفسير الطبرى تحقيق محمود محمد شاكر طبع دار المعارف ١/١٠ ٠

الفصل الثانى

موازنة بين صور من بلاغة القرآن الكريم وكلام العرب

١ ـ ان الباحث المدقق يرى مدى ما للقرآن الكريم من بلاغة فى اعجازه اذ ما وازنه بكلام العرب، نثرهم وأشعارهم• فالقرآن خارج عما عهد من نظام جميع كلامهم ، له أسلوبه الذى يختص به ويتميز عن أساليب العرب جميعها ، لأن طرق الكلام البديع عند العرب ، أما حديث بأعاريضه وأوزانه وقوافيه • وهذا هو الشعر ، أو حديث موزون غير مقفى مسجوع او غير مسجوع ، أو مرسل ، هدفه الافادة دون مراعاة نظم أو سجع ، لكنه على وجه بديع وترتيب لطيف • والقرآن الكريم خارج عن كل هذه الوجوه ومباين لتلك الأساليب • ليس من قبيل الشعر ، ولا هو من سجع الكهان ، وان كان فيه من السجع لكنه سجع له منهجه الخاص الذى لا يشاركه فيه سواه (١) •

وهذا مثال لبعض الآيات التى جاءت الفواصل فيها متوازنه كتوازن السجع ونظامه • يقول الله سبحانه وتعالى : « والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع انه لقول فصل وما هو بالهزل ، انهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا ، فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » (٢) ، ويقول سبحانه وتعالى « والنجم اذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده ماأوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى (٣) •• » ويقول سبحانه

---

(١) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى ص ٢٤٨ •
(٢) الآيات من ١١ ـ ١٧ من سورة الطارق •
(٣) الآيات من ١ ـ ١٢ من سورة النجم •

وتعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، انما توعدون لصادق وان الدين لواقع (١) » • وان ما يرى من هذا النظم المتوازن كتوازن السجع قد اختلف العلماء فيه ، من ناحية الطلاق لفظ السجع عليه ، أو عدم اطلاقه • فمنهم من قال : لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أســـاليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك الاعجاز ، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز وكيف ؟ والسجع مما كانت كهان العرب تألفه ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تخالف النبوات ، وليس كذلك الشعراء (٢) •

وهذا القول للباقلانى لا يدخل فى دائرة الاقناع فالتسوية بين السجع والشعر غير مقبولة • والله سبحانه وتعالى حين نزه النبى صلى الله عليه وسلم عن أن يقول شعرا ، لم يكن ذلك راجع الى الشعر فى حد ذاته ، من حيث هو أوزان وقوافى ، وانما كان راجعا لما يتضمنه الشعر من الخيال الكاذب ، والمبالغة فى الوصف حتى انا نجد القرآن الكريم قد حدد أوصاف الشعراء المذمومة ، وقصرها فى هذين الوصفين اللذين وصف بهما من تنزل الشياطين عليه من الشعراء ، يقول الله ســبحانه وتعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » (٣) •

ولهذه الأسباب كان الشعر المشــتمل عليها شعرا مذموما ، وقائله كاذب • أما اذا كان الشعر بعيدا عن هذه الأوصاف ، كان شعرا محمودا •

---

(١) الآيات من ١ ـ ٦ من سورة الذاريات •
(٢) انظر اعجاز القرآن للباقلانى •
(٣) الآيات من ٢٢١ ـ ٢٢٦ من سورة الشعراء •

ولقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم شاعر يدافع عن الاسلام بشعره ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمره بأن يقول الشعر يرد به على هؤلاء الأفاكين الكاذبين . ثم أيضا لقد عرفت العرب النثر المسجوع من غير هؤلاء الكهان الكاذبين (١) ، بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) روى الخطيب وابن عساكر عن حسان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له : اهج المشركين وجبرائيل معك اذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان .

وفى حديث جابر عند ابن جرير أنه قال يوم الأحزاب « من يحمى أعراض المؤمنين » قال كعب أنا يارسول الله فقال « انك لحسن الشعر » فقال حسان بن ثابت أنا يارسول الله قال : « نعم اهجهم أنت فسيعينك روح القدس » . وذكر الأستاذ رشيد رضا أن الأستاذ الامام فى هامش النسخة الأصلية لدلائل الاعجاز للجرجانى ، كتب بازاء اسم كعب : « لعله كعب بن مالك ، لأن ابن زهير وان مدح لكنه لم يؤذن بالشعر للمناضلة عن الاسلام، فقد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع » ويؤيد قول الأستاذ ما رواه ابن جرير عن ابن سيرين وملخصه أن المهاجرين رغبوا الى النبى صلى الله عليه وسلم أن يأمر عليا بهجاء الرهط الذى هجوه . وهم عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث ، فقال : ليس على هناك ، وعرض بالأنصار فانتدب لذلك حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه . وفيه أنه استنشد كعب وهو راكب ناقته نأنشد الأبيات التى أولها :

قضينا من تهامه كل ريث   وخيبر ثم أجمحنا السيوفا
لخيرهــا ولو نطقت لقالت   قواطعهن دوســا أو ثقيفا

قال : فأنشد الكلمة كلها . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لهى اشد عليهم من رشق النبل » قال ابن سيرين : نبئت أن

قد سمع خطبة قس بن ساعده ، وهو يرددها على جمله الأورق فى سوق عكاظ • ولقد نالت هذه الخطبة وما تحمله من معانى وأسجاع وأوزان _ اعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم _ فكان يذكرها ويثنى عليها • ومن هذا يرى أنه اذا جاء فى القرآن الكريم سجع أو مزاوجه أو أى لون من ألوان هذا النظم العربى ، فلا يضر القرآن الكريم هذا ولا ينقص من علو بلاغته أو يخل بمكان اعجازه • فالقرآن عربى جاء فى صورة كلام العرب لكنه فى صورة عجزوا عن الاتيان بمثلها • وكان بين الصورة البلاغية للقرآن وبين أكمل صورة وصل العرب اليها فى نظمهم كفضل الله سبحانه وتعالى على باقى عبـاده • هل يستويان مثلا (١) ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢) : ولقد قال الخفاجى (٣) فى كتابه سر الفصاحة : والتحرير أن الاسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفواصل • فان قيل : اذا كان عندكم أن السجع محمود فهلا ورد القرآن كله مسجوعا ؟ وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعا وبعضه غير مسجوع ؟ قلنا : ان القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى عرفهم وعادتهم وكان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعا ، لما فيه من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع ، لا سـيما فيما يطول من الكلام _ فلم يرد كله مسـجوعا ، جريا على عرفهم فى الطبقه العالية من كلامهم

=

دوسا انما أسـلمت بكلمة كعب هذه • انظر دلائل الاعجاز للجرجانى أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى المتوفى سـنة ٤٧١ هـ تصحيح الامام محمد عبده • علق عليه محمد رشيد رضا طبعة مطبعة المنار ص ١٤ وما بعدها •

(١) من الآية ٢٤ من سورة هود •

(٢) من الآية ٧٥ من سورة النحل •

(٣) الخفاجى • أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سـنان الخفاجى العالم الشاعر الأديب كان ميلاده سنة ٤٢٢ هـ وتوفى سـنة ٤٦٦ هـ • انظر سر الفصاحة شرح الأستاذ عبد المتعال الصعيدى ص ١٦٤ وما بعدها • طبعة محمد على صبيح سنة ١٩٦٩ م •

ولم يخل - القرآن - من السجع • لأنه يحسن فى بعض الكلام على الصفة السابقة ، وعليها ورد فى فصيح كلامهم ، فلم يجز أن يكون (١) عاليا فى الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها فهذا هو السبب فى ورود بعضه كذلك وبعضه بخلافة (٢) •

وذكر شـهاب الدين الخفاجى ما قاله أبو حيان من انكار أن يكون فى القرآن ســجع ، ورد عليه وبين عدم صحة ما ذهب اليه أبو حيان والباقلانى وغيرهما ، ممن ذهب الى أن القرآن ليس فيه ســجع •، فقال الشهاب : أطال أبو حيان بلا طائل لتوهمه أن السجع كالشعر - لالتزام تقفيته ، ينافى جزالة المعنى وبلاغته لاستتباعه للحشو المخل وأن الاعجاز بمخالفته لأساليب الكلام • فشنع على هؤلاء الأعلام وليس بشىء والعجب منه أنه ذكر كلام الباقلانى مع التصريح بأن من السلف من ذهب اليه • والحق أنه فى القرآن من غير التزام له فى الأكثر وكان من نفاه نفى التزامه أو أكثريته ، ومن اثبته أراد وروده فيه فى الجمل فاحفظه ولا تلتفت لما سواه • ثم ذكر الشهاب أن العلماء من باب الأدب مع القرآن تطلق على معانى القرآن من الوان السجع اسم الفواصل دون السجع (٣) •

واذا نظرنا هذه النظرة ، وجدنا أنها مخالفة فى التســمية فقط ، وان كان الرمانى قد غاير بين الفواصل والسجع وجعل كلا منهما قائما بذاته ورأى أن الفواصل بلاغه ، والاسجاع عيب •• وعرف الفواصل بأنها حروف متشاكلة فى المقاطع ، توجب حسن افهام المعانى • وعلل رأيه فى انكار أن

---

(١) الضمير يعود الى القرآن •

(٢) أنظر البرهانى فى علوم القرآن للزركشى ص ٥٧ •

(٣) انظر حاشية الشهاب المسماه بعناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى للشـــيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضى القضاة الملقب بشهاب الدين الخفاجى المصرى الحنفى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ • ١/٢٣٠ •

يكون فى القرآن سجع ، وانما الذى فيه فواصل بقوله : وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الاسجاع فالمعانى تابعة لهـا ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، اذا كان الغرض الذى هو حكمه انما هو الابانة عن المعانى التى الحاجة اليها ماسة ، فاذا كانت المشاكلة وصلة اليه فهو بلاغة ، واذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب • ولكنه لا تكلف ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة (١) •

لكن الحقيقة غير ما قاله الرمانى فى تفرقته هـذه بين السـجع والفواصل • وهذه الحقيقة هى ما أكدها أبو هلال العسكرى بقوله : « وكذلك جميع مافى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج ، مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ ، وتضمن الطلاوة والماء – لما يجرى مجراه من كلام الخلق • ألا ترى الى قوله عز اسمه : « والعاديات ضبحا فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » – قد بان عن جميع أقسامهم الجارية هـذا المجرى – مثل قول الكاهن « والسمـاء والأرض ، والقرض والفرض ، والغمر والبرض » (٢) وهذا هو السجع المذموم لما جاء فيه من تكلف وتعسف ، وهـذا ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم حين سمع رجلا يقول : « أندى (٣) من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، فمثل ذلك يطل (٤) فلما سمع ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر النكت فى اعجاز القرآن – ضمن مجموعة ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن – للرمانى أحد رؤساء المعتزلة ولد سـنة ٢٩٦ هـ وتوفى سنة ٣٨٦ هـ • على بن عيسى بن على بن عبد الله الرمانى مفسر من كبار النحاة أصله من سـامراء ومولده ووفاته ببغداد • انظر أيضا الموافقات للشاطبى ٣/٢٤٩ وما بعدها •

(٢) الغمر الماء الغامر • أى الغزير ، والبرض : الماء الضحل القليل •

(٣) من الدية وهى الغرم الذى يقدم لأهل المقتول • وكان هذا الرجل قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن حكم جنين قتل فى بطن أمه •

(٤) أى مثل هذا الطفل الذى مات فى بطن أمه لادية له • وهذا قول الرجل •

- قال للرجل واسجعا كسجع الكهان ؟ » لأن الكهان كانت تتكلف وتتعسف في سجعهم • ولو أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يكره السجع بصفة عامة لما أعقبه بقوله كسجع الكهان • وهذا يدل أن المذموم من السجع ما كان على صفة سجع الكهان •

ثم يقول العسكرى : « وكيف يذمه ويكرهه ؟ اذا سلم - أى السجع - من التكلف ، وبرىء من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه ، وقد جرى عليه كثير من كلامه صلى الله عليه وسلم (١) » •

ونخلص من هذا كله الى أن القرآن الكريم جاء فيه كثير من السجع ، ولكنه من السجع المحمود الذى اضاف له القرآن رنينا وحسنا وبلاغة ولطفا فارتفع السجع وأصبح يزهو بذلك على كلام العربى جميعه شعره ونثره استمع الى قول الله سبحانه وتعالى : « والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، ان عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع يوم تمور السماء مورا • وتسير الجبال سيرا (٢) » • وقول الله سبحانه وتعالى : « طه • ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى » ، تجد فى هذا كله الاعجاز الواضح وجميل السجع وبديع الوزن والنظم «قرآنا عربيا» غير ذى عوج لعلهم يتقون (٣) •

٢ - يقول الله سبحانه وتعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم

---

(١) انظر الصناعتين لأبى هلال العسكرى : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، طبعة محمد على صبيح الطبعة الثانية ، الباب الثامن ص ٢٤٩ •

(٢) الآيات من ١ - ١٠ من سورة الطور •

(٣) الآية ٢٨ من سورة الزمر •

وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد (١) » ، ويقول سبحانه وتعالى « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢) » • وصدق الله العظيم فى قرآنه الذى جاء به عظيم البلاغة على طول آياته وسوره ، بديع الأحكام على تعدد مواضعه وألوانه ، على خلاف كلام الخلق جميعهم الذى اذا امتد أو طال مهما كان للمتحدث من طول الباع فى الفصاحة أو الغبار الذى لا يشق فى البلاغة ، فان حديثه لا شك متفاوت واضح الاختلاف ، من مكان الى مكان ، ومن موضوع الى موضوع ، بل فى الموضوع الواحد نفسه عند اعادة سرده وبيانه نرى اختلاف العبارة فى القوة والجزالة والتناسب • والناقد الحاذق يرى مافى كلام العرب حكماء وشعراء ، نثرا أو شعرا ، من تفاوت واختلاف، ويكشف عن جوانب التقصير والوهن فيه قصر ما يقول الحكيم أو الشاعر أو طال » •

لكن القرآن الكريم على كثرة آياته وامتداد ســوره وتعدد أحكامه وعباراته وتكرار قصصه وحكاياته ، واختلاف مكان نزوله ومناسباته ، اذا دقق الحاذق فيه وأمعن النظر عاد اليه بصره وهو مبهور من آلاء ما رأى وأنوار ما شاهد • من الأحكام العظيم ، والبلاغة العالية . والتناسب البديع والتلاحم الرائع ، ليس للتفاوت فيه مجـال ، ولا يقترب منه التقصـــير بأى حال من الأحوال مهما اختلف الموضوع من اعذار الى انذار أو وعد الى وعيد أو من تبشير الى تخويف أو من حلال الى تحريم ، أو من حث على كريم الشيم ورفيع الأخلاق الى ذم لمرزول الأفعال وبغيض الصفات ، ومن سير مأثورة وحكايات منثورة •

بينما نجد كلام البليغ المبدع والشــاعر الحاذق والخطيب المصقع يختلف باختلاف الأمور السابقة ، فمن الشـعراء من يجيد فى المدح دون

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر •

(٢) الآية ٨٢ من سورة النساء •

الهجو ، ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التـأبين ، ومنهم من يتقن القول فى التأبين دون التقريظ ومنهم من يعزب فى وصف الابل أو الخيل أو سـير الليل • أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو حديث الخمر أو الغزل الى غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله الكلام (١) •

وهكذا اذا تأملت شعر الشـاعر البليغ المعدود من الفحول رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها ، فيأتى بالغاية فى البراعة ، فى معنى من المعانى ، فاذا جـاء الى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره وقوله • ومن الأدباء من يجود فى الكلام الموزون فاذا جاءه المرسل قصر وعجز ، فاذا تأملنا نظم القرآن ، وجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى ذكرناها على حد واحد ، فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، واذا تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب ، من الآيات القصيرة والطويلة ، رأينا الاعجاز فى جميعها على حد واحد ، لا يختلف ولا يتفاوت •

فاذا نظرنا الى حال حديث الناس وبيانهم فى القصة الواحدة عند اعادتها وتكرار ذكرها ، ظهر لنا التفاوت واضحا والتباين • جليا ، والقرآن الكريم فيما جاء به من القصص فى مواضع مختلفة من سوره ، أسلوبه من القوة والجزالة لا يتفاوت ولا يختلف ولا يهن ولا يضعف ، بل هو نهاية البلاغة وغاية البراعة وحسن النظم وجمال الوقف وابداع الوصف واحكام الأسلوب ، وكأنه السماء التى أظلت كل قول للعرب فبدا تحتها ضعيفا ومن نور اعجازها غدا بصره حسيرا • وتحير العرب ماذا يقولون عنه وهو

---

(١) انظر اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر ص ٣٦ •

بهذه المنزلة ، لم يسعفهم القول بوصفه وانما حل بهم العجب من حكمه ورصفه فقالوا متعجبين « ما هذا الذى تجدد بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبه ، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقدر ، وقيد الخواطر والفكر • حتى خرست الشقاشق (١) ، وعدم نطق الناطق ، حتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد امكان ، ولم يتقدم لأحد منهم زند ، ولم يمض له حد ، وحتى أسأل عليهم الوادى عجزا ، وأخذ منافذ القول عليهم أخذا » (٢) •

٣ ـ يقول الله سبحانه وتعالى : « ولكم فى القصاص حياة (٣) » هذا الجزء من الآية الكريمة يتحدث عن معنى عظيم ، وتشريع حكيم ، بأسلوب بارع ، شامل لتأكيد والحسم ، قاطع لكل شك قد يساور القلب • جاء فى عبارة وجيزة لطيفة خفيفة ، فيها دعوة للحياة المطمئنة وما فيها من ألوان بهيجة ، تدعو الى الحرص عليها والتمسك بها « ولكم فى القصاص حياة » ، هذه أربع كلمات وستة عشر حرفا تتضمن على ما ينيف على ألف ألف مسألة ، قد تصدى لبيانها علماء الشريعة وفقهاء الاسلام فى مصنفاتهم حتى بلغوا الوفا من المجلدات ، ولم يبلغوا بعد كنهها وغايتها (٤)

---

(١) الشقاشق جمع شقشقه بكسر الشين وهى لهاة البعير أو شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج • ويقال للفصيح : هدرت شقاشقه • يريد الانطلاق فى القول وقوة البيان ويقال فى مقابل ذلك خرست الشقاشق •

(٢) انظر دلائل الاعجاز للجرجانى تصحيح الامام محمد عبده ، تعليق السيد محمد رشيد رضا • طبعة مطبعة المنار ص ٦ وما بعدها •

(٣) الآية ١٧٩ من سورة البقرة •

(٤) انظر بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد على النجار طبعة المجلس الأعلى للشئون الاسلامية سنة ١٣٨٣ هـ ٦٩/١ •

وقد كان لأدباء العرب من افتخارهم باللفظ الذى يدل على ما تدل عليه من معنى ، وصلوا اليه بعد ما قطعت أنفاسهم حتى وصلوا اليه وقالوا : القتل أنفى للقتل . والموازنة بين القولين من النواحى المختلفة تظهر مدى اعجاز القرآن وأحكامه لفظا ومعنى . فمن ناحية عددا لحروف القصاص حياة أقل حروفا من القتل أنفى للقتل . ومن ناحية تأكيدا ما تحكيه الآية فالتأكيد فيها أبلغ تأكيد ، ثم فوق هذا كله الآية الكريمة تدعو الى الحياة وترغب فيها . ولا تذكر القتل الذى قد يكون فى كل أحواله - ماعدا القصاص - ذاتحة وبال وفناء وشقاء وهلاك ، وانما الآية تدعو نقط الى قتل من قتل وانطبق عليه حكمها ، يقتل قصاصا ، للحفاظ على حياة المجتمع وأمنه وسلامته . وقول العرب القتل . فيه قتل مطلق غير مقيد بقصاص أو غيره ، والفرق بينهما من هذه الناحية واضح جلى . ثم الآية الكريمة فيها القصاص وهو بأنواعه وأحكامه ضمان للمجتمع ضد الانحلال والفوضى وشيوع الجريمة فيه ، وتحقيق مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات . « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » (١) وهذا وغيره مفقود فى قول العرب القتل أنفى للقتل : وقول القرآن الكريم القصاص حياة هو البلاغة بعينها والايجاز بنفسه الذى دل بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى (٢) . وهذا من ألوان بلاغة القرآن التى اشتمل عليها ، من الاختصار فى العبارة أحيانا ، فيعجز الخلق جميعا عن الاتيان بمثله . ويبسط العبارة أحيانا أخرى ، فيقف البلغاء مشدوهين عاجزين عن مسايرته ، فى ايجازه المحكم ، وبسطه المعجز . وكذا ما فى القرآن الكريم من جمع وتفريق ، واستعارة وتصريح ، وتجوز وتحقيق ، وغير ذلك مما جاء فى كلام

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) انظر دلائل الاعجاز للجرجانى فى تصحيح الامام محمد عبده تعليق السيد رشيد رضا طبعة المنار ص ٣٣٥ .

العرب » وبلغوا فيه الذروة ، فاذا ما قورن بالقرآن الكريم، وما جاء به ، ترى الفرق واضحا ، واعجاز القرآن المطلق الذى تجاوز حدود كلام العرب في فصاحته وابداع بلاغته ظاهر جلى (١) ٠

٤ – الكلام البليغ هو ما جاء وفقا لما تقتضيه الحال ، سواء بالنسبة للزمان أو المكان ، أو لحال المخاطب نفسـية وعقلية ووجدانيـة ، وكذا بالنسبة لحال المتكلم ، سواء أكان معلما ، أو مشرعا ، أو مؤدبا الى غير ذلك مما تقتضيه الأحوال الكثيرة التى لا حصر لها ، والقرآن الكريم أعلا ما يكون مراعاة لمقتضى حال المخاطبين جميعهم ، ولقد عرف عنه هذا المعنى ، وبلوغه فيه درجة الكمال ، لما لهذا المعنى خطره ووقعه ٠ وهذا هو الامام الشاطبى (٢) يوضح هذه الحقيقة ، وهو يتحدث عن بيان أسباب نزول القرآن ، ومعرفتها فيقول : « ان علم المعانى والبيان ، الذى يعرف به أسباب اعجاز نظم القرآن ... فضلا عن معرفة مقاصـد العرب – انما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب، أو الجميع ، اذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسـب حالين ، وبحسـب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير ، وتوبيخ ، وغير ذلك ، وكأمر يدخله معنى الاباحة ، والتهديد ، والتعجيز وأشـباهها ، ولا يدل على معناها المراد الا الأمور الخارجية ، وعمدتهـا مقتضيات الأحوال (٣) ٠٠ هكذا نرى أن الامام الشاطبى قد أوضح ما لمقتضى الحال من خطره فى فهم الكلام والحكم على اجادة المتكلم ٠

---

(١) انظر اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق السيد أحمد صقر طبعة دار المعارف ص [illegible] الى ص ٦٦ وما بعدها ٠

(٢) الشـاطبى ٠ ابراهيـم بن موسى بن محمد من لخم ، أصولى حافظ من أهل غرناطة ، من أئمة المالكية توفى سنة ٧٩٠ هـ ٠

(٣) انظر الموافقات للشاطبى ٣/٢٤٧ ٠

وهذا ابن خلدون (١) يتحدث عن علم البيان وثماره فيقول : « واعلم أن ثمرة هذا الفن ـ أى علم البيان ـ انما هى فهم الاعجاز من القرآن ·· لأن اعجازه فى وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال ، منطوقه ، ومفهومه ، وهما أعلا مراتب الكلام مع الكمال ، فيما يختص بالألفاظ فى انتقائها وجودة وصفها ، وتركيبها ، وهذا هو الاعجاز الذى تقصر الافهام عن دركه (٢) » وابن خلدون يقول : ان اعجاز القرآن الكريم جاء من وفاء دلالته لجميع مقتضيات الأحوال فى منطوقه ومفهومه ، فالقرآن الكريم وقد جاء بهذه المعانى ، التى وضع بها أحكام الشريعة ، وقررها وبينها للخلق ، وألزمهم بها · ورد على الملحدين والمعاندين والمعارضين ، وحاجهم بما بين سفه قولهم ، وضعف عقولهم · قد انتظمت هذه المعانى كلها فى أسلوب بديع ، وألفاظ متوافقة ، مناسبة لأحوال كل البشر ، فى لطف وبراعة ودقة ووضوح ، لأن هذه المعانى التى جاء بها القرآن لم تكن متداولة بينهم ، ولم تجر على ألسنتهم ، وتخير الألفاظ لما هو متداول من المعانى ، والمألوف بين الناس ، أقرب وأسهل من تخير الألفاظ لما هو مبتكر وجديد ، فان اللفظ البارع ، فى المعنى البارع ، ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المكرر المتداول ، والأمر المقدر والمتصور ، أضف الى هذا التصرف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييدا وتأكيدا ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه والاعتراف به ، وهذا من أحكام القرآن واعجازه فألفاظه وفق معانيه ، ومعانيه قدر ألفاظه ، لذا براعته أظهر ، وفصاحته

---

(١) ابن خلدون : ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد ابن الحسين بن محمد بن جابر بن خلدون الحضرمى الاشبيلى · اصله من اشبيليه ومولده ومنشأه بتونس سنة ٧٣٢ هـ كان يتقاضى المالكية بمصر وظل بالقاهرة الى أن توفى بها سنة ٨٠٨ هـ ·

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون طبعة المطبعة البهية المصرية ص ٤٧ ·

أتم (١) ، وهكذا نرى الكلمة القرآنية قد ألمت بجميع حقائق النفس الانسانية ، واحتوت جميع أسرارها ، فكانها روحها ، ومفتاح أسرارها ، تضعها جلية واضحة لكل من يعقل ويدرك ويتدبر ويفكر ، وهذا هو القرآن الكريم ينهى عن عادة بشعة وخصلة مرزولة ، فقد كان بعض الجاهلين يقتلون أولادهم بسبب فقر أرهقهم أو فاقة يهابون أن تحل بهم ، ولما جاء القرآن الكريم وضع حدا وعلاجا وحكما ينهى به عن أن ترتكب هذه العادة القبيحة البشعة ، وقد جاء نهى القرآن الكريم فى سورتين من سوره ، ولو نظرنا لوجدنا العجب العجاب ، يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الأنعام : «ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم» (٢) ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الاسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم » (٣) ٠

ففى هذين الموضعين وجه الله سبحانه وتعالى حكمه الصارم بالنهى عن قتل الأولاد ، وهذا النهى وجه الى الوالدين ٠ ثم فى الآية الأولى قدم ضمير المخاطبين ، وآخر ضمير الغائبين وجاء عكس هذا فى الآية الثانية ٠

وأما سبب القتل الذى بينته الآيتان فمختلف ، فهو فى الآية الأولى الاملاق الذى وقع بهم فعلا ، لكنه فى الآية الثانية « خشية الاملاق » الذى لم يحل بهم بعد ولكنهم يخشونه ٠ فهذان سببان مختلفان ، وحالان متغايران ٠

والقرآن الكريم يعالج كلا من الحالين بما يقتضيه ويناسبه ، ويدفع سبب جريمته فيجتثه من أعماقه ٠ فيقول للفقراء لا تقتلوا أولادكم من

---

(١) انظر اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر طبعة دار المعارف ص ٤٢ ٠

(٢) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام ٠

(٣) من الآية ٣١ من سورة الاسراء ٠

املاق نحن نرزقكم • وهذا ضمان من الله لهم بأنه سيزيل عنهم فقرهم ، ويهيأتيهم رزقهم أولا ثم رزق أبنائهم ، لأنه وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين (١) •

وهؤلاء الذين هم فى بحبوحة من العيش لكنهم يخشون الفقر والحاجة بسبب أولادهم ، يقول القرآن لهم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق يصيبكم بسببهم نحن نرزقهم حينما يأتون للحياة ، ونزيد رزقهم على رزقكم ، وقدلا يكون الرزق لكم موسعا الا بسبب هؤلاء الأبناء • وصدق رسول الله « وهل تنصرون الا بضعفائكم » وهكذا اعجاز القرآن العالى فى بلاغته وبيانه ، ولو قيس هذا الاعجاز الربانى بما كان للعرب من قول وشعر لظهر ووضح الفرق البين ، كما هو ظاهر بين السماء والأرض ، وبين الثريا والثرى •

٥ ـ القرآن الكريم له من الروعة والجلال والبهاء والجمال ما تحدد واضحا ، وتحسه جليا دون مشقة أو تعب ، ومن ذلك ، صنيعه بالقلوب ، وتأثيره فى النفوس ، فانك لا تسمع كلاما غير القرآن ـ منظوما أو منثورا ـ اذا قرع السمع [illegible] له القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن [illegible] والمهابة فى أخرى ـ ما يخلص من القرآن اليه • تستبشر به النفو[illegible] ، وتنشرح له الصدور ، حتى اذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، وقد [illegible] الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود و[illegible] له القلوب •• يحول بين النفس وبين مضمراتها ، وعقائدها الرا[illegible] فيها ، فكم من عدو للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ [illegible]ن رجال [illegible] وفتاكها ، اقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، [illegible] آيات من القرآن ،

---

(١) الآية ٦ من سورة هود •

فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم ان يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا الى مسالمته ، ويدخلوا فى دينه » (١) .

وأيضا لو أن خطيبا بليغا ، أو كاتبا بارعا ، جاء بكلمة من القرآن أو آية منه بين كلامه ، لوجدت ما لهذه الكلمة أو الآية من رجحان فصاحة وجميل تعبير ، وكأنها البدر بين النجوم ، نوره يزيدها لمعانا، وبريقه يضفى عليها جمالا ، وهذا ما حكاه الباقلانى (٢) اذ قال « ... والكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فتأخذها الاسماع ، وتتشوق اليها النفوس ، ويرى وجه رونقها باديا غامرا سائر ما تقترن به كالدرة التى ترى فى سلك من خرز ، وكالياقوتة فى واسطة العقد ، وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير وهى غرة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه ، بتميزه وتخصصه ، برونقه وجماله ، فى جنسه ومائه » .

ويذكر الباقلانى دليلا على مدى ما للقرآن من روعة ، ولكلماته من سطوة ، وحسن وقع وجميل معنى ، فيدعو الى تأمل قول الله سبحانه وتعالى : « فالق الاصباح ، وجعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

انظر الى هذه الكلمات الأربع - أى مقاطع الآية - فالق الاصباح - وجعل الليل سكنا - والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز

---

(١) انظر رسالة الخطابى فى الاعجاز ، ضمن ثلاث رسائل فى الاعجاز ص ٦٤ .

(٢) القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . انظر اعجاز القرآن . تحقيق السيد أحمد صقر طبعة دار المعارف ص ٤٢ وما بعدها .

العليم - التي ألف بينها ، واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره ·· اليس كل كلمة منها في نفسها غرة ، وبمفردها درة ، وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى في بهجة القدرة ، ويتحلى بخالصة القوة ، ويجمع السلاسة الى الرصانة ، والسلامة الى المتانة ، والرونق الصافي ، والبهاء الضافي - ·· ولست أقول : شمل الأطباق المليح ، والايجاز اللطيف ، والتعديل ، والتمثيل ، والتقريب والتشكيل ، وان كان قد جمع ذلك وأكثر منه · لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها ، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة ، أو وجه قصيدة أو فقره ، فاذا ألفت ازدادت حسنا ، وزادتك اذا تأملت معرفة وايمانا » (١) ·

وهكذا نجد أن القرآن الكريم كل لفظة فيه تستقل بالاشتمال على نهاية البديع ، فاذا كانت الآية القرآنية قد انتظمت من قول بديع ، وتألفت من أبلغ كلمات وأعلى معان فكيف لا تفوت حد المعهود ، ولا تحرز شأو المألوف ؟ وكيف لا تحرز قصب السبق ، ولا تتعالى على كلام الخلق ، اذا ما قورنت به · أو وزن بها ؟

٦ - القرآن الكريم رفيع الذوق في تعبيره وبيانه ، يترفع عن ذكر الفاحشة والقبح بلفظ فاحش قبيح ، يعبر عن المعنى الذي تنفر منه الأذواق السليمة بعبارة مهذبة رفيعه · أنظر قول الله سبحانه وتعالى حكاية لما قاله لوط لقومه في أكثر من موضع ، « انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » (٢) · هذا الفعل القبيح لقوم لوط الذي تنفر منه الأذواق السليمة ، وتلعن مرتكبه الأرض والسماء عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله « تأتون » وهو تعبير راق مهذب بديع ·

---

(١) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ · انظر اعجاز القرآن تحقيق السيد أحمد صقر طبعة دار المعارف ص ٥٦ ·
(٢) الآية ٨١ من سورة الأعراف ·

وقوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا » (١) تعبير هو الذوق كله لو كتب فيه مهما كتب لم يوفه حقه • ومثل هذا كثير نجده القرآن الكريم قد صاغه بالفاظ تبعد عن اللفظ الوحشى المستكره ، والغريب ، المستنكر . تتلقاه الأســماع فلا تنفر منه ، وتســمعه الأذن فلا تمجه ، ولا تتحرج المجتمعات ذات الذوق الرفيع من أن يذكر فيها بين رجالها ونسائها ، بين الأبناء والآباء ، فى كل الأوقات والأماكن •

وان كان القرآن الكريم قد عبر عن هذه المعانى بألفاظ بديعه مهذبه ، نجده أيضا قد عبر عن معان أخر • بالفاظ يحتار الساسة والدبلماسيون أن يجدوا مثلها ، أو أن يصلوا اليها مع ما درسوا وتعلموا • انظر مثلا الى ما حكاه الله سبانه وتعالى من قصة نبى الله ســليمان حين جاءته ملكة سبأ ومثلت امامه ، وطلب ممن معه أن يحضروا لها عرشها وقال « نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ، قالت كأنه هو » (٢) • انظر الى هذا التعبير الدبلماسى البديع • كأنه هو •• الملكة لا تستطيع أن تقول نعم مع أنها تجد عرشها بكل ما فيه أمامها ، لأنها بعيدة عن مكان ملكها فكيف يكون عرشها أمامها — ثم هى لا تستطيع أن تقول لا • لأن عرشها بكل محتوياته ودقائقه ماثل امامها — انظر كيف عبر القرآن • كأنه هو • تعبير دقيق دبلماسى رائع • لو سئل أحبار الدبلماسية فى العالم ، وربان الساسة فيه • لما استطاعوا أن يأتوا بلفظ يؤدى هـــذا المعنى الدقيق أو يدانى تعبير القرآن الكريم فى روعته ودقته واختصاره وحرصه وشموله واعجازه •

الى غير ذلك من تعبيرات القرآن العالية السامية ، التى يبادر معناها لفظها الى القلب ، ويسابق مغزاها عبارتها الى النفس ، وهى مع ذلك ممتنعة المطلب ، عسيرة المتناول ، غير مطمعة مع قربها فى نفسها ، ولا موهمة مع دنوها فى موقعها أن يقدر عليها أو يظفر بها •

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب •

(٢) الآيتين ٤١ ، ٤٢ من سورة النمل •

٧ ـ القرآن الكريم أكثر الفاظه هي الألفاظ التي يستعملها العرب في أحاديثهم وأشعارهم وآدابهم ، ليست بالغربية عليهم ، ولا هي بالتي يسمعونها • لأول مرة ، واعجاز القرآن الكريم لا يتأتى من هذه الناحية ، وانما القرآن الكريم استعمل الفاظهم ، وكلماتهم التي يستعملونها حيث نطقوا وتكلموا ، وأخبروا عن الأغراض والمقاصد ، وراموا أن يعلموا مافي نفوسهم ، ويكشفوا عن ضمائر قلوبهم ، لكن القرآن الكريم استعمل هذه الألفاظ اســتعمالا أعجز العرب بمزاياه ، التي ظهرت لهـم في نظمه ، وخصائصه التي صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادىء آية ومقاطعها ، ومجاري الفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصـــورة كل عظه ، وتنبيه واعلام ، وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آية • فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، او احرى أو أخلق ، بل وجدوا اتســاقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور ، ونظاما والتئاما ، اتقانا واحكاما • لم يدع في نفس بليغ منهم ــ ولو حك بيافوخه السماء ــ موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول • وخلدت القروم (١) فلم تملك أن تصول (٢) •

ولو أخذنا مثالا واحدا من القرآن الكريم ، لوجدت حقيقة ما ذكرنا واضحة صادقة ، يقول الله سـبحانه وتعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » (٣) •

---

(١) خلدت أي أقامت في أماكنها كأخلدت • والقروم الفحول وهي حقيقة في الابل ومجاز في الناس •

(٢) انظر دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجاني تعليق الامام محمد عبده • تصحيح محمد رشيد رضا طبعة المنار ص ٣٢ •

(٣) الآية ٤٤ من سورة هود •

لو نظرت الى هذه الآية الكريمة ، لتجلى لك منها الاعجاز ، واستولى عليك وبهرك الذى ترى وتسمع، انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة ، الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وان لم يعرض لهـا الحسـن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثـانية والثالثة بالرابعة وهكذا الى أن تستقر بها الى آخرها ، وأن الفضل تنافج من ما بينها وحصل من مجموعها ٠

فلو أخذت كلمة بمفردها مثل كلمة « ابلعى » دون أن تنظر الى ماقبلها والى ما بعدها ، لم تجد لها من الفصاحة والبلاغة ، ما تجده لها وهى مع باقى كلمات الآية الكريمة ، ثم أيضا ما هو معروف من أن مبدأ العظمة فى هذه الآية الكريمة هو فى أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم فى أن كان النداء بيا دون أى ، نحو يا أيتها الأرض ٠ ثم اضـافة الماء الى الكاف دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء ٠ فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض الا بأمر آمر ، وقدرة قادر ، ثم تأكيـد ذلك وتقريره بقوله تعالى : « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور هو « واستوت على الجودى » ، ثم اضمار السـفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشـأن ، ثم مقابلة قيل فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة ، أفترى لشىء من هـذه الخصائص التى تملؤك بالاعجاز روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها ، تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى فى النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الألفاظ من الاتساق العجيب (١) ؟ ٠

---

(١) أنظر دلائل الاعجاز للجرجانى تعلىق الامام محمد عبده ، تصحيح محمد رشيد رضا طبعة المنار ص ٣٦ وما بعدها ٠

من هذا يظهر واضحا مدى ما للقرآن الكريم من اعجاز ورفعة على كل ما قاله العرب وتقوله الى يوم الدين • وليس هذا من باب الحماس الدينى، وانما نتيجة لما تقدم الحديث عنه من القرآن الكريم ومقارنته بما للعرب فى مجاله من قول وحديث ، وهذا بابه ومجاله واسع رحيب ، يحتاج الى دراسة مستقلة نفيض فيه وتعرض لكل زواياه وجوانبه ، وتقرع الحجة بالحجة ، وتقيس القول العربى بالآية القرآنية حتى يتضح اعجاز القرآن وبلاغته ، وسموه رفعته ، عن كل ما قالته وتقوله العرب ، وهذا ما عرفته العرب للقرآن الكريم « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (١) •

(١) من الآية ٨٢ من سورة النساء •

الفصل الثالث

من الوان بلاغة القرآن الكريم

١ ـ وصف الله سبحانه وتعالى آيات القرآن بأنها آيات محكمات : وهو الوصف الحق ، الذى يشمل كل الأوصاف البلاغية العالية ، بل ويزيد عليها ، فالقرآن مصدر البلاغة ، وهى نتاجه وبعض ثماره •

ولقد أحكم الله سبحانه وتعالى بناء الآية القرآنية ، ونسق تكوينها ، فلا تجد فيها كلمة زائدة فى مكانها ، تضيق بها الآية ، أو تشوه بها العبارة، أو يثقل بها المعنى ، أو يضطرب بها اللفظ ، بل لا تجد آية يمكن أن تستغنى عن احدى كلماتها الا انتقض معناها ومؤادها ، وكذا لو زادت فى أى آية كلمة ، الا انفرط عقدها ، وخرجت عن احكامها • وهذا احساس نفسى وعقلى ، يحسه البليغ ، ويدركه المتدبر ، وكأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق لآداء معانى القرآن الكريم غير الفاظه ، كل معنى وله لفظه الدال عليه ، وآيته التى تؤديه هى بنفسها ليس غيرها ، ولو حاولت الاتيان بغير ألفاظه للدلالة على معانيه لوجدت اللغة قد ضاقت ، فلن تجد فيها وهى بحر خضم ما تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم لهذا الآداء ، وبنصه وترتيبه ، وليس هذا قول تجد به العاطفة ولكنه الحق الثابت لا فى زمن دون زمن ، ولكن على مر أيام الدنيا • وهذا الاعجاز القرآنى قد كان له الأثر العظيم فى ايمان أرباب الفصاحة والبلاغة العربية• فلقد روى عن الطفيل أبى عمرو الدويسى قال: قدمت مكة ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بها ، فمشى اليه رجال من قريش ـ وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا ـ فقالوا له : يا طفل انك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل (١) بنا ، وقد فرق جماعتنا وشتت

---

(١) أعضل بنا : أى أعيتنا الحيل فى أمره • ومنه أمر عضال وداء عضال •

أمرنا ، وانما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين أخيه وبين زوجه ، وانما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ، ولا تسمع منه شيئا !! قال : والله مازالوا بى حتى أجمعت الا أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه ، حتى أننى جعلت فى اذنى – حين غدوت الى المسجد – كرسفا (١) فرقا من أن يبلغنى شىء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه . قال : فغدوت الى المسجد ، فاذا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائم يصلى عند الكعبة ، فقمت منه قريبا ، فأبى الله الا أن يسمعنى بعض قوله : فسمعت كلاما حسنا .. فقلت فى نفسى : وثكل أمى ! والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح .. فما يمنعنى من أن اسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فان كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وان كان قبيحا تركته ؟ فمكثت حتى انصرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الى بيته ، فاتبعته ، حتى دخلت عليه ، فقلت : يا محمد ان قومك قالوا لى كذا وكذا . فوالله مابرحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله الا أن يسمعنى قولك فسمعت قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .. قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلام وتلا على القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه .. فأسلمت وشهدت شهادة الحق » (٢) .

وهذا قول صدر من شاعر لبيب وأديب بليغ كان على غير الاسلام فلما سمع القرآن وأحس بما فيه أقر بالحق ، وشهد بأن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٣) . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٤) . لكنهم وجدوه رصين البناء محكم العبارة قوى التماسك بالغ الاعجاز .

---

(١) الكرسف : القطن .

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٤١ .

(٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٤) من الآية ٨٢ من سورة النساء .

٢ ـ اذا كان للكلمة بمفردها فى القرآن الكريم وقعها البليغ ومؤداها المحكم ونسقها المتوازن ، فان للكلمة مع ما قبلها وما بعدها ارتباط وثيق ، وأحكام بليغ ، وتناسق ، عظيم بديع ، وكذا اذا نظرت الى الآية مع سابقتها ولاحقتها ، تجد أن جملتها مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ، يملك لب القارىء أو السامع ، تسلمه الجملة الى التى تليها ، والآية الى التى تليها فى رحلة ربانية لا يحس فيها بازعاج ، ولا يلمس فيها عراقيل أو فجوات ، وانما تعطى الآيات عقله الجرعة تلو الجرعة ، فيرتوى ، ويزيده الرى نهما الى السماع ويزيده السماع علما ومعرفة ، حتى يصل الى المعرفة والعلم الذى يهبه الله سبحانه وتعالى لأحبته وأصفيائه ٠

أنظر مثلا قول الله سبحانه وتعالى « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (١) ٠

ترى أن الآيات الكريمة قد تلاحم نسجها ، وارتبط بناء بعضها ببعض ، تسلم الجملة الى أختها فى التئام واتساق ، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال ، ووصفته الجملة الثانية بأنه لا يعلق به الريب ، لا فى أخباره ، ولا فى نسبته الى الله ، وفى الجملة التالية جعله هاديا لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه ، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينفعون بالقرآن ، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها ، ويقومون بواجبهم ٠ الى آخر ما تدل عليه هذه الآيات ٠ وهو مثال واضح لما بين جمل القرآن وآياته وسوره من ترابط قوى ووحدة متكاملة ، وهذا ما أشار اليه الدكتور دراز فى حديثه عن سورة البقرة وبما بدئت به حيث قال : بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة لا عهد

---

(١) الآيات من ٢ ـ ٥ من سورة البقرة ٠

للعرب بتصدير مثلها فى الانشاء وهى « الم » ومهما يكن من أمر المعنى الذى قصد اليه بهذه الأحرف ، والسر الذى وضعت هنا من أجله ، فان تقديمها بين يدى الخطاب من غرابة نظمها ووقعها ، من شأنه أن يوقظ الاسماع لما يلى هذا الأسلوب الغريب ٠

ثم جاء بعد هذه الأحرف الثلاثة ، جمل ثلاث : أما أولاها ، فاعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن هو خير كتاب أخرج للناس وأنه ليس فى الوجود ما يصلح أن يسمى كتابا بالقياس اليه (ذلك الكتاب) ٠

وأما الاخريان فيدعمان هذا الحكم بالحجة والبرهان ، أليس تفاضل الكتب انما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل (لا ريب فيه) ثم اكمل الكمال بعد هذا أن يكون ذلك الحق مما تمس اليه حاجة الناس ، فى انارة السبيل واقامة الدليل (هدى للمتقين) ٠

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث بعد تلك الأحرف الثلاثة ، موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه اليه فهذا تنويه وأى تنويه بشأن الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهذا هو الهدف العام للسورة الكريمة (١) ٠

وهكذا نجد الرابط الوثيق بين القرآن الكريم وآياته وسوره ، ترابطا بديعا ، معجزا لكل من عرف العربية وتذوقها ، ونال حظا وافرا من معارفها البلاغية القرآنية ، لأن بها يرسخ الايمان فى القلب ، ويتمكن من الله ، ولأنها تكشف طريقين للاعجاز القرآنى من ناحية نظمه البلاغى ٠

أحدهما : نظم كل جملة على حيالها بحسب التراكيب ٠

الثانى : نظم كل جملة مع أختها بالنظر الى الترتيب ٠

---

(١) انظر النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٩ م مطبعة السعادة ص ١٦٠ ٠

والأول : أقرب تناولا وأسهل ذوقا ، فان كل من سمع القرآن من ذكى وغبى يهتز لمعانيه ، ويحصل له عند سماعه روعة ، ونشـاط ة ورهبة مع انبساط لا يحصل عند سماع غيره ، وكلما دقق النظر فى المعنى عظم عنده موقع الاعجاز ، ثم اذا عبر الفطن مع ذلك الى تأمل وربط كل جملة بما تلته وما تلاها • فقد يخفى عليه وجه ذلك ، ويرى أن الجمل متباعدة الأغراض متنائية المقاصد فيحصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان يصل له بالسماع من الهزة والبسط ، وبما شككه ذلك • وزازل ايمانه • وزحزح ايقائه ، فاذا استعان بالله ، وأدام الطرق لبـاب الفرج بامعـان التأمل ، واظهار العجز ، والوثوق بأنه فى الذروة من احكام الربط كما كان فى الأوج من حسن المعنى واللفظ ، لكونه كلام من جل عن شوائب النقص ، وحاز صـفات الكمـال ، ايمانا بالغيب وتصـديقا بالرب ، قائلا ما قال الراسخون فى العلم « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » (١) فانفتح له ذلك الباب ، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار ، رقص الفكر منه طربا ، وسكر والله استغرابا وعجبا ، وطاش لعظمة ذلك جنـانه ، فرسخ من غير ريبة ايمانـه ، ورأى أن المقصود بالترتيب ، معان جليلة الوصف ، بديعة الرصف ، علية الأمر ، عظيمة القدر ، مباعدة لمعانى الكلام ، على أنها منها أخذت ، فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله ، وغطـاه وجلاه ، وبينه غاية البيان وأخفاه (٢) •

واذا كانت هذه هى نظرة الامام البقاعى الى انتظام كل كلمة مع أختها حتى يكتمل بناء الجملة ، وكذا انتظام كل جملة مع أختها حتى يكتمل بناء الآية ، فان الامام البقاعي وغيره قد ذهبوا الى أكثر من ارتباط جمل القرآن

---

(١) الآية ٨ من سورة آل عمران •

(٢) انظر نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور المعروف بتفسـير الامام الوبقاعى المتوفى سنة ٨٨٠ هـ مخطوط بمكتبة الأزهر تحت رقم ٥٩٠ تفسير ج ١ ص ٥ •

مع بعضها ، ورأوا مدى ترابط آى القرآن الكريم وسوره ، ووحدة ما تهدف اليه السورة القرآنية بأكملها . وهو روعة الاعجاز القرآني وسمو درجته البلاغية . انظر الى السورة التى تتناول أكثر من موضوع واحد وما أكثرها فى القرآن وتنقل بفكرك معها مرحلة مرحلة ثم انظر كيف بدأت؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ كيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ؟ ووطأ أولاها لأخراها ؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة فى نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة دفعة واحدة حتى يحدث التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما ، أو لتقولن أنها ان كانت بعد تنزيلهـا قد جمعت عن تفريق ، فلقد كانت فى تنزيلهـا مفرقة عن جمع ، أجل انك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة ، فتحسبها لأول وهلة انها أنواع من المعانى جمعت عفوا ، فاذا هى - لو تدبرت - بنية متماسكة ، قد بنيت من المقاصد الكلية على أسـاس وأصول ، وأقيم كل اصل منها شـعب ، وفصول ، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول .

فلا تزال تنتقل بين أجزائها ، كمـا تنتقل بين حجرات وافنية فى بنيان واحد ، قد وضع رسمه مرة واحدة لا تحس بشىء من تناكر الأوضاع فى التقسيم والتنسيق ، ولا بشىء من الانفصال فى الخروج من طريق الى طريق ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمـام الألفة ، كمـا ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام ، كل ذلك بغير تكلف ، ولا استعانة بأمر خارج المعانى أنفسها ، وانما هو حسن السياق ولطف التمهيد فى مطلع كل غرض ومقطعه ، واثنائه ، يريك المنفصـــل متصـــلا والمختلف مؤتلفا (١) .

---

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى من كتاب النبأ العظيم للدكتور دراز طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٦٩ م .

ولقد قال الدكتور أحمد كمال المهدى معلقا على ماقاله الدكتور دراز(١)

والواقع أن ما ذكره ـ الدكتور دراز ـ من تشبيه وتنظير انما قصد به تقريب المعنى الى الأذهان ٠ وقد ثبت أن ادرك من ثنايا كلامه أنه يقصد التلاحم الجزئى بين الآية والآية ، على منوال ما يذكره بعض المفسرين من المناسبات الجزئية بين الآيات المتجاورة ، لأن قوله « بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما نرى بين آحاد الجنس الواحد تمام التضام والالتحام » يشعر بأن الدكتور دراز يقصد المناسبات الجزئية بين الآيتين ، ولكنه سرعان ما يصرح بما يدل على اقتناعه بفكرة وحدة الهدف فى السورة حيث يقول : « من وراء ذلك كله يسرى فى السورة اتجاه معين وتؤدى بمجموعها غرضا خاصا (١) ٠

وانى لأخالف الدكتور أحمد كمال المهدى فى محاولة فصله التلاحم الجزئى بين الآيات المتجاورة وبين الاتجاه العام للسورة ووحدة هدفها ٠ لأن التلاحم الجزئى بين كلمات الجملة وبين الآيات هو بداية لوحدة الهدف المتكاملة والاتجاه العام للسورة القرآنية ، كى تؤدى بمجموعها غرضها الخاص وهدفها الذى سيقت من أجله ٠

وهكذا تجد التلاحم والترابط والوحدة الكاملة بين الكلمة وجملتها ، وبين الجملة وآياتها ، وبين الآية وسورتها ، حتى تجد فى النهاية وحدة كاملة للهدف فى السورة القرآنية ، بل وأكثر من هذا ترابط وتلاحم السور القرآنية مع بعضها البعض ترابطا وثيقا محكما نتاجه وحدة قرآنية متكاملة ، حتى لكأن القرآن الكريم كله بآياته وسوره جنة فيحاء ، تسلم

(٢) ٠

---

(١) انظر وحدة الهدف فى السور القرآنية للمرحوم الأستاذ الدكتور أحمد كمال المهدى الذى كان يعمل أستاذا بكلية أصول الدين جامعة الأزهر الشريف ـ طبعة [illegible] ٠ سنة ١٩٧٣ ص ١٥٧ وما بعدها ٠

رياضها وأنهارها بعضها الى بعض لا يتسرب اليها انفكاك أو انفصال، ولا يوجد بها فجوة أو فرقة أو تجاف أو تباعد . « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا » (١) . ولو كان من عند الله غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (٢) .

وهذا ما عناه الدكتور الراجحى (٣) حين قال : ان آيات السورة الواحدة فى القرآن الكريم يرتبط بعضها ببعض، ارتباطا وثيقا، فى المعانى والمناسبات، وكثير من الألفاظ ، وان جميع السور فى هذا القرآن يرتبط بعضها ببعض ارتباطا محكما ، نهاية كل سورة بفاتحة السورة التى بعدها ، وهكذا دواليك من ألف القرآن الى يائه ، حتى لكأنه كله بجملته وأجزائه روضة غناء . موصولة الجنبات مترامية الأطراف متشابهة الورود والأزاهير والطيبات من الثمار والرياحين ، ستة آلاف ومائتى آية فى أربع عشرة ومائة سورة ، كتابا متشابها مثانى ، أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » اللفظ فى العبارة، والعبارة فى الآية والآية فى السورة والسورة فى القرآن كل ذلك يأخذ بعضه بحجز بعض على أحكم الأوضاع وأسلم الأساليب ، لكن ذلك مهما كان صحيحا وسليما لا ينفى أن السورة فى هذا القرآن العظيم جاءت سورة محدودة ذات عدد خاص من الآيات ،

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الكهف .

(٢) من الآية ٨٢ من سورة النساء .

(٣) الدكتور عبد الغنى عوض الراجحى عميد كلية أصول الدين بأسيوط بجامعة الأزهر الشريف ، انظر تشابه النظم فى قصص القرآن الكريم . وانظر براعة الاستهلال وروعة الأساليب فى فواتح السور . مقالات للدكتور الراجحى فى مجلة منبر الاسلام اعداد ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ ص ٦٧ ، ٦٨ ، عدد شعبان سنة ١٣٩٠ هـ ص ٢٧ وما بعدها ، وعدد ربيع الآخر سنة ١٣٩١ هـ وغير ذلك .

لها أول ولها نهاية ، يفصل بينها وبين غيرها من السور آية البسملة ، ووضع فوقها عنوان يحمل اسمها ، ومن هنا كان للسورة - كل سورة - فاتحة وخاتمة ، ومن هنا أخذت فواتح السور فى القرآن العظيم ، بما فيها من الغرابة ، والروعة والجزالة ، ولطف المدخل وحسن المطلع ، تسترعى أنظار الباحثين والدارسين ، الذين راحوا يعللون ذلك ، بأن القرآن عربى اللفظ والأسلوب ، وكان وما يزال ولن يزال ، من عادة البلغاء والمتكلمين أن يكون أول الكلام ومطلعه وفاتحته ، بالغ الجودة كثير التألف ، قوى التأثير ، جزل العبارة • مشرق الديباجة ، ليبادر الى الأخذ بمجامع القلوب ، وليكون أول ما يقرع السمع مما يستوجب انتباه النفس وارتياحها اليه ، مندفعة بكلياتها الى الاقبال عليه ، فتتمكن المعانى فى مداركها وأعماقها أفضل تمكنها ، فتقودها من زمامها ، الى الاقتناع بما يريده المتكلم بكلامه الى أعماق نفس السامع والقارىء تأثيرا واقتناعا •

ثم يذكر الدكتور الراجحى مثالا لما بين سور القرآن الكريم من ترابط وتناسب وتلاحم فيقول : ان سورة القمر قد ختمت فى آخر آية منها الحديث عن المليك المقتدر ، فى قوله تعالى « ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » (١) فما أروع أن يكون افتتاح السورة التالية - سورة الرحمن ، بالحديث عن نفس هذا الملك المقتدر فتقول « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان علمه البيان (٢) » الآيات •

وفى خواتيم سورة القمر ، الحديث عن المجرمين يقول تعالى : «ان المجرمين فى ضلال وسعر» (٣) • وفى السورة التالية - سورة الرحمن -

---

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر •
(٢) الآيات من ١ - ٤ من سورة الرحمن •
(٣) [illegible] ٤٧ من سورة القمر •

نجد الحديث عن هؤلاء المجرمين فى قوله تعالى « **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام** » (١) ولما بينت سورة القمر كثيرا من أحوال المجرمين من أهل مكة ، ومن أهل القرى الظالمة التى كذبت أنبياء ربها ورسله من قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وموسى ، وبينت ما نزل بهؤلاء الأقوام من عذاب الله وانتقامه . وردت السورة التالية — الرحمن — مبينة عظمة هذا الاله الذى كفروا به ، ورحمته وأنعمه وآلائه ، وما خلق فى الوجود من الآيات الكونية علوية وسفلية بحيث لو اعتبروا بما فيها من آثار عظمة الله وقدرته ، لكان لهم رادعا على كفرهم ، واجرامهم وكانوا فى عدد المتقين لا فى عداد المجرمين .

من هذا كله نرى مدى ما بين جمل القرآن الكريم وآياته وسوره من ترابط وتناسب ، وأحكام ، أعجز العرب وبهرهم ، فخروا أمام عظمته ساجدين ولجمال معانيه مقرين ، وبما فيه من البلاغة العالية والأحكام معترفين ، كان لهذا كله فى نفوسهم وقعه وصداه ، وشوكته وغلبته وسلطانه ، ما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين يصافح القرآن قلبه ، بآيات ليس فيها وعد أو وعيد ، أو تخويف أو تهديد ، يعلنها أمام الزمن صريحة تقلب موازين القوى . لا اله الا الله محمد رسول الله .

هذا هو وقع الكلمة ، ونسق الجملة ، وترابط الآية ، ووحدة السورة القرآنية الشريفة ، وصدق الله العظيم : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (٢) .

٣ — يأتى القرآن الكريم بجمل توحى الفاظها بمعان لا تحد بالفاظ ، بل يترك للنفس أمر ادراك هذه المعانى التى تهدف الآية اليها و... النفس ما يترتب على ادراك هذه المعانى .

---

(١) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ٢١ من سورة الحشر .

فقد تكون اشارة الى السخرية والتهكم ممن ضل وكفر وزعم أنه ومن معه على الحق وحدهم وأن من سواهم على باطل .

انظر قول الله سبحانه وتعالى يحكى معتقدات أرباب الكفر والضلال « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى . تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين (١) .

والبليغ فى هذا المقام يحس ما فى قوله تعالى : تلك أمانيهم من تهكم لاذع وسخرية من أمانى هؤلاء وعقولهم ومعتقداتهم الباطلة الخاسرة وأن هذه الأمانى لن تخرج الى حيز الوجود : بل قبرت قبل أن تولد : وسيرون هذا يوم يرون الحقيقة يوم الحق :

٤ - يذكر القرآن الكريم بعض الكلمات التى قد تبدو لقليل البضاعة ، أن فى السياق ما يجيز حذفها . ولو تبصر وعرف ما فى ذكرها من معان تستفاد ، وتؤكد فى النفس ، ويثبت معناها ، لبهره هذا الاعجاز القرآنى .

لو نظر مثلا لقوله تعالى : قل هو الله أحد الله الصمد (٢) فان لفظ الجلالة قد ذكر مرتين موصوفا بوصفين متفقين فى المعنى ، وقد يجيز قليل البضاعة حذف أحدهما ما دام السياق سيدل عليه لكنه لو فكر وتدبر لوجد ما فى ذكره بهذه الصورة . من تأكيد قوى يستقر فى النفس ، ويتمكن من القلب ، بأن الله سبحانه وتعالى واحد صمد وأنه وحده هو الملجأ والمآل (٣) ثم من ناحية موسيقى اللفظ ، تكرار ذكر لفظ الجلالة بصفته ،

---

(١) الآية ١١١ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الاخلاص .
(٣) انظر دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى تصحيح الشيخ محمد عبده طبعة المنار ص ١٢٣ .

فيه من التناسب الموسيقى أكمل الوانه وانسبها ولو حذفت احد لفظى الجلالة لانعدم هذا الانسجام الموسيقى ٠

وان كان هذا الجمال البلاغى فى تكرار كلمة أو جملة فانه أيضا يكون فى تكرار حرف من الحروف ، واختيار هذا الحرف وتكراره له وقعه البلاغى والجمالى ، اقرأ قول الله سبحانه وتعالى « قيل يانوح أهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ، ثم يمسهم منا عذاب اليم (١) ٠

فهذه الآية المباركة كما ترى نسج سماوى متلاحم، رقيق، دقيق يسيل رحمة ، وعذوبة ولطفا ، وابداعا ، وجمالا موسيقيا ولكنك لو ذهبت تفك أجزاء هذا النسيج ، وتمزق أوصاله فانك تجد عجبا عجابا ٠ فلقد جمعت هذه الآية ثمانية عشر ميما نثرتهم بين كلماتها ، بل تكاد تحشدهم حشدا فى مقطعين من مقاطعها حتى ليبدو المقطع وكانه مشكل كله من « ميمات » كما ترى فى « أمم ممن معك وأمم سنمتعهم » ومع هذا فانك ترتل الآية الكريمة على هذا الوجه الذى يرتل به القرآن فلا تحس أن هناك حرفا ثقيلا قد تكرر تكرارا غير مألوف ، بل لتجد أن الآية قد توازنت كلماتها ، وتناغمت مقاطعها ، فى أعدل صورة وأكملها فلا تنافر بين حرف وحرف ، ولاتباغض بين كلمة وكلمة بل ان التعاطف، والتعانق ليؤلف بين الحروف والحروف والكلمات والكلمات، كما تؤلف الروح بين أعضاء الجسد الواحد٠

والميم وحده حرف ثقيل مضغوط ، يشد عضلات الفم كلها حتى تؤدى على هيئة صوت فكيف به اذا كرر ؟ ثم كيف يكون ميزانه من الثقل حين يتكرر بهذه الكثرة المتلاحقة ؟ ٠

---

(١) الآية ٤٨ من سورة هود ٠

ولكن ليس مع نظم القرآن لفظ ينتظم فى نظامه ، ثم يبقى فيه شىء مما كان به من غرابة ، أو ثقل •

وليس هذا النغم المجلجل المتتابع من هذه الميمات الا أداء لما يقتضيه المقام من دواعى القوة التى تحيط بالمواقف وتظاهره وأن أى اذن تلتقط هذه الكلمات دون أن يكون لها علم بالعربية لتجد أن وراء هذه الكلمات حدثا ، تتصارع فيه قوتان متماسكتان ، تحاول احدها أن تفلت الى مهرب لها ، بينما تجذبها الأخرى اليها وتمسك بها ، حتى تلين شيئا فشيئا ، الى أن تنفصل القوتان ، وتصير كل منهما الى وجهتها من السكون والاستقرار (١) واذا كان هذا الجمال البلاغى والاعجاز القرآنى لتكرار حرف أو كلمة فانه أيضا يكون لحذف كلمة او جملة •

انظر مثلا الى قول الله سبحانه وتعالى « كلا اذا بلغت التراقى ، وقيل من راق (٢) » فلو علمت أن الحديث عن ذكر الموت وأهواله ، ونزع الروح وشدته ، ظهر لك المحذوف وعلمت أنه السر العظيم الذى اختص الله سبحانه وتعالى نفسه بعلمه ومعرفته فلا يعلمه الا هو علام الغيوب يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى (٣) وما أوتيتم من العلم الا قليلا» والحذف يكون لأغراض بلاغية عديدة استهدفها القرآن (٤) ثم أن القرآن الكريم قد يحذف جملا بتمامها لان فى حذفها بلاغة وحكمة • وتكريما لفكر وعقل من

---

(١) انظر اعجاز القرآن للاستاذ عبد الكريم الخطيب طبعة دار الفكر العربى حـ ٢ ص ٢٧٤ •

(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة القيامة •

(٣) الآية ٨٥ من سورة الاسراء •

(٤) انظر دلائل الاعجاز للجرجانى تصحيح الامام محمد عبده طبعة المنار ص ١٠٥ وما بعدها •

يسمعه أو يتلوه ، ولأن الهدف ليس تفصيلا دقيقا لكل جوانب الأمر ودقائق الأحداث ، فالمقام قد لا يستدعى التفصيل ولا يستلزمه ٠

انظر مثلا قول الله سبحانه وتعالى ٠ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يأيها الملأ انى القى الى كتاب كريم (١) ٠

فهذه الآيات الكريمة تحكى حديث نبى الله سليمان الى الهدهد وما كان من أمره مع ملكة سبأ ، وهذه الآيات قد جاءت على هذه الصورة التى حذف منها تفصيلات كثيرة نراها واضحة من سياق الآيات وصولا الى جوهر القصة ولبها والغاية منها ٠ وبيان هدفها ، ومغزاها ٠ والحذف بصوره المختلفة من ألوان بلاغة القرآن الكريم العالية وجمال تعبيره واحكام آياته وصدق العظيم اذ يقول ٠ وتنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة المؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخسارا (٢) ٠

٥ — ويستخدم القرآن الكريم المعرفة بمختلف أنواعها ، فى كل موضع ماتقتضيه بلاغة القرآن الكريم وسياق الآية وما فيها من أسرار بلاغية وقرآنية ٠

فيستخدم القرآن الكريم الضمائر بأنواعها ، انظر الى قوله تعالى ٠ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ، وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا (٣) فترى أن هذه الآية استخدمت كثيرا من ضمائر الغيبة وهى كلها تعود

---

(١) الآيات ٢٧ — ٢٩ من سورة النمل ٠
(٢) الآية ٨٢ من سورة الاسراء ٠
(٣) الآية ٨ من سورة الفتح ٠

الى الله سبحانه وتعالى وفى استخدام هذه الضمائر هنا اشارة على أنه سبحانه وتعالى هو المستحق وحده للعبادة والتسبيح فى كل وقت وحين ٠

وان كان الضمير فى الآية السابقة قد عاد الى مذكور ، فقد لا نجد للضمير مرجعا فى الآية التى ذكر فيها ، ولكنك تحس بوضوح ما يرجع اليه الضمير مع أنه غير مذكور لكن المعنى دل عليه واقتضاه انظر الى قول الله سبحانه وتعالى «كل من عليها فان» (١) فانك تجد أن الضمير قد عاد الى الأرض ، هى غير مذكورة فى هذه الآية ولكن المعنى بين ، ووضح مرجع الضمير ٠

وقد يجيء القرآن بالاسم الظاهر مكان الضمير ، لأمر أراده الله سبحانه وتعالى ، واقتضاه سياق الاية ٠ انظر مثلا قول الله سبحانه وتعالى أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير(٢) جاء القرآن الكريم بالاسم الظاهر بدلا من الضمير لأن المقام هنا يوحى بالجلال والكمال والقدرة والعظمة ، حيث ذكر بدأ الخلق ، وانشائه النشأة الاخرة ٠

ويستعمل القرآن الكريم اسم الاشارة بأنواعه قريبه وبعيده مفرده وجمعه استعمالا يظهر منه الاعجاز البلاغى للقرآن ٠ انظر قال الله سبحانه وتعالى يحكى مقاله امرأة العزيز للنسوة حين أخرجت لهن يوسف ، وحدث لهن ما حدث ٠ فذلكن الذى لمتننى فيه (٣) وأشارت ليوسف باسم الاشارة

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الرحمن ٠
(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ م سورة النعكبوت ٠
(٣) من الآية ٣٢ من سورة يوسف ٠

الذى يستعمل للبعيد مع أن يوسف كان موجودا فى المجلس ، والحكمة القرآنية باستعمالها لاسم الاشارة الذى يستعمل للبعيد هنا تدل على ان يوسف عليه السلام كان أبعد من ان تنال منه امراة العزيز وانه كان أملها ورجاءها وهذا من الاعجاز البلاغى للقرآن ·

وفى نفس هذه القصة أيضا استعمل القرآن الكريم الاسم الموصول فى قوله تعالى « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه (١) » ، واستعمال الاسم الموصول هنا بيان لمدى عفة يوسف وشرفه، فيوسف فى بيتها وهى التى تراوده ووسائل الاغراء موفورة وحاضرة لديها وهو تحت سلطانها وامرتها ولو جاء باسم المرأة صريحا بدلا من استعماله للاسم الموصول لم يكن ليفهم من العبارة ما فهم ولم يؤد ما أدته باستعمالها الاسم الموصول ·

واذا كان القرآن الكريم قد استخدم التعريف بأنواعه لما ان أهداف وغايات واعجاز وبلاغة ، فانه قد اســـتخدم التنكير أيضا لدلالات بلاغية ولو استخدم التعريف مكان التنكير فيها لقلت البلاغة وضعفت الدلالة ·

انظر قول الله ســـبحانه وتعالى · ولتجدنهم أحرص النـــاس على حياة (٢) تجد أن المراد هنا بيان حرص هؤلاء الناس على مطلق الحياة ·

وان الحياة ، هى كل همهم ولا يعنيهم أن يكون لها هدف رفيع أو حياة وضيعة بلا هدف سوى أن يعمر الفرد منهم الف سنة أو اكثر · لذا نجد الله سبحانه وتعالى بهم وجاء بكلمة حياة نكرة لتدل على ذلك وتبينه ·

وانظر قول الله سبحانه وتعالى · « ولكم فى القصاص حياة » نجد أن المراد الحياة التى ينعم بها المجتمع ويهدأ باله وتستقر أموره اذا نفذ حكم

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة يوسف ·

(٢) من الآية ٩٦ من سورة البقرة ·

الله واقام القصاص • فمن رأى أنه اذا قتل يقتل عقابا له على جريمته وعمله ارتدع ورجع عن ارتكاب هذه الجريمة البشعة ، فينعم المجتمع ويهدأ وتستقر الحياة فيه •

وهكذا تجد الحكمة العالية فى استخدام القرآن الكريم للمعرفة فى مواضع والنكرة فى مواضع أخرى كل موضع حسب ما يقتضيه ويتطلبه فسبحان من أنزله بحكمة ومقدار •

٦ – جاءت فى القرآن الكريم كلمات مفردة تارة ومجموعة تارة أخرى ولقد بين العلماء هذه الكلمات مفردة ومجموعة ، فقال أبو منصور الثعالبى (١) لم يرد لفظ الريح فى القرآن الا فى الشر ، والرياح الا فى الخير قال الله عز وجل • وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم (٢) ، وقال سبحانه • « انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر • تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » (٣) وقال تعالى • « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » (٤) لعل سبب ذلك أن ريح الشر تهب مدمرة عاصفة لا تهدأ ولا تدع الناس يهدءون فهى لاستمرارها ريح واحدة ، لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغيير ولا يحسون بهدوء يلم بها ، فهى متصلة فى عصفها وشدة تحطيمها •

---

(١) أبو منصور الثعالبى ، أبو منصور ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى من أئمة اللغة والادب ، من أهل نيسابور ، كان فراء يخيط جلود الثعالب فنسب الى صناعته ، وله تصانيف كثيرة • ولد فى ٣٥٠ هـ وتوفى فى ٤٢٩هـ •

الأعلام حـ ٢ ص ٦٠٠ وانظر فقه اللغة طبعة المطبعة الادبية بمصر طبعة أولى ص ٣٠٦ •

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة الذاريات •

(٣) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة القمر •

(٤) الآية ٥٧ من سورة الأعراف •

أما الرياح التي تحمل الخير فتهب حينا وتهدأ حينا تسمح للسحب ان تمطر فهي متقطعة تهب في هدوء ويشعر المرء فيها بفترات سكون ، وأنها رياح متتابعة وفي تعبير القرآن تصوير للاحساس النفسي •

واذا جاءت الريح المفردة بالخير وصفها الله سبحانه وتعالى بما يفيد أنها خيره انظر قول الله سبحانه وتعالى « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصفة وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق (١) فالله سبحانه وتعالى قد وصف الريح المفرده هنا بأنها طيبة لانها ريح جاءت بالخير • لتقابل ريح الشر ، ولأن افراد الريح مع السفن هو الرحمة بها ، ولو جمعها فقد يدل على أنها جاءت من جهات متعددة ، وذلك مضر بالسفن ، وقد يحطمها ويقضى عليها •

وهذا اللون من استعمال القرآن الكريم للكلمة مفردة فى موضع ومجموعة فى آخر ، اعجاز ربانى بدع تحلى به القرآن وشمله فازداد بوجوده فى القرآن احكاما وبيانا ، ودلالة على نتائجه وثماره •

وان القرآن الكريم باتباعه هذه المخالفة الصورية ليلفت الأذهان الى ما وراء الألفاظ من معان مقصودة وصور ملحوظة كأنها الحور العين حور مقصورات فى ثنايا الألفاظ واستعمالها (٢) • فاذا ما رفعت استار الكلمات بدت المعانى البديعة فى خدرها تستولى على العقل وتسر الناظرين •

٧ ـ جاء القرآن الكريم بأساليب الاستفهام وألوانها المختلفة • وصوره البلاغية وأغراضه البيانية •

---

(١) الآية ٢٢ ومن الآية ٢٣ من سورة يونس •

(٢) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ١٣٩ وما بعدها •

انظر مثلا الى قول الله سبحانه وتعالى « اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » (١) فالاستفهام هاهنا من الحواريين على بابه ومراد به استفسارهم من سيدنا عيسى وطلبهم لمائدة السماء • قالوا نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (٢) • ومن هذا اللون من الاستفهام فى القرآن الكريم كثير وقد يأتى الاستفهام فى القرآن الكريم ويراد به غير معناه الأصلى • كأن يكون للانكار وأن ما يستفهم عنه لا يليق ولا يصح أن يكون أصلا • من ذلك قول الله سبحانه وتعالى « ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى » (٣) وقوله « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما » (٤) وقوله عز وجل « أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون » (٥) ، وهذا رد على المشركين وتكذيب لهم ، فى قولهم ما يؤدى الى هذا الجهل الفظيع (٦) ، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم (٧) بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين •

وفى هذا الاستعمال للاستفهام بلاغة الأسلوب وجمال التعبير لأن الاستفهام فى أصل وضعه يحتم أن يكون بعده جواب له ، والجواب أمر يحتاج الى اعمال الفكر وشحذ الذهن ليكون الجواب فى موضعه ومحله ،

---

(١) من الآية ١١٢ من سورة المائدة •
(٢) الآية ١١٣ من سورة المائدة •
(٣) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة النجم •
(٤) الآية ٤٠ من سورة الاسراء •
(٥) الآيتان ١٥٣ ، ١٥٤ من سورة الصافات •
(٦) انظر • دلائل الاعجاز للجرجانى تصحيح الامام محمد عبده طبعة المنار ص ٨٥ •
(٧) الآية ٢٩ من سورة الروم •

والجواب فى مثل هذه الآيات بالنفى والانكار عن يقين قاطع يحتمه البحث والتفكير والتدبر لما فى السموات والأرض من آيات تنفى ما نسـبوه لله سبحانه وتعالى ، وما وصفوا به الملائكة الأطهار والاقرار بأنه ليس كمثله شىء (١) ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (٢) ، وان الملائكة عباد الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (٣) ، وهذه من المحاجة العالية الدرجة ومن البلاغة التى لا تدانى وأنى لبشر أن يأتى بمثلها •

ويأتى الاستفهام أيضا فى القرآن الكريم لأغراض أخرى منها التوبيخ والتقريع على امر وقع من بعض الخلق ــ وكان الأولى بهم ــ والله قد وهبهم المعقول ــ الا يقع منهم هـذا الأمر ومن هذا قول الله سـبحانه وتعالى • أتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين » (٤) وهذه الدعوة لا تصح ان تكون من عاقل •

أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (٥) •

وقد يكون التوبيخ أيضا على امر ترك وما كان ينبغى ان يترك ويؤتى ما عداه • يقول الحق سبحانه وتعالى « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسـعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٦) فالملائكة

---

(١) من الآية ١١ من سورة الشورى •
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الاخلاص •
(٣) من الآية ٦ من سورة التحريم •
(٤) الآية ١٢٥ من سورة الصافات •
(٥) الآية ٤٦ من سورة الحج •
(٦) الآية ٩٧ من سورة النساء •

حين تستفهم ألم تكن أرض الله واسعة » فهذا استفهام يراد به توبيخ هؤلاء الذين ارتكبوا هذا الفعل الفاحش القبيح· وهو أيضا استفهام يدعو العقل الى التدبر والتفكر فى مثل هذه الأمور حتى تعلم حقيقتها وتدرك عواقبها ويدرك العقل أنه ما كان ينبغى له أن يقع فى مثل هذا الفعل الناتج عن عقم فى التفكير وضحالة فى الادراك ·

ومن الاستفهام القرآنى ما يأتى لحمل المخاطبين على الاقرار بالحق بعد أن استقر الحق وظهر ، انظر قول الله سبحانه وتعالى · « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل » (١) ·

يقول القرطبى · اللفظ استفهام والمعنى تقرير ، والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكنه عام ، أى ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل ، أى قد رايتم ذلك وعرفتم موضع منتى عليكم فما لكم لا تؤمنون (٢) وهذا اللون من الاستفهام يأخذ بيد المخاطب الى التدبر والتفكير فى كل ما حوله من أمور وما وقع من آيات كونية ، اذا ما وضع يده عليها واحسها بعقله اعترف بالحق وأقر به بعد وضوحه وبيانه ·

وهكذا جاء الاستفهام بالوانه المختلفة وأغراضه وأساليبه فى القرآن الكريم ، دلالة واضحة على اعجازه وسمو بلاغته ، وافحام خصومه بالحجة البالغة والبرهان المبين ·

٨ - جاء القسم فى القرآن الكريم فى مواضع شتى وبصيغ مختلفة ، وبمقسم به متعدد ، وهدف القرآن الكريم من القسم تحقيق الخبر وتوكيده

---

(١) الآيات ١ - ٣ من سورة الفيل ·
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى طبعة الشعب ص ٧٢٧٧ ·

واثبات ما يخبر به ليتأكد السامع من تحقيق المقسم عليه ، أو على الأقل يفكر فيه ويتدبره علّه يهتدى ويصل من وراء فكره الى صراط مستقيم •

وقد يسأل سائل لم جاء القسم فى القرآن الكريم ؟ وقد يكون هذا السائل مؤمنا قوى الايمان كهذا الأعرابى الذى سمع قول الله تعالى ، « وفى السماء رزقكم وما توعدون » فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون (١) فلما سمع الاعرابى هذا القسم صرخ وقال • من ذا الذى أغضب الجليل حتى ألجأه الى اليمين (٢) » •

وقد يكون السائل غير هذا الاعرابى فيلج فى سؤاله بأن يقول ان كان القسم لأجل الكافر فلا يفيد ، وان كان لأجل المؤمن فالمؤمن مصدق بمجرد الاخبار من غير قسم ، فلم جاء القسم فى القرآن الكريم ؟ •

والجواب ان القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادة العرب القسم اذا أرادت أن تؤكد أمرا ، فالله سبحانه وتعالى ذكر القسم فى القرآن الكريم لكمال الحجة وتأكيدها ، والحكم يفصل باثنين ، اما بالشهادة واما بالقسم فذكر الله تعالى فى كتابه النوعين حتى لا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، انظر قول الله سبحانه وتعالى ، شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم (٣) فهذه شهادة وهى احدى طرق الحكم •

وانظر قول الله سبحانه وتعالى • ويستنبؤنك أحق هو قل أى وربى انه لحق وما أنتم بمعجزين (٤) • فالله سبحانه وتعالى قد أكد لهؤلاء

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات •

(٢) الاتفاق فى علوم القرآن للسيوطى الطبعة الثالثة طبعة حجازى سنة ١٩٤١م حـ٢ ص ٢٢٦ •

(٣) الآية ١٨ من سورة آل عمران •

(٤) الآية ٥٣ من سورة يونس •

السائلين أن وعد الله سبحانه وتعالى واقع لا محالة وأنهم محاسبون وما هم بفائتين من عذاب الله ومجازاته ٠

ولقد جاء القسم فى القرآن الكريم بصيغ حين يدرسها البليغ ويبصر ما فيها الفصحيح فانه يرى أسرار الاعجاز والبيان حسب طاقته وقدرته ، ويدرك منها على قدر ما أنار الله قلبه وهدى بصيرته ٠

انظر قول الله سبحانه وتعالى : « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى » (١) وتأمل مطابقة المقسم به وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل ، تأمل مطابقته المقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه ودع محمدا ربه ، فأقسم الله سبحانه وتعالى بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه (٢) والقرآن الكريم قد يأتى بجواب للقسم وهو الغالب وذلك مثل قوله تعالى ٠ « والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ، ان الهكم لواحد » (٣) ٠

وقوله تعالى ٠ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقســم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون » (٤) ، ومثل هذا مما ذكر جواب القسم فيه كثير ، وقد يحذف جواب القسم ، وأكثر ما يحذف جواب القسم اذا كان فى نفس القسم به دلالة على المقسم عليه ، فان المقصود يحصل بذكر المقسم عليه ، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز ، كقوله تعــالى : « ص والقرآن ذى الذكر » (٥) فان فى المقسم به تعظيم القرآن ووصفه

(١) الآيات من ١ - ٣ من سورة الضحى ٠

(٢) انظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى الطبعة الثالثة ص ١٩٤١ جـ ٢ ص ٢٢٨ ٠

(٣) الآيات من ١ - ٤ من سورة الصافات ٠

(٤) الآيات من ٧٥ - ٧٨ من سورة الواقعة ٠

(٥) الآية ١ من سورة ص ٠

بأنه ذو الذكر المتضمن لتذكير العباد وما يحتاجون اليه والشرف والقدر ، ما يدل على المقسم عليه ، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى كما يقول الكافرون (١) ولهـذا قال كثيرون أن تقدير الجـواب ، ان القرآن لحق ، ومثل هذا فى القرآن كثير وفيه من البلاغة أعلى مراتبها وأبلغ بيانها ، أنظر قول الله سبحانه وتعالى : والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا والسابحات ســبحا ، فالسابقات ســبقا فالمدبرات أمرا ، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة » (٢) ، وجواب القسم المحذوف هنا ظاهر واضح جلى من خلال هذا التصوير البليغ الذى تحدثت عنه الآيات من أوصاف ليوم القيامة سابقة له ولاحقة به وهذا من أسرار القرآن واعجازه الربانى العظيـم ، ولكنه مع طلاوته وحلاوته ، تذوقه المستشرقون مرا ، وليس العيب فيه ، ولكن الفم المريض اذا أطعم شهدا تذوقه مرا ، فعذرا لعين الكفران بها قذا فقد عاب بعض المستشرقين القرآن الكريم من ناحية ما جاء فيه من القسم وتركزت أقوالهم فى النيل من القرآن من هذه الزاوية فى وجهين •

(أ) قالوا • لقـد أقســم القرآن ببعض المخلوقات ، مثل الفجر ، والشمس والضحى ، والعصر ، والليل ، والتين والزيتون ، وغير هذا من صيغ القسم بالمخلوقات • والقسم بها دلالة على تعظيمها ، والتعظيم لا يكون الا لله •

(ب) ما جاء فى القرآن الكريم من صيغ القســم بأحرف وكلمات ، لم يفهم معناها مثل « الم » ، « وكهيعص » ، « الر » ، « وص » ، « ق » الى آخر هذه الصيغ من القسم ، والتى اعتبرها المستشرقون من لغو الكلام ، الذى لا يأتى بالهدى والنور ، والقرآن كلام الله ، جاء بيانا للنـاس وهدى ورحمة ، كما يقول المسلمون • فأى بيان أو هدى ، أو رحمة فى مثل هذه

---

(١) انظر الاتقان للسيوطى الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١ جـ ٢ ص ٢٢٨
(٢) الآيات من ١ ـ ٧ من سورة النازعات •

الحروف التي جاءت في أوائل السور وأقسم بها ؟ وقال المستشرقون : ان هذه الحروف أبعد ما يكون عن أن تكون هدى ورحمة ·

والرد على المستشرقين · ودفع زعمهم الباطل حول القرآن وما جاء به ، يقتضي أن يعلم أولا أن هدف المستشرقين من وراء كل هـــذه الدعاوى هو التشكيك في القرآن الكريم ونفي أنه جاء من عند الله سبحانه وتعالى رحمة ونورا لا ريب فيه هدى للمتقين ·

ثم هذا الزعم الأول الذى زعموه : من أن القرآن قد أقســم ببعض المخلوقات ، وقسمه بها تعظيم لها · والتعظيم لا يكون الا لله : فزعم باطل لأنهم ما فهموا أسلوب القرآن وبلاغته وما عرفوا ما في اللغة العربية من حذف وايجاز وتقدير · فالقسم ببعض المخلوقات لا شبهة فيه ولا اعتراض عليه لما يأتي : ــ

١ ــ يمكن أن يكون القسم بالشمس والتين وغيرها على تقدير مضاف محذوف فيكون القسم : ورب الشمس ، وكذا ، ورب التين وهكذا ·

٢ ــ العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن الكريم على ما يعرفون من قسم ويألفون من صيغة · ولعل في هذا استمالة لقلوبهم ·

٣ ــ أن القسم انما يكون بما يعظمه المقسم أو يجله اذا ما كان المقسم به أعلى ممن أقسم أو مساويه ، لكن الله سبحانه وتعالى وهو الخالق لكل شيء فلا يساويه شيء من مخلوقاته ولا يصل الى جلاله وعظمته · فمهما بلغت عظمة المخلوق فهى لا تدانى عظمة الخالق ، فالله سبحانه وتعالى ليس شيء فوقه ولا مساويا له وحين يقسم الله سبحانه بمخلوقاته فانه يخاطب العقل ، لأن هذه المخلوقات تدل على بارىء وصانع قادر حكيم عظيم · والقســـم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل ، اذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل ·

قال ابن القيم (١) · اعلم أن الله سبحانه وتعالى يقسم بأمور على أمور ، وانما يقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته (٢) ·

فالقسم بمخلوقات الله سبحانه وتعالى · دليل يسوقه الله سـبحانه وتعالى للعرب حتى يتمكن المقسم عليه من نفوسهم ، وليس الهدف من القسم بهذه المخلوقات هو تعظيمها فقط ، ثم ماذا يمنع من تعظيم الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات وهو الذى خلقها ، والله سبحانه وتعالى · وهو الذى خلق الانسان وصوره يقول :لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم (٣) ، وفى هذا تعظيم للانسان لكنه ليس تعظيما مطلقا لكل انسان وانما هو فقط تعظيم للمؤمنين ، نالوا شرفه بطاعتهم لله سبحانه وتعالى وايمانهم بكتبه ورسله ، واقرارهم بالعبودية المطلقة لله · ولو كان التعظيم مطلقا لكل انسان لما جاء قول الله سبحانه وتعالى بعد الآية السابقة : ثم رددناه أسـفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون (٤) ·

من هذا يتضح أن القسـم بالمخلوقات وان كان فيه تعظيم لها الا أنه تعظيم لها اذا ما قيست بغيرها من المخلوقات · لمزية خاصة اختصها الله سبحانه وتعالى بها · وهذا لا يتعارض وعظمة الخالق سبحانه وتعالى بل

---

(١) ابن القيم : محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعيد الذراعى المدشقى ولد فى دمشق سنة ٦٩١ هـ وتوفى بها سنة ٧٥١ هـ من كبار العلماء تتلمذا على شيخ الاسلام ابن تيمية · الاعلام طبعة المطبعة العربية سنة ١٩٢٨ م جـ ٣ ص ٨٧١ · انظر التبيان فى أقسام القرآن ·

(٢) انظر الاتقان للسـيوطى الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١ م جـ ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها ·

(٣) الآية ٤ من سورة التين ·

(٤) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة التين ·

هو الدليل على عظمته • سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (٣) تسبح له السموات السبعوالأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا (١) •

أما ما زعمه المستشرقون من أن القرآن الكريم قد أقسم بأحرف وكلمات لم يفهم معناها مثل «ص» و «ق» و «الم» ، «كهيعص» وما شابهها وقد اعتبر المستشرقون أن القسم بمثل هذه الصيغ من لغو الكلام الذى هو أبعد ما يكون عن الهدى والنور •

وقول المستشرقين باطل • وسيفهم مردود فى نحورهم ، نهم لم يعرفوا ، وكيف يدرك من عمى قلبه وبصره وحسه ، كيف يدرك جمال الكون ، والوجود ونضارة الشمس والورود •

كيف حكم هؤلاء على فواتح السور هذه بأنها لغو بعيد عن الهدى والنور ؟ ألأنهم لم يفهموها ؟ ان كان ذلك فهم معذورون فى قولهم ، وعلى الصبى الذى يحبو أن يترك فهم أسرار عظائم الكون لمن هم أهلها وذووها فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٢) •

فالعرب الذين خوطبوا بالقرآن الكريم لم ينكروا هذه الحروف المقطعة التى جاءت فى أوائل السور وانما رأوا فيها اعجاز وأحكام وبلاغة فاقت قدروتهم وهم أرباب الفصاحة وعلماء البيان ، ولقد علم العرب مدلول هذه الحروف واطمأنوا لها وأمنوا بها • وهذا هو القاضى أبو بكر بن العربى (٣)

---

(١) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الاسراء •
(٢) من الآية ٤٣ من سورة النحل •
(٣) القاضى أبو بكر بن العربى ٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ
١٠٧٦ ـ ١١٤٨ م

يقول : انه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لهذه الحروف المقطعة فى أوائل السور مدلولا متداولا عندهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم ، بل تلا عليهم (حم) و (ص) وغيرها فلم ينكروا ذلك - بل صرحوا بالتسليم له فى البلاغة والفصاحة مع تشوقهم الى عثرة وحرصهم على زلة - ، فدل على أنه كان أمرا معروفا بينهم لا انكار فيه (١) ·

وان كانت هذه الحروف المقطعة التى فى أوائل السور قد استعصت على فهم البعض فهذا أمر طبيعى · لأن الناس متفاوتون فى الفهم ، ثم أيضا فان فى هذا حث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامض ما أنزله الله سبحانه وتعالى لعباده ، هدى ونورا ، والبحث عن دقائقه : فان استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب ، ثم أيضا لو فهم الناس جميعا ما جاء به القرآن من هذه الحروف المقطعة وغيرها من الأمور المتشابهة لاستوت منازل الخلق ولم يظهر فضل العالم على وغيره ، ومقالة العلماء فى معانى الحروف تثبت هذا وتؤكده · ثم أيضا ان كان ذلك مما لا يمكن علمه ، فهو ابتلاء للعباد بالوقوف ... والتوقف فيه والتفويض والتسليم وهذا أعلا درجات العبادة فمع أن لكل حكم حكمة فمن الثابت أنه ليست كل حكمة مدركة ·

والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ·

=

محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الاشبيلى المالكى ، أبو بكر قاض من حفاظ الحديث بلغ رتبه الاجتهاد وصنف كتبا فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ · ولد فى اشبيليه ورحل الى المشرق ومات بفاس - لأعلام للزركلى طبعة المطبعة العربية سنة ١٩٢٨ م ج ٣ ص ٩٢٩ ·

(١) انظر الاتقان للسيوطى الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١ ج ٢ ص ١٧ ·

٩ - لبلاغة القرآن الكريم من البلاغة في الفصل والوصل مخضعت له أعناق البلغاء وخشعت له قلوب المؤمنين منهم ، واستسلمت له البلاغة زمام قيادتها واتخذته عنوانها ورايتها ، ومنبعها وموردها .

انظر قول الله سبحانه وتعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » (١) .

فالمناسبة فى وصل هذه الآيات واضحة بارزه ، والجمال فى وصلها وتناسبها والربط بين جملها رائع البيان بديع البلاغة .

فالآيات تتحدث حديثا مرتبا تتناول فيه ، الحياة فى الصحراء بما تحتويه : تحدثت عن الابل ، وهى الدعامة الأولى فى حياة البدوى ، ثم تحدثت الآيات عما يراه البدوى فى غدوه ورواحه ليله ونهاره من سماء رفعت بلا عمد تشهد على قدرة الخالق العظيم - أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٢) - والعربى الذى رأى السماء هكذا ، لا يستطيع أن يقيم خيمته الصغيرة بلا عمد وأحبال وأوتاد ثم هذه السماء بما فيها من نجوم زينتها ، وأقمار وشموس أضاءتها : هى فى ليل البدوى حادية وهادية ، ودليله ومرشده ، وفى غيثها سقياه وريه . فاذا تطلع العربى حوله رأى الجبال الشم تناطح السحاب عالية شامخة : راسية مطمئنة ، على صدر الأرض التى بسطها الله سبحانه وتعالى وجعلها للبدوى مهدا وسلك له فيها سبلا : والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (٣) وكيف أن القرآن الكريم قد ذكر السماء وهى مبعث الغيث وحياة الأنعام والانسان

---

(١) الآيات من ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية .
(٢) الآية ٦ من سورة ق .
(٣) الآياتان ٧ ، ٨ من سورة ق .

والطير مرتبطة بها ، وختم بالارض لان المآب اليها ، وبذلك وقعت الجبال بين السماء والأرض وما أجمله موقعا ، كل هذه الأشياء آيات ربانية مرتبطة بحياة البدوى ، تعيش فى طبيعته وخياله متلازمة ، لذا كان للربط بينها ووصلها اعجاز قرآنى عظيم ·

ومثل ما ذكره من الوصل قول الله سبحانه وتعالى : « اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت واذا البحار سجرت ، واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت · الى آخر الآيات (١) التى جاءت مرتبطة متصلة ، لارتباط وقوعها وتلازم حدوثها ، واتصالها اعجاز قرآنى وبلاغة واحكام عظيم · ومثل هذا فى القرآن العظيم كثير ·

ان كانت هذه الآيات قد اقتضت الوصل من جميع جوانبها فان هناك من الآيات ما يقتضى ظاهره الفصل لعدم ظهور المناسبة ولكن خلاف الظاهر يقتضى الوصل لوجودها ، مثل « يسألونك عن الأهله قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون (٢) ·

فالمناسبة هنا راجعة الى عادة العرب فى أنهم كانوا اذا أحرموا للحج لا يدخلون البيوت الا من نقب فى المدر، ومن خلف الخيمة فى الوبر، والى أن الآية تمثيل فى تصديهم بالسؤال عما لا يفيدهم ، وهو الأهلة تاركين ما يفيدهم وهو منافعها (٣) ·

---

(١) الآيات من ١ ـ ١٣ من سورة التكوير ·
(٢) الآية ١٨٩ من البقرة ·
(٣) انظر تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى طبعة الأنجلو المصرية الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨ م ج ٢ ص ٩١ ·

واذا نظرت الى قول الله سبحانه وتعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » (١) وجدت أن بين هذه الجمل امتزاج معنوى وتأكيد واتفاق ترفع الجملة الثانية ما قد يتوهم فى الجملة الأولى من تجوز أو سهو أو نسيان ، فتعريف جزأى الجملة الأولى والمجىء باسم الاشارة للبعيد ، يوضح ، أن ذلك الكتاب قد بلغ أسمى درجات الكمال ، وقد يتوهم أن فى هذا الوصف ثمة مبالغة لذا نفى هذا الوهم ، وأتبع قوله « ذلك الكتاب » بقوله « لا ريب فيه » أى فى بلوغه تلك الغاية من الكمال ، تأكيدا لما فهم من الجملة الأولى ، ثم أتبعه أيضا بقوله : هدى للمتقين « تأكيدا ثانيا لان معنى بلوغ القرآن الكريم تلك الغاية من الكمال انما هو كماله فى الهداية والارشاد ، والفصل فى هذا وأمثاله غاية البلاغة ونهاية البيان • ويجىء الفصل فى القرآن الكريم أيضا لرفع توهم لا يرتفع مع وجود الوصل ومثل هذا ما جاء من الفصل فى قوله تعالى : قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم » (٢) فالفصل هنا قد رفع توهم أن قوله تعالى الله يستهزىء بهم من مقولهم ، ووضح بالفصل أنهم قالوا فقط انا معكم انما نحن مستهزئون • وأن ما بعده بيان لاستهزاء الله سبحانه وتعالى بهم •

وهذا من المواطن التى يقتضى ظاهرها الوصل ولكن عدم الظاهر يدعو الى الفصل •

ومن الوان بلاغة الفصل والوصل فى القرآن الكريم « أن صفات الله سبحانه وتعالى اذا تتابعت غير متضادة المعانى جاءت بغير عطف كقوله تعالى « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . العزيز »

---

(١) الآية ٢ من سورة البقرة •
(٢) من الآيتين ١٤ ، ١٥ من سورة البقرة •

الجبار ، المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله ، الخالق ، البارىء ، المصور » (١) ٠

واذا تتابعت صفات الله سبحانه وتعالى وكانت مضادة جاءت موصولة كقوله تعالى « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن » (٢) ٠

وكذا أيضا فى صفات المخلوقين « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (٣)

وهذا وغيره من ألوان بلاغة القرآن الكريم فى الفصل والوصل ، يتوقف عليه فهم كثير من الآيات وما قد ينشأ من تشابهها لو لم يفهم ما بينها وبين غيرها ، بل وأيضا ما بين جملها وبعضها البعض من فصل ووصل ، وصورة كثيرة ومقتضياته متعددة ألوانه فى القرآن الكريم أعجزت البلغاء ، واخرست السنة الجاحدين المعاندين ولوت أعناق الجامحين وردت سهام الكائدين الى نحورهم ، واقتدى بها البلغاء فهى وحدها موردهم وريهم فى هذا الفن (٤) ٠

---

(١) الآيتان ٢٢ ــ ٢٣ من الآية ٢٤ من سورة الحشر ٠
(٢) من الآية ٣ من سورة الحديد ٠
(٣) الآية ١١٢ من سورة التوبة ٠
(٤) انظر دلائل الاعجاز للجرجانى تصحيح الامام محمد عبده طبعة المنار ص ١٥٩ وما بعدها وانظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة حجازى بالقاهرة الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١ م جـ ١ ص ١٥٥ وما بعدها ٠

الباب الرابع

ألوان من بلاغة التكرار فى القرآن الكريم

تقديم

القرآن الكريم كتاب الله سبحانه وتعالى المحكمة آياته ، العالية معانيه ، البديعة الفاظه ، المعجز لكل الخلق ، وهاديهم الى صراط مستقيم قد اشتمل على ألوان عدة من التكرار ، هذه الألوان لها وقعها الجميل على النفس ، وأثرها الطيب على القلب ، الذى يهتز لها طربا ، وتميل معه النفس نشوى ، بمعانيها ووقع الفاظها ، وعذوبة مواردها ، وبديع سياقها فالتكرار الذى جاء فى القرآن ، لون من الوان اعجازه وبلاغته ، وشاهد على سموه وفصاحته ، فهو تكرار له حلاوته ، وتنظيم بديع له طلاوته •

ولقد عهدت العرب أن أى كلام اذا تكرر ثقل ، واذا أعيد سمج وسقط ، وأن العبى لينطق بالكلمة أو الجملة ويظل يكررها لأنه لا يجد ما يقوله غيرها ، فتمج وتستكره ، وتعاب وتستقبح •

والقرآن الكريم معجز فى لفظه ومعناه ، خارق للعادة ، بكليته وبعضه ومن هنا أراد القرآن الكريم أن يأتى للعرب من موارد العى والضعف عندهم ، بأعلى مراتب الفصاحة والبلاغة فى اللفظ والمعنى •

وهكذا يكون الاعجاز ، وتأتى خوارق العادات ، انظر كيف أن الله سبحانه وتعالى جاء لقوم نوح عليه السلام ، بالماء الذى أغرقهم من المكان الذى تعودوا أن يأخذوا منه الدفء ويشعلوه نارا لاصلاح معاشهم « حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور » (١) •

---

(١) من الآية ٤٠ من سورة هود •

فالله سبحانه وتعالى أتى أيضا للعرب بما أعجزهم وبهرهم فى فصاحته وبلاغته ، من التكرار الذى تعودوه فى سقط الكلام وغثه ، فاذا بتكرار القرآن الكريم هو أجمل الكلام وأعلاه بلاغة ، وأرقه عبارة وأسماه فصاحة حلاوة نظمه تأخذ بمجامع القلوب ، وجمال معناه ، يطرب الألباب ويبهج النفوس ، الرقيقة المبصرة ، وقوته وجزالته تطوى أعناق المعاندين وترد كيد الكائدين ، فتعود سهامهم الى نحورهم فيبيتون صرعى بأسلحتهم ، يخربون بيوتهم بعنادهم لعظمة القرآن ، وهكذا أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فاعتبروا باأولى الأبصار .

الفصل الأول

من ألوان التكرار فى القرآن الكريم

شمل القرآن الكريم الكثير من ألوان التكرار اللفظى وكان القرآن الكريم بتكرار اللفظ مرات متتابعة أو متفرقة يمعن فى السخرية بأصحاب البلاغة ويتحدى أرباب البيان ، فيطلع عليهم من كل مهمة قفر جرداء وملء يديه ثمر جنى ، وماء بارد عذب فرات سائغ للشاربين ، شـــاف لصدور المؤمنين ، مفحم للبلغاء المعاندين ٠

والتكرار ألوانه كثيرة وان كان بعضها خارج عن مجال هذه الدراسة الا أن ذكره وتناوله باشـــارة وجيزه فيه اظهـــار لبعض جوانب البلاغـــة القرآنية والشىء بالشىء يذكر ٠

١ ــ وأبدأ بالحديث عن التكرار من أول تكرار بعض الحروف فى الآية الواحدة ، وما له من معنى دقيق ، ومناسبة وحسن وقع وجميل سياق : ،

من تكرار الحرف الواحد مرات كثيرة فى الآية الواحدة ما جاء فى القرآن الكريم من تكرار « الميم » عشر مرات فى مطلع آية واحدة ٠

فالله سبحانه وتعالى يقول : « قل اللهم مالك الملك ٠ تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (١) ٠

فهذه عشر ميمات قد جاءت فى مطلع آية واحدة ، ومع تكرارها مرات ومرات ألا أنها كالميم الواحدة تسرى نغمتها فى كيان الكلمات فتشيع فيها هذه القوة البلاغية المتمكنة التى تحدث عن سلطان الله وقدرته وعظمته ٠

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران ٠

ولو أن حرفا آخر غير الميم دخل فى نظم هذه الآية الكريمة لما انبعث منها هذا الصوت القوى المجلجل الذى يقتضيه مقام سـياق الآية ، ولتفككت أوصال النظم ، وتخاذلت قواه وثقل نطقه وتعثرت كلماته ٠

لكن التكرار فى هذه الآية الكريمة التى تحدث وتكشف عن قدرة الله سبحانه وتعالى وبيان تمكن سلطانه فى هذا الوجود ـ التكرار فى هـذه الآية ـ هو الذى كون من هذه الكلمات رسلا قوية قادرة على حمل المعانى القوية القادرة القاهرة ٠٠ والميم فى هذه السمفونية العلوية هى الوحدة التى أمسكت بالنغم ، فى وقعه واللفظ فى مؤداه البليغ العالى ٠

وأمثال هذا اللون من التكرار فى القرآن الكريم ، صـور بلاغية معجزة ، دالة على مكانة عالية يسمو بها القرآن ونظمه على سائر ما نظمه الأدباء والبلغاء من يوم آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ٠

فمن من أدباء الدنيا يستطيع أن يأتى بمثل هـذه الآية الكريمة « وأتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الأخر ، قال لأقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين » (١) ٠

هذه الآية الكريمة التى اشتملت على أحد عشر قافا ، والقاف من أثقل الحروف نطقا ، ولو أن هذه القافات نثرت بين سطور مقاله أحد من البشر ، ضعف هذه الآية ، لناءت بها مقالة الأديب وثقلت وتعثرت كلماتها ومعانيها وباتت مثلا يضرب للتنافر والركاكة والثقل والعى ٠

وليس ببعيد عنا هذا البيت الذى يوضع علما على سقط الكلام وثقله

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

---

(١) الآية [illegible] من سورة المائدة ٠

فلقد ثقل هذا البيت واضطربت كلماته وتعثر اللسان فى نطقه بسبب اشتماله على هذه القافات الخمسة فقط ٠

ولكن الآية الكريمة التى جمعت بين كلماتها أحد عشر قافا جاءت على هذه الصورة الرائعة من النظم القرآنى العالى بديعة فى نظمها بليغة فى معناها ، متلائمة فى نسجها متوافقة لا قلق فيها ولا اضطراب ٠

وهذا لون من ألوان تكرار الحرف الواحد فى الآية القرآنية الواحدة يظهر فيه بوضوح مدى ما للقرآن الكريم من قوة اعجاز أخضعت أعناق جبابرة الكلام وبلغاء النظم والبيان ، وشفت صدور المؤمنين واهتدوا بها الى صراط مستقيم ، وينطبق هذا كله على باقى ألوان التكرار التى شملها القرآن الكريم وسأذكر بعض أمثلة منها ٠

٢ ـ اللون الثانى من ألوان التكرار القرآنى ، تكرار الكلمة الواحدة عدة مرات فى الآية الواحدة أو فى الآيات المتجاورة فى السورة الواحدة الى آخر ذلك من ألوان تكرار الكلمة الواحدة ٠

ومن أمثلة هذا اللون من التكرار ما جاء فى قول الله سبحانه وتعالى «قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » (١) حيث جاءت كلمة الملك فى هذه الآية الكريمة : ثلاث مرات وكذا جاء الاسم الموصول « من » وبعده الفعل « تشاء » أربع مرات وأمثلة هذا فى القرآن الكريم كثيرة :

وما جاء أيضا فى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة الرحمن : والسماء

---

(١) الآية ٢٦ من سورة آل عمران ٠

رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (١) ، فلقد جاءت كلمة الميزان ثلاث مرات فى الآيات الثلاث المتجاورة من سورة الرحمن الى آخر ذلك من هذا اللون من التكرار ٠

٣ - اللون الثالث من ألوان التكرار فى القرآن الكريم تكرار الجملة أو الجمل عدة مرات دون زيادة أو نقصان أو بزيادة حرف أو كلمة ٠ أو بنقصان حرف أو كلمة الى آخر هذا اللون من التكرار ٠

ومن أمثلة هذا اللون، ما جاء فى قول الله سبحانه وتعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة (٢) ، وقوله تعالى « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (٣) ، وقوله تعالى : أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم » (٤) ٠

فى هذه الآيات الثلاث جاء قول الله سبحانه وتعالى : « أم حسبتم وفى الآيتين الأولتين جاء قول الله سبحانه وتعالى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، وفى الآيتين الأخيرتين ٠ جاء قول الله سبحانه وتعالى : ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم : وهذا اللون من التكرار وأمثاله كثير فى القرآن الكريم ٠

٤ - اللون الرابع من ألوان التكرار فى القرآن الكريم تكرار آية كاملة فى مواضع مختلفة ، دون زيادة أو نقصان ، أو بزيادة حرف أو كلمة أو أكثر أو بنقصان حرف أو كلمة أو أكثر أو بتغيير كلمة أو أكثر ٠

---

(١) الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ من سورة الرحمن ٠
(٢) من الآية ٢١٤ من سورة البقرة ٠
(٣) الآية ١٤٣ من سورة آل عمران ٠
(٤) من الآية ١٦ من سورة التوبة ٠

ومن أمثلة هذا اللون من التكرار ما جاء فى سورة الرحمن من قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فى مواضــع متعددة • دون زيــادة أو نقصان •

وما جاء فى قوله تعالى ، «كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون»(١) فلقد تكررت الآية هنا بزيادة فيها •

وما جاء فى قوله تعالى : « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » (٢) ، فلقد تكررت هذه الآية مرة أخرى ولكن بحذف بعض كلماتها فجاءت فى سورة الشعراء « فقد كذبوا فســيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » (٣) بحذف بعض اكلمات من الآية الثانية وابدال نسوف بالسين فيها أيضا الى آخر هذا اللون من التكرار والذى تحدث عنه كتاب البرهان فى متشــابه القرآن وتتبع مواضــعه بالبيان والتوجيه •

٥ ـ اللون الخامس من ألوان التكرار فى القرآن الكريم تكرار ذكر القصة الواحدة فى مواضع مختلفة بزيادة فى موضع دون الآخر ، أو بذكر نواحى منها لم تذكر فى المواضع الأخرى التى ذكرت القصة فيها • الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم من هذا اللون : وسأتناوله ان شاء الله تعالى بالحديث عنه مستقلا خلال هذا البحث •

بيان فى التكرار

بعد الــذى ذكرته من ألوان فى القرآن الكريم أحب أن أذكر بيانا موجزا عن بعض ألوان هذا التكرار من حيث ما له من تنظيــم لفظى بديع ،

---

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة التكاثر •
(٢) الآية ٥ من سورة الأنعام •
(٣) الآية ٦ من سورة الشعراء •

وطلاوة بلاغية عالية ومناسبة ، وحسن سياق ، تظهر جميعها أن كل كلمة أو آية من القرآن الكريم وان تكررت فى ظاهرها الا إنها محكمة فى حقيقتها من غير تكرار أو تشابه ·

انظر قول الله سبحانه وتعالى « الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة » (١) واقرأ قول الله تعالى : كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين » (٢) نرى فى هذا وأمثاله ، جمال المقطع وبلاغته ، ووضوح المعنى وزيادته ، ورقة الكلام ، وفصاحته ، وغير ذلك من ألوان الحسن الرائع التى تضاف الى ألوان الابداع والاعجاز فى القرآن الكريم ·

إقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٣) هذه الآية الكريمة التى تكررت أربع مرات فى سورة القمر ·

وكذا قول الله سبحانه وتعالى : فبأى آلاء ربكما تكذبان · هذه الآية الكريمة التى تكررت احدى وثلاثين مرة فى سورة الرحمن ·

اقرأ كلا من هاتين الآيتين على ورددها مرات عدة من غير أن تفصل بين المرة والأخرى بأى شيء وانظر بعد ذلك ، ماذا تجد ؟ هل ثقلت احداها على سمعك ؟ هل اضطرب بها لسانك ؟ هل ملتها نفسك ؟ هل تنافرت فى جملتها أو ثقل بعضها ؟

ان كنت موسيقيا ، فليس لى معك حديث فى هذا الأمر ، فانت به خبير عليم ، وما عليك الا أن تدندن بالآية الكريمة ، وتحرك لسانك بحروفها كما

---

(١) الآيات من ١ ـ ٣ من سورة الحاقة ·
(٢) الآيات من ٣ ـ ٥ من سورة التكاثر ·
(٣) الآية ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ من سورة القمر ·

تحرك أصابعك على أوتار آلة موسيقية ، وسـيـنتهى بك الأمر الى أن تجد نفسك في نشوة نغم علوي سماوي لم يقع لأذنك مثله من قبل ٠

وان لم تكن من أصحاب الموسـيقى ، فرتل أيا من الآيتين الكريمتين ترتيلا قرآنيا مرة ومرة ومرات ، واملأ فمك بكلماتهـا ٠٠ وافتح أذنيك لرنينها وسترى أنك تنطق بلحن بديع يفيض رحمة وينبض جلالا وقوة ٠٠ ويهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع الى ربها ، وبالقلوب الضالة أن تفر الى خالقها ومربيها ، والا فالويل والثبور (١) ٠

واقرأ أيضا قول الله سبحانه وتعالى « ويل يومئذ للمكذبين » واصنع معها صنيعك مع الآيتين السابقتين ، تجد ما وجدته فيهما من تساوى نغم وتجاوب الكلمات وتجاذب الحروف ، فلا خلخلة ولا اضطراب ، ولا ثقل ولا تنافر ، ولكن تعاضد وتسـاند ، واتسـاق وتعانق ، بين الحروف والحروف ، والكلمات والكلمات ، وأحسبك قد وقفت على ما تكشف لك من اختلاف بين النغم الموسيقى هنا والنغم الموسيقى هناك حيث اختلاف المقام ، فكان لكل مقام مقال ، ويل يومئذ للمكذبين ، ليس فى هذا المقطع كله نبرة حنان ولا رقة ولا لين ، انه بناء من صـخر وجليد اجتمعت حروفه فى تلك الصورة فكأنها قذيفة منطلقة أو شـهاب ثاقب منقض على رؤس المكذبين الضالين ٠

هذا من ناحية أن التكرار فى هذه المواضع نغم موسيقى يلذ السمع ولا يثقل على اللسان ، وان تكرر عشرات المرات فى أى صورة من الصور ، منفردة أو فى سياق الآيات ، والحقيقة أن التكرار ليس هدفه هذه الناحية

---

(١) انظر اعجاز القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب طبعة دار الفكر العربى س ١٩٦٤ ط ١ ص ٣٧٤ ٠

التى تحدثت عنها ، وان كانت ناحية زاد بها اعجازه وسمت بها بلاغته وانما هذه الألوان من التكرار جاءت لأغراض وأهداف لو نظرت اليها ووقفت على حقيقتها لرأيت أنه لا تكرار فى هذه الآيات وما شابهها وانما كل كلمة أو أية جاءت لغرض معين غير الغرض الذى جاءت له الكلمة أو الآية أو الآيات التى تشابهت فى لفظها وأحكمت فى معناها ودلالتها ، وهذا هو حديث المرتضى (١) يوضح فيه أن الآيات التى تشابهت ألفاظها فى الظاهر ، هى فى الحقيقة آيات محكمة بعيدة عن التكرار والتشابه فى مؤداها ودلالتها ، فيقول :

واذا سال سائل فقال : ما وجه التكرار فى سورة الكافرين ، وما الذى حسن اعادة النفى لكونه عابدا ما يعبدون ، وكونهم عابدين ما يعبد وذكر ذلك مرة واحدة يغنى ؟ وما وجه التكرار أيضا فى سـورة الرحمن لقوله تعالى : فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟

ويذكر المرتضى رأى ابن قتيبه ، واجابته على هذا السؤال فيقول :

القرآن لم ينزل دفعة واحدة ، وانما كان نزوله شيئا بعد شيء . والأمر فى ذلك ظاهر فكأن المشركين أتوا النبى – صلى الله عليه وآله – ، فقالوا : استلم (٢) بعض اصنامنا حتى نؤمن بك ، ونصـدق نبوتك .

---

(١) المرتضى : الشريف المرتضى على بن الحسن الموسوى العلوى . ولد ببغداد فى رجب سنه ٣٥٥ هـ ونشأ بها وتلقى العلم عن علمائها وكان اماما فى التصنيف والفتيا ، وانتهت اليه رأسه الأمامية فى عصره وشدت اليه الرحال لنيل العلم وتوفى فى ربيع الأول سـنة ٤٣٦ هـ ودفن فى كربلاء .

الفهرست لأبى جعفر الطوسى ، وابن خلكان ص ٣٣٦ .

غرر الفوائد ودرر القلائد للمرتضى ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة عيسى البابى الحلبى س ١٩٥٤ م .

(٢) من استلام الحجر وهو التمسح به .

فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » ثم غيروا مدة من الزمان وجاءوه فقالوا له : أعبد بعض آلهتنا واستلم بعض أصنامنا يوما أو شهرا أو حولا لنفعل مثل ذلك بالهك ، فأمره الله تعالى بأن يقول لهم « ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد » أى ان كنتم لا تعبدون الهى الا بهذا الشرط فانكم لا تعبدونه أبدا ·

وقد طعن بعض الناس على هـذا التأويل بأن قال انه يقتضى شرطا وحذفا لا يدل عليه ظاهر الكلام ، وهو شرطه فى قوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد » واذا كان ما نفاه عن نفسه من عبادته ما يعبدون مطلقا غير مشروط فكذلك ما عطفه عليه ·

وهذا الطعن غير صحيح ، لأنه لا يمنع اثبات شرط بدليل ولكن لم يكن فى ظاهر الكلام ، ولا يمتنع عطف المشروط على المطلق بحسب قيام الدلالة · ثم أضاف المرتضى الى ذلك ثلاثة أجوبة ، وصفها بأن كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة (١) ·

أولها ما حكى عن أبى العباس ثعلب (٢) أنه قال : انما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس تحت الأخرى ، وتلخيص الكلام ، قل يأيها

---

(١) ابن قتيبة : ٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ ٨٢٨ ـ ٨٨٩ م

أبو محمد ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى من أئمة الأدب ، ولد ببغداد وتوفى بها وتولى قضاء الدينور مدة فنسب اليها · له كتب كثيرة منها مشكل القرآن ، المشتبه من الحديث والقرآن وغيرهما · انظر الأعلام للزركلى طبعة المطبعة العربية س ١٩٢٧ م ج ٢ ص ٥٨٦ ·

(٢) أبى العباس ثعلب : ٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ ٨١٦ ـ ٩٠٤ م

أبو العباس ، أحمد بن يحى بن زيد بن يسار الشيبانى : أمام الكوفيين

=

الكافرون لا أعبد ما تعبدون الساعة وفى هذه الحال ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فى هذه الحال أيضا ، فاختص الفعلان منه ومنهم بالحال ، وقال من بعد : ولا أنا عابد ما عبدتم فى المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد فيما تستقبلون ، فاختلفت المعانى وحسن التكرار لاختلافها ·

ويعلق – المرتضى على هذا الجواب بقوله « ويجب أن تكون السورة على هذا الجواب مختصة بمن المعلوم من حاله أنه لا يؤمن ·

وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت فى أبى جهل والمستهزئين ، ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد ، والمستهزئون هم : العاصى بن وائل السهمى والوليد بن المغيرة ، والاسود بن المطلب ، والاسود بن عبد يغوث ، وعدى بن قيس ·

والجواب الثانى الذى ذكره المرتضى ، والذى قال عنه أنه جواب الفراء ، يقول : أن يكون التكرار للتأكيد ، قول المجيب مؤكدا بلى ، بلى . والممتنع مؤكدا لا ، لا ، مثله قول الله تعالى : كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون · وأنشد الفراء (١) ·

=

فى النحو واللغة ، مشهور بالحفظ وصدق اللهجة ، ثقة حجة ولد ومات ببغداد من كتبه ، « معانى القرآن ، اعراب القرآن وغير ذلك ، انظر الأعلام الطبعة السابقة ج ١ ص ٨٤ ·

مقاتل : مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء ، أبو الحسن من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ . وانتقل الى البصرة ودخل بغداد فحدث بها وتوفى بالبصرة سنة ١٥٠ هـ من كتبه ، « التفسير الكبير » و « نوادر التفسير » ·

الأعلام للزركلى المطبعة العربية س ١٩٢٨ ج ٣ ص ١٠٦٤ ·

(١) انظر فقه اللغة للفراء أبو منصور الثعالبى الطبعة الأولى المطبعة الأدبية بمصر ص ٣٠٤ ·

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم :

وقال آخر

أردت لنفسى بعض الأمور   نأولى لنفس أولى لها (١)

الى آخر ما ذكره المرتضى من اجابة وتفريعات واعتراضات • وهكذا ترى أن التكرار يأتى أيضا للتأكيد ، والتأكيد من أهم عوامل استقرار الفكرة فى النفس ورسوخها فى القلب رسوخا ينتهى الى الاقتناع بالفكرة والايمان بها •

وللقرآن الكريم أسلوبه العالى فى تكرار الشىء المراد تأكيده ، وتثبيته فى النفس وامتلاكه لها ؛ امتلاكا قائما على أساس عقائدى واعى غير ما يعنيه جوستاف لوبون بقوله : وللتكرير تأثير فى عقول المستنيرين ، وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى ، والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الانسان فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر (٢) •

والقرآن الكريم لم يهدف من وراء التكرار ما ذكره هذا المستشرق من الانتهاء الى التصديق بالمكرر اذا نسى الواحد صاحب التكرار •

فالقرآن بما فيه من أحكام وتشريعات ، وأوامر ونواهى وعقيدة ايمانية ، تعتمد على العقل الواعى القوى السليم ، وليس الايمان بما فى

---

(١) أولى • كلمة تحذير ، قال الأصمعى : معناه قد قاربك ما تكره • انظر أمالى المرتضى • الطبعة الأولى طبعة عيسى البابى الحلبى سنة ١٩٥٤ م القسم الأول ص : ١٢١ وما بعدها •

(٢) انظر روح الاجتماع للدكتور جوستاف لوبون : ترجمة أحمد فهمى زغلول طبعة المطبعة الرحمانية •

القرآن من كل ذلك بحاجة الى أن ينسى المسلم صاحب التكرار حتى يصدق أحكام القرآن وعقائده وتعاليمه، ويؤمن بهاالايمان القوى، الثابت الواعى.

وان كان الأستاذ الدكتور أحمد بدوى قد قال : استخدم القرآن الكريم التوكيد لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه واقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم (١) فالأستاذ الدكتور أحمد بدوى قد طابقت مقالته مقالة المستشرق جوستاف لوبون .

وما أحب أن أذكره أن التوكيد فى القرآن الكريم لم يستخدم لغرض اثبات العقائد واقرار المعانى فى الأفئدة حتى تصبح عقائد ثابتة بسبب هذا التكرار وانما التكرار فى القرآن الكريم تذكير دائم ينبه الغافل ويوقظه من غفوته كالآذان للصلاة فى كل وقت من أوقاتها ، وتذكير المؤمن بأن الله أكبر من كل شىء ، فهيا لتؤدى فرضه ، والمؤمن لم ينس فى وقت من الأوقات أن الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شىء ، وليس تكرار الاذان والتكبير فيه هو الذى أكد للمؤمن أن الله أكبر من كل شىء ، وثبت هـــذا المعنى فى نفس سامعه فاقره فؤاده ، وأصبح عقيدة من عقائدة وانما الآذان اعلام واشعار وتنبيه على أن وقت الصلاة قد حل .

وأيضا فالتكرار فى القرآن هدفه التذكير بانعم الله ســـبحانه وتعالى ليشكر المؤمن ربه على نعمه الوفيرة الكثيرة .

وكذا التذكير بأنه شـــديد العقاب فيراقبه المؤمن فى كل وقت فاذا ما غفل أو سهى قرع القرآن سمعه بما يذكره .

ولقد عاد الأســـتاذ الدكتور أحمد بدوى فذكر أن هدف التكرار فى القرآن الكريم هو التذكير بما يعتقده الانسان ويؤمن به حيث قال : وكررت

---

(١) انظر من بلاغة القرآن للأستاذ الدكتور أحمد بدوى طبعة مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٠ م ص ١٤٣ .

فى سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة ، وهى قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين»(١) واذا نظرنا الى هذه السورة وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر ، وتصفه ، فلا جرم كرر هذا الانذار عقب كل وصف له أو فعل يقع فيه ، أو عمل من الله يدل على قدره ، يحى بها الناس بعد موتهم ، وفى هذا التكرار ما يوحى بالرهبة ، ويملأ القلب رعبا من التذكير بهـذا اليـوم بلا ريب (٢) ٠

ولو تأملت آية من الآيات التى كررت مثل قول الله سـبحانه وتعالى فى سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، حيث كررت هـذه الآية نيف وثلاثين مرة ، لو تأملت هذا التكرار لرأيت مدى ماله من عظمة ودلالة وتذكير وحث على أنه لا يليق بمن يعقل أن يغفل عن نعم الله سبحانه وتعالى ، وهى ماثلة أمام عينيه فى كل شىء فمن أنكرها فقـد أنكر عقله وادراكه ٠

يقول المرتضى : فأما التكرار فى سورة الرحمن ، فانما حسن للتقرير بالنعم المختلفة المعـددة ، فكلما ذكر نعمة أنعم بهـا قرر عليها ووبخ على التكذيب بها ، كما يقول الرجل لغيره : ألم أحسن اليك بأن خولتك الأموال ألم أحسن اليك بأن خلصتك من المكاره : ألم أحسن اليك بأن فعلت بك كذا وكذا ! فيحسن منه التكرير لاختلاف ما يقرره به ٠

وهذا كثير فى كلام العرب وأشـعارهم ، قال مهلهل بن ربيعة يرثى أخاه كليبا (٣) ٠

---

(١) الآيـات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ من سورة المرسلات ٠

(٢) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى طبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٠ م ص ١٥٣ ٠

(٣) من قصيدة مشهورة رثى بها مهلهل أخاه ، وهو الذى ثارت لأجله حرب البسوس ، انظر أمالى المرتضى طبعة دار احياء الكتب العربية القسم الأول ص ١٢٤ وما بعدها ٠

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا طرد اليتيم عن الجزور

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا ما ضيم جيران المجير

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا رجف العضاه من الدبور(١)

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا خرجت مخبأة الخدور

على أن ليس عدلاً من كليب ... اذا ما أعلنت نجوى الأمور

الى آخر هذه الأبيات التى كرر الشاعر فيها الشطر الثانى ثمانى مرات فى ثمانية أبيات متتالية ·

ذكر المرتضى ما قالته ليلى الأخيلية ترثى توبة بن الحمير ، وقد كررت قولها : نعم الفتى ياتوب خمس مرات فى أربعة أبيات متتالية ، كما كررت قولها ، لعمرى لأنت المرء أبكى لفقده · وهو الشطر الأول من أربع أبيات متتالية ·

يقول المرتضى معقبا على هذا التكرار ، فخرجت فى هذه الأبيات من تكرار الى تكرار لاختلاف المعانى وهذا المعنى أكثر من أن نحصيه (٢) ·

ويقول الامام عز الدين بن عبد السلام (٣) : من مقاصد القرآن الكريم التكرار · وما دال على الاعتناء والاهتمام بالمكرر ، فتكرير صفات

---

(١) رجف : تحرك حركة شديدة ، والعضاه ، كل شجر له شوك . « أى كان الزمان شتاء »

(٢) انظر أمالى المرتضى القسم الأول ص ١٢٦ ·

(٣) أبى محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام المصرى الشافعى الدمشقى امام عصره بلا مدافع ولد سنة ٥٧٧ هـ أو سنة ٥٧٨ تفقه على الشيخ فخر الين بن عساكر وقرأ الأصول على سيف الدين الآمدى وغيرهما . توفى سنة ٦٦٠هـ ·

أنظر الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٢٣٣ ، ب ٣٥٣٠٠ ·

الله دال على الأعتناء بمعرفتها ، والعمل بموجبها ، وتكرير القصص دال على الاهتمام بالمواعظ للايقاظ والاعتبار ، وفائدة تكرير القصص تطرئة المواعظ وتشديدها لأن منها ما يحث على الطاعة ، والايمان ومنها ما يزجر على الكفر والعصيان •

وكذا تكرير الوعد والوعيد ، وكذا تكرير ذكر الأحكام • وكذا تكرير المدح والذم ، وما يترتب على المأمورات والمنهيات من المؤكدات المذكورات •

فتكرير الوعد يدل على الاهتمام بفعل الطاعات ترغيبا فى ثوابها وتكرار الوعيد يدل على الاهتمام بترك المخالفات ترهيبا من عقابها ، وتكرير القرآن بين الوعد والوعيد يدل على الاهتمام بوقوف العباد بين الخوف والرجاء فلا يقنطوا من رحة الله وأفضاله ، ولا يغتروا بحلمه وامهاله •

وتكرير الاحكام يدل على الاعتناء بفعل الطاعات ، واجتناب المخالفات وتكرير الأمثال يدل على الاعتناء بالايضاح والبيان ، وتكرير تذكير النعم يدل على الاعتناء بشكرها •

واعلم أنه لا تؤكد العرب الا ما تهتم به ، فان من اهتم بشىء أكثر من ذكره وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد ، وكلما خف ، خف التأكيد وان توسط الاهتمام توسط التأكيد •

ثم يقول ، أما قوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فيجوز أن تكون مكررة على جميع أنعمه ، يجوز أن يراد بالأولى ما تقدمها من النعم ، وبالثانية ما تقدمها ، وبالثالثة ما تقدم على الأولى والثانية ، وبالرابعة ماتقدم على الأولى والثانية والثالثة ، وهكذا الى آخره •

فان قيل كيف يكون قوله « سنفرغ لكم أيها الثقلان » (١) نعمة ،

---

(١) الآية ٣١ من سورة الرحمن •

وقوله « يعرف المجرمون بسيماهم » (١) نعمة ، وكذلك قوله « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون » (٢) وقوله « يرسـل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » (٣) وقوله « يطوفون بينها وبين حميم آن » (٤) .

قلنا هذه كلها نعم جسام لأن الله هدد العباد بها استصلاحا لهم ليخرجوا من حيز الكفر والطغيان ، والفسوق والعصيان ، الى حيز الطاعة والايمان ، والانقياد والاذعان ، فان من حذر من طرق الردى ، وبين ما فيها من الأذى ، وحث على طريق السلامة الموصلة الى المثوبة والكرامة . كان منعما غاية الانعام . ومحسنا غاية الاحسان .

ومثال ذلك قوله « كل من عليها فان » (٥) فانه تذكير بالموت والفناء للترغيب فى الاقبال على العمل لدار البقاء فى الاعراض عن دار الفناء (٦)

ويقول المرتضى : فان قيل ، اذا كان الذى حسن التكرار فى سورة الرحمن ما عدده من آلائه ، ونعمه فقد عدد فى جملة ذلك ما ليس بنعمة وهو قوله : «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران (٧)» وقوله « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » (٨)

---

(١) من الايه ٤١ من سورة الرحمن .
(٢) الايه ٤١ من سوره الرحمن .
(٣) الايه ٣٥ من سورة الرحمن .
(٤) الايه ٤٤ من سورة الرحمن .
(٥) الايه ٢٦ من سورة الرحمن .
(٦) انظر الاشارة الى الايجاز فى بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام ص ٢١٧ وما بعدها .
(٧) الآية رقم ٣٥ من سورة الرحمن .
(٨) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الرحمن : الحميم هو الماء الحار ، والآنى : الذى بلغ نهايته .

فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وليس هذا من الآلاء والنعم ؟ .

قلنا : الوجه فى ذلك أن فعل العقاب وان لم يكن نعمة فذكره ووصفه والانذار به من أكبر النعم ، لأن فى ذلك زجرا عما يستحق به العقاب ، وبعثا على ما يستحق به الثواب ، فانما أشار بقوله تعالى « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ـ بعد ذكر جهنم والعذاب فيها ـ ، الى نعمته بوصفها والانذار بعقابها ، وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة (١) .

ويقول الدكتور أحمد بدوى : وهنا يحسن أن أقف مشيرا الى ما قد يبدو أحيانا من أن لا وجه لهذا التساؤل بعد بعض أيات السور كما يتراءى ذلك فى قوله سبحانه وتعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان (٢) » فأى نعمة يذكر بها الجن والانس فى فناء هذا العالم ؟ ولكن تأملا فى هذه الآيات وما ورد من السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأهواله ، يدل على أن مثل هذا السؤال يوم تنشق السماء ، ويوم يعرف المجرمون بسيماهم ، أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلا كما أوحى القرآن بذلك فى تلك الآلاء والنعم ، فيقوم بواجب الايمان بالنعم وشكرها حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب الله الثقلين .

ثم يقول : وكررت فى سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة وهى قول الله تعالى « ويل يومئذ للمكذبين » واذا نظرنا الى هذه السورة وجدناها

---

(١) انظر امالى المرتضى على بن الحسن الموسوى العلوى المتوفى سنة ٤٣٦هـ تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل القسم الأول ص ١٢٧ طبعة دار احياء الكتب العربية .

(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الرحمن .

تتحدث عن وقوع اليوم الآخر ، وتصفه ، فلا جرم كرر هذا الانذار عقب كل وصف له ، أو فعل يقع فيه ، أو عمل من الله يدل على قدرة يحي بها الناس بعد موتهم ٠

وفي هذا التكرار ما يوحى بالرهبة ، ويملأ القلب رعبا من التكذيب بهذا اليوم بلا ريب (١) ٠

وهذا اللون فى القرآن الكريم كثير ٠ ومنه ما جاء فى سورة الشعراء من قول الله سبحانه وتعالى « انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون » حيث تكررت هذه الاية خمس مرات (٢) ، وتكرارها يهدف الى تأكيد صدق الرســـل فيما جاءوا به من عند ربهم ، مما يوجب اتباعهم ، والعمــل بما جاءوا به من شرائع وأحكام ٠

ومن هذا اللون ايضا ما جاء مكررا فى القرآن الكريم من صفات الله سبحانه وتعالى مثل « ان الله شديد العقاب ، فلقد تكررت فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة (٣) وقوله تعالى : ان الله غفور رحيم ، « فلقد تكررت فى القرآن اثنان وسبعون مرة ، وغير ذلك من صفات الله سبحانه وتعالى التى كررها القرآن الكريم فى شتى آياته لتستقر فى النفس ، وينم الايمان بها ، وتقر النفس بالقدرة الربانية ، والعظمة الالاهية ، فتســير عــلى نهج شريعة السماء رهبا ورغبا طمعا وخشية رجاء وخوفا ، وما الى ذلك مما يهدف اليه القرآن ويحث عليه ٠

---

(١) من بلاغة القرآن للدكتور احمد بدوى ص ١٥٣ ٠

(٢) الآيات ١٠٨ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ٠ ١٧٩ من سورة الشعراء ٠

(٣) فى الآيات ١٩٦ ، ٢١١ من سورة البقرة ، ١١ من آل عمران ، ٢ ، ٩٨ من المائدة ، ١٣ ، ٢٥ ٠ ٤٨ ٠ ٥٢ ٠ من الانفال ٠ ٦ من الرعد ٠ ٣ ، ٢٢ من غافر ، ٤ ، ٧ من الحشر ٠

وهذه أسرار عاليه تتبعها علماء الاسلام ، محاولين كشف النقاب عنها وبيان ما فيها من اعجاز قرآنى بليغ كريم ، وأيضا بيان ان هذا التكرار الذى جاء فى القرآن الكريم تكرار لفظى فى الظـــاهر فقط ، لكن الحقيقة توضح أنه ، بعيد كل البعد عن تكرار العبارة بلفظها ومؤداها دون مناسبة فلكل كلمة مناسبتها ، وسياقها المغاير لسياق ومناســبة ما شـــابهها وللجملة ما يتطلبها ويقتضيها ، ويدعو الى ذكرها فى صورة كأنها تكرار كامل لما سبقها ، لكنها فى الحقيقة تكرار وتشابه لفظى ظاهرى واحكام واعجاز حقيقى خاف لا يكشف عنه النقاب الا من بلغ الدرجة العالية من البلاغة ويسر الله له سبيل الهدايه والمعرفة • وهكذا • انما يخشى الله من عباده العلماء » (١) •

فهذا هو الكرمانى يتحدث عن بيان ما تشابه من تكرار كلمة الميزان ثلاث مرات فى قوله تعالى : « والسماء رفعها ووضع الميزان ، الا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (٢) •

يقول الكرمانى أعاد كلمة الميزان ثلاث مرات ، فصرح ولم يضـــمر ليكون كل واحد قائما بنفسه غير محتاج الى الأول ، وقيل لأن كل واحد منهم غير الأخر • الأول ميزان الدنيا ، والثانى ميزان العقبى ، والثالث ميزان العقل ، وقيل نزلت متفرقه فاقتضى الاظهـــار (٣) والكرمانى يبين سبب ذكر الميزان ثلاث مرات بهداف اثبـــات أن هذا وان كان تكرارا فى الظـــاهر الا أن كل ميزان منهـــم غير الأخر ، فهم وان اتفقوا فى اللفظ

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة فاطر •
(٢) الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ من سورة الرحمن •
(٣) انظر : البرهان فى متشابه القرآن عند الحديث عن هذه الآيات من سورة الرحمن •

متغايرون فى الدلالة ، كل منهم له كيفيته ، وزمانه ، ومكانه ، وخصوصياته وما يوزن ومن يزن به ٠

والخطيب الاسكافى يدلى برأيه فى الحديث عن بيان أسباب هـذا التكرار حين يقول : للسائل أن يسأل عن اعادة ذكر الميزان ثلاث مرات فى أواخر هذى الآى ، وقد كان حقها الاضمار ، وهل فى اختيار الكلام أن يتكرر فى موضع السجع ــ فى النثر ــ والقافية ــ فى النظم ، مثله ، أو فى ثلاثة أســـجاع متوالية أو ثلاث قواف متراطئة حتى يرتضى فى ثلاث فواصل مترادفة ٠

والذى أجاب به عن ذلك أهل النظر ، أنه أعيد ذكر الميزان لأن هذه الآيات لم تنزل معا فى وقت واحد ، ولو نزلت معا لاضمر ذكر الميزان ، ولكنها لما نزلت متفرقة لم يجز الا اظهار ذكر الميزان ، لأنه لم يجد له ذكر فى كل وقت أنزلت فيه احدى هذه الآيات ٠

ويذكر الخطيب جوابا ثانيا ذكره من سبقوه فيقول : وأجيب عن ذلك بجواب آخر وهو أن يكون أعيد ذكر الميزان لتكون كل آيه مستقله بنفسها ، غير مفتقرة الى غيرها ، اذ الاضمار تضمن الثانى الأولى ، فلا يقوم الثـانى بنفسه ، ولا الثالث لو أضمر ٠ فيها ذكر الأول ٠ ويرى الخطيب فى هذين الجوابين أنهما غير شافيين ، ولا رافعين للشبه ، فما زالت شبهه التكرار قائمة ٠

ويجيب الخطيب على اعادة ذكر الميزان ثلاث مرات فى أواخر هـذه الآيات بقوله : والجواب الذى يعتمد هو أن يجعل لـــكل واحد معنى غير معنى الآخر ، ويشرح الخطيب هـذا الجواب ويفصله بالحديث عن كيفية الخلقة ورفع السماء ، وتركيب البنية المعتدلة للانسان الذى خلق من أمشاج وتأليفات مختلفة، على اعتدال من حرارة وبرودة، ورطوبة ٠ويبوسة الى آخر ما ذكره الخطيب ، الى أن يصل فى نهاية مقالته الى قوله : فالميزان

الأول • «بنية الاعتدال وهى بنية الانسان على الوصف الذى ذكرنا ، والميزان الثانى : الحكم بالعدل ، والثالث ، آله التعديل وهى التى يقطع بها ، الأخذ والعطاء ، فتبين بها مقادير الحقوق ليقتصر كل ذى حق على قدر ما يجب له منها فلا يأخذ أكثر من ماله ولا يعطى أقل من ما يجب عليه وهو القسط الذى أمر الله تعالى به المتبايعين ، لارجحان ولا نقصان ، وينتهى الخطيب الى نتيجة قوله هذا كله بقوله •

واذا كان كذلك لم يكن فى اعادة لفظ الميزان تكرار اذا كان الأول لمعنى غير معنى الثانى ، والثانى لمعنى غير معنى لثالث ، كما تخرج القرافى عن الابطاء اذا اتفقت الفاظا واختلفت معانيا (١) •

وهكذا تتبع الكرمانى والخطيب ما جاء فى القرآن الكريم من تكرار لفظى ، مبينين أن العبارات التى اتفقت فى ألفاظها فى مواضع مختلفه قد تغايرت واختلفت فى مدلولها ومعناها فى كل موضع من هذه المواضع عن سوابقها ولو أحقها مما شابهها وهذا مثال آخر لما قاله الخطيب والكرمانى يظهر وضوح هذه الفكرة لديهما وبيانها مفصلة فى مقالتيهما •

يقول الكرمانى عند حديثه عن تكرار كلمة الناس فى قوله تعالى « قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، اله الناس ، من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » (٢) •

يقول الكرمانى : كرر الناس خمس مرات ، قيل • تبجيلا لهم ، وقيل كرر لانفصال كل آية عن الأخرى لعدم حرف العطف •

---

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ، للخطيب الاسكافى الطبعة الأولى طبعة الخانجى سنة ١٩٠٨م ص٣٥٤ وما بعدها •

(٢) الآيات من ١ ـ ٦ من سورة الناس •

وقيل : المراد بالأول الأطفـــال ، ومعنى الربوبية يدل عليه وبالثانى الشبان ، ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه ، وبالثالث الشيوخ ، ولفظ الاله المنبىء عن العبادة يدل عليه وبالرابع الصــالحون والأبرار ، والشيطان مولع باغوائهم وبالخامس ، المفسدون والأشرار وعطفه على المعوذ منهم يدل على ذلك ، والكرمانى وان كان يحكى ما قيل من آراء ، ولم يعلق على أحد الأقوال ، الا أنه يفهم ارتضاء الكرمانى للرأى الاخير ، لأنه ختم به حديثه ، أيضا يدل على هذا أن الكرمانى ألف كتابه لتوجيه ما تشابه فى اللفظ من كلمات القرآن وآياته محاولا توضيح سـبب تشـابهها وشرحه وآبانته ٠

ويقول الخطيب فى حديثه عن تكرار كلمة الناس : للسائل أن يسأل عن تكرار الناس فى فواصل هذه السورة فى خمسة مواضع ، وهى ست آيات قد ختمت أواخر خمس منها بالناس ، وواحدة ، بالخناس ٠

والجواب عن ذلك أن يقال : انما اتصف الله تعالى أولا برب الناس ، ثم بملك الناس ، ثم باله الناس ، لحكمة دعت الى ذلك وأوجبت تقـديم الأول وتعقيبه بالثانى ، والثالث على الترتيب الذى جاء لأن رب الشىء هو القائم باصلاحه وتدبير أمره ، وهذه أولى أحواله ، والثانية انعـامه عليه بالعقل الذى ثبتت عليه ملكته له ، فعلم أنه عبد مملوك ، أن الذى بلغ به تلك الحال من حد الطفولة هو الذى يملكه وأمثاله ، فجعل الوصف الثانى ملك الناس ٠

ولما كان بعد ذلك تكليف العبادات التى هى حق الله تعالى على من عرفه نفسه أنه عبد مملوك ، وعرفه أنه عز وجل خالقه ، وتلزمه طاعتة ، ليلتزم غاية التزلل لمن له أكبر الانعام والتطرل جعل الوصف الثالث ، اله الناس ، فصار الناس الذين أضيف أليهم رب ، كأنهم غير الناس الذين أضيف اليهم ملك ، والذين أضيف اليهم ملك غير الذين أضيف اليهم اله ٠

واذا أريد بالثانى غير الأول لم يكن تكرار ، بل يكون كأنه قال قل أعوذ برب الأجنه والأطفال الذين ربهم ، ورباهم وقت الانشاء والتربية ، وحين لم يقدر آباؤهم لهم على التغذية ، وبمن بلغ بالرالدين حدا عرفوه فيه بالملكة وانفسهم بالعبودية ، ثم اله المكلفين المعرضين لأكبر النعم ، وهم الذين بلغوا وقاموا بأداء ما كلفوا ، فترتيب الصفات تنبيه على أن المراد بالناس ذوو الأحوال المختلفة فى الصغر والترعرع والبلوغ ، فسلم على ذلك من التكرار ، وينص هذا المعنى اللطيف الذى دل عليه ترتيب الصفات تعالى الله كلامه عن المعاب •

وقوله : « الذى يوسوس فى صدور الناس » ، فالمراد بالناس الأول الأبرار ، وبالناس الثانى الأشرار ، فكان المعنى الذى يوسوس فى صـدور الناس الأخيار من الجن وأشرار الناس ، فقد صار المعنى بكل واحد على صفة غير الصفة المعنى بالأخر • فكأنه يميزه ، وان كان الجنس قد جمع هذا كله (١) •

من هذا يتضح أن هذه الكلمات والجمل والآيات التى تكررت ، وان اتفقت فى الفاظها وحروفها ، ومخـارجها ، الا أن معنى كل منها ومرجعه ومناسبته وسياقه غير معنى ومرجع ومناسبة وسياق ودلالة الأخر •

كل منهن تشابه شقيقتها فى شكلها ، وتغايرها وتختلف عنها فى دلالتها ومؤداها فلا تشابه اذا ولا تكرار ، وانما احكام واعجاز ، فاق كل طاقات البشر وقدراته « انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون » (٢) « لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٣) « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤) •

---

(١) انظر درة التنزيل وغرة التأويل ، الخطيب الاسـكافى ، الطبعة الأولى طبعة الخانجى سنة ١٩٠٨م ص ٣٩٨ •

(٢) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة الواقعة •

(٣) الآية ٤٢، من سورة فصلت •

(٤) من الآية ١ من سورة هود •

ومع هذا أيضا فتكرر الكلمات أو الجمل أو الايات هذا التكرار اللفظى ليس تكرارا ممجوجا ثقيلا ساقطا ، وانما هو اعجاز بلاغى عظيم ·

والقرآن الكريم وان سلك هذا المسلك الذى عرفته العرب وجاء فى كلامهم · نثرا ونظما الا أنه بعد به كل البعد عن اضطراب النظم وثقـــل الأسلوب وخلل الترابط وقلق الفكرة ، ورعشة اللسان مما يلحق الكلام المكرر فيجعله جافيا خشنا كالحا مضطربا ، وجعل القرآن الكريم من هـذا التكرار سرا من أسرار اعجازه ، فلقد أتى من المورد الذى يأتى منه الاسلوب ثقيلا مضطربا مفككا ، أتى من هذا المورد باسلوب معجز فى نظمه ، متجانس فى تركيبه ، متسق فى كلماته متماسك فى أفكاره ، محكم فى موضـــعه ومعناه ، وصدق الله العظيم : قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون (١) « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجـــدوا فيه اختـلافا كثيرا » (٢) ·

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر ·
(٢) الآية ٨٢ من سورة النساء ·

الفصل الثاني

من أسرار التكرار في القرآن الكريم

قد يعرض سؤال من هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالكره للحق أو من الذين خفقت عقولهم عن ادراك النور ، وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ، وقد تسلم العين لكن القلب قد عمى . فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (١) .

قد يأتى من هؤلاء من يسأل ، أما كان من الممكن ألا يأتى فى القرآن تكرار لبعض الفاظه وآياته ؟ أما كان من الممكن أن يعبر عن الألفاظ والآيات التى تكررت بالفاظ مساوية لها فى المعنى ، مغايرة لها فى اللفظ ؟ أليس فى اللغة العربية ما يدل على معنى « ويل يومئذ للمكذبين » و « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بدلا من اعادتهما وغيرهما بنفس الألفاظ ؟؟ ولو حدث هذا أفلم يكن أخف شدة من هذا التكرار العنيف ؟ والجواب سهل ميسور، ليس فى حاجة الى اعمال الفكر واجهاده ، وانما بقليل من الانصاف واقرار الحق يظهر الجواب .

فالله سبحانه وتعالى الذى أنزل هذا القرآن هدى ورحمة وعظة وعبرة وجعله شفاء لما فى الصدور ، لو أراد أن يأتي به من غير أن تكون فيه لفظه واحدة تشبه الأخرى فى لفظها ، فجاء به كما اراد ، ولهيأ له من الألفاظ ما يعبر عن كل معنى فيه ، دون ما أدنى شبه لفظى ، ولبنى أى سورة من السور التى تشابهت فيها بعض الألفاظ أو الآيات ، على نظم غير نظمها ، ونسق غير الذى هى عليه ، مع الابقاء الكامل للمعنى الذى تؤديه الآية أو السورة بنظمها الذى هى عليه الآن أو ليس الذى خلق ملايين البشر دون

---

(١) من الآية ٤٦ من سورة الحج .

ما تشابه لما عليه أصابع كل منهم بل لما عليه أصابع المرء نفسه . ولو أراد لسواها ـ بلى قادرين على أن نسوى بنانه (١) ـ أليس بقادر عن أن يأتى بالقرآن كما تقولون دون ما تكرار لفظى و تشابه لتراكيب الكلمات والآيات ، « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » (٢) سبحانه « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » (٣) « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (٤) ٠

لكنه سبحانه وتعالى ، جاء فى القرآن الكريم بهذا التكرار اللفظى ، لحكمة عالية وغاية سامية وتدبير لطيف منه سبحانه هو اللطيف الخبير ، قد هدانى لادراك بعض ما فى التكرار اللفظى فى القرآن الكريم من حكمة وسر وبيان ٠

أولا : التكرار فى القرآن الكريم ـ بمعناه الذى تحدثت عنه ـ دعوة الى التفكير والتدبر ليقتنع العقل فيثبت القلب على شريعة الحق ، وهذا هو الغرض السامى الذى جاءت الدعوة الاسلامية لتقيمه ، وتثبت دعائمه وتدعو الى التمسك به والحرص عليه ، من أجل هـذا كله جاء القرآن الكريم بالتكرار ، الذى هو العامل الأقوى القادر على بث هذا الغرض وغرس وتعميق جذور ما تحمله العبارة المكررة من المعانى فى نفس السامع وكيانه ، ويجعل التكرار من العبارة هاتفا ملحا يتردد هتافه فى همس واعلان ، على ضمير الانسان ليوقظه ويبعث فيه الحياة ٠

وليس بعيدا ولا خاف ما لأجهزة الدعاية والاعلام من تأثير قوى على عقل ونفسية السامع ، أو المشاهد أو القارىء ٠

---

(١) الآية ٤ من سورة القيامة ٠
(٢) من الآية ٨١ من سورة يس ٠
(٣) الآية ١٨ من سورة الأنعام ٠
(٤) الآية ٨٢ من سورة يس ٠

فالقائمون على أمر هذه الأجهزة بعد دراستهم لأحدث أساليب الاعلام والرعاية وجدوا أنها تؤتى ثمارها وتحقق أغراضها وتؤديها فى أعلى صور الأداء بتكرار الفكرة المراد تثبيتها فى الذهن تكرارا دائما وبنفس الألفاظ والصور والأشكال حتى تنطبع فى عقل كل من يعايشها أويسمع بهافيرددها بينه وبين نفسه حتى تصبح جزء من كيانه وحياته •

مع أن الذى تدعو اليه أجهزة الاعلام وتروج له ، فى الغالب ما يكون بضاعة كاسدة ، وسلعة تالفة ، وتجارة ركيزتها الغش والخداع ، وليس هذا فقط • بل والداعون والمروجون لهذه البضـاعة كذابون منافقون ، مأجورون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يعتقدون ، ومع هذا كله ترى دعوتهم واعلامهم قد أتيا بكثير من ثمارها ، وهى وان كانت ثمارا وزهورا لا تبقى طويلا ولا تعمر دائما الا أن هذا راجع الى طبيعتها وأصلها ومنبتها أما الأعلام عنها فقد جاء بثماره وحقق أهدافه •

اذا كان هذا كله ثمرة تكرار الاعلان ، وفيه كل ما ذكرته فكيف اذا تكون النتائج اذ ما كانت البضاعة نظيفة طاهرة ربانية توهب ، ولا تباع • تهدف خير الانسان ، وسعادته ، ورقى المجتمع وسلامه وأمنه ، تحطم القيود وتصون الحريات ، وتغرس العدل والمساواة ، والحب والسلام •

وكان الدعاة القائمون على أمرها ، أخلص ما تكون الدعاه وأصدق ما تكون الرسل ، وأطهر ما يكون الانسان ، لا يبغى شيئا من عرض الدنيا، وانما كل ما يهدف اليه سعادة الانسان والرقى به الى حيث أراد الله له أن يكون ، « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (١) •

مما لا شك فيه أن نتائج هذه الدعوة وثمار تكرارها ، ستؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، شهية نقية هنيئة مريئة ، وأن هذه المعانى التى حملتها

---

(١) الآية ٤ من سورة التين •

هذه الألفاظ التى كررت ورددت فى أكثر من موضع ، ستعلو وتزهو ، ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (١) .

وهكذا نجد أن الثمرة الأولى للتكرار هى دعوة الفكر والعقل الى البحث والتدبر واستثارة الهمة وشحذ الذهن حتى يصل بالانسان فى النهاية الى الاعتقاد الثابت القوى الذى لا تزعزعه العواصف ولا تعبث به الرياح وأن كان بعض المستشرقين قدأنكر على التكرار هذا المعنى وركز هدف التكرارفى توطيد المعايير الحديثة للتقوى ، والأخلاق فهذا أحدهم (٢) يقول : يجب الا يفوت عن البال أن محمدا انما كان يبغى أن يعلم وأن يصلح ، والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهمـا فى ذاتـه الى التكرار بل الى التكرار بنفس الألفاظ تقريبا ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل صلاح أمرنا ولا ابتغاء التهذيب الخلقى لنفوسنا ، تساورنا آمال خاطئة حين ننظر فى كثير من فقرات الكتاب ـ فان كثيرا من الآيات لم يكن قصد النبى من تلاوته الى الناس هو الاستثـارة الذهنية ، بل توطيد معايير جديده للتقوى والأخلاق ثم يقول : يستشهد المستشرق بما قاله أحد كتاب المسلمين فيقول : هـذا أحد كتاب المسلمين (٣) فى القرن العاشر يقول : لأن الانسـان قد يقرأ بعض القرآن ويحفظ شيئا منه دون شىء فلم يخل الله عز وجل كل موضع

---

(١) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة ابراهيم .

(٢) الأستاذ المستشرق جرستف فون جرونيباوم ، ولد بالنمسـا وحصل على درجة الدكتوراه فى الدراسات العربية من جامعة فينا ، انظر حضارة الاسلام ، نشر مكتبة مصر الطبعة الثانية ، الكتاب الثانى من مجموعة الألف كتاب ، ص ١٠٩ .

(٣) أبو بكر الصولى المتوفى سنة ٩٤٦ هـ انظر فى أدب الكتاب طبع القاهرة سنة ١٣٤١ هـ ص ٢٢٩ وانظر المصدر السابق ص ١٠٩ .

منه من ترغيب وترهيب • واذكار واعتبار تفضلا منه على عباده واستدعاء لطاعتهم ، ونهيا عن عصيانهم ، فوقع التكرار لذلك » •

وهذا المستشرق نفسه هو الذى قد حكم على ما قاله وهذا الحكم قد جاء فى عبارته الأخيره يقول : وذلك أنه ما من أحد سيعى قلبه الا القليل من نذر القرآن وأمثاله عند القراءة الأولى (١) •

وهذا هو [illegible] ـدث فعلا لهذا المستشرق لأنه لو فهم حقيقة رسالة محمد ودوره فى تبليغ القرآن للنـاس ولو فهم حقيقة القرآن وأنه من عنـد الله سبحانه وتعالى ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يكن ليسـتطيع ـ كما هو ثابت ـ أن يأتى بشىء من عنده يضيفه الى كلام الله سبحانه وتعالى على أنه من القرآن لو فهم المستشرق شيئا من هذا لما قال : ان محمدا أتى بالتكرار لأنه كان يبغى أن يعلم وأن يصلح « فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بشىء من عنده • بل ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينهى أصحابه أن يكتبوا شيئا من الحديث الشريف كى لا يختلط على من يأتى بعدهم بأنه من القرآن الكريم •

وان احتاج الأمر لكتابة شىء فانه كان يبين أن هذا ليس قرآنا وانما هو كتاب لغرض من أغراض دعوة أحد من الملوك أو غيرهم •

وكأن هذا المستشرق قد حسب أن الرسول صلى الله عليه وسلم مثل هؤلاء الذين يعيشون حول هذا المستشرق من رجالات الدين الأوربيين ، الذين يأتون من عندهم بما ينسبونه الى الانجيل كل منهم يقول ما شـاء ويضيف ما يريد ، ويزيد وينقص حسب هواه •

---

(١) انظر حضارة الاسلام ص ١٠٩ •

أما علم هـــذا المستشرق أن القرآن الكريم كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وما كان للرسول صلى الله عليه وسلم ولا لأحد غيره مهما كان شأنه أن يضيف حرفا أو أن ينقص حرفا من كتاب الله سبحانه وتعالى ، وهذا الأمر ثابت ومعروف ، وهكذا يجب الا يعزب عن البال أن القرآن الكريم أبعد ما يكون عن كل ما توهمه هذا المستشرق ، أن القرآن الكريم انما يبغى أن يعلم ويصلح لـذا جـاء فيه التكرار ، الذى يستثير العقل والفكر ويصل بهما فى النهاية الى الاقتناع القوى الثابت .

والتكرار فى القرآن الكريم بالاضـافة الى ما يهدف اليه من تهذيب خلقى لا يطلبه المستشرق لنفســه ولا لقومـه ـ فهو نظم بديع أعجز أرباب البلاغة والفصاحة ، فاعترفوا بفضله ، وهم كفره على مذهب قومهم فقالوا : ان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمونق ، وان أسفله لمغدق ، وما هو بقول البشر ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه .

ثم أيضا ، أثر هذا الاعجاز القرآنى قد أنطق الحق فى نفوس كثير ممن كانوا كفارا فلما شـاهدوا نوره وتذوقوا حلاوته لم يملكوا الا الاعتراف بالحق .

ابن الخطاب وهو الذى ذهب ليرجع أخته وزوجها عن القرآن وشريعته، فان أبيا قتلهما ، واذا بكلمات القرآن الكريم تهز قلبه ، وتفتت جحود نفسه، وتعدل كيانه ، فلا يستطيع الا النطق بالحق ، فقرابان هذا الكلام ليس من عند بشر ، انه كلام من عند مالك القوى والقدر قيـوم الســماوات والأرض ، ويعلنها ابن الخطاب الى سمع الدنيا تغير أحداث الزمن ، لا اله الا الله محمد رسول الله .

ويكفى من هذا المستشرق أن يعترف بما للتكرار من أثر نفسى ووقع من القلب والوجدان ، وأنه أرفع الطرق وأعلاها ، فى مناهج طرق الدعوى

لاصلاح القلوب ، والسمو بالنفوس ، وغرس الحق ، ونشر الفضيلة بين الناس ٠

فالتكرار اللفظى فى القرآن الكريم ، دعوة الى ايقاظ الفكر لكى يتدبر ويعى فيثبت القلب على شريعة الحق ٠

ثانيا : يهدف القرآن الكريم من التكرار اللفظى لبعض الفاظه وآياته جذب العقول والاستيلاء عليها بهذا التكرار الذى ما جاء فى أشعارهم وأحاديثهم الا لأمر جلل وحدث عظيم خطير لذا استحوذ على كل اهتمامهم ، واستعدوا له استعدادا نفسيا وعقليا ووجدانيا ، غير استعدادهم العادى لسماع الأخبار والأحاديث والأشعار ، هدف التكرار أن يعرف ما جاء به من أحكام وتشريعات وعبر وآيات ، ترغيبا وترهيبا ويستقر هذا كله فى عقولهم وأفئدتهم ٠

بخلاف ما لو جاءت هذه العبر ، وتلك الاشارات اليها فى سياق أسلوب مألوف ليس فيه من الجرس ما يقرع القلوب ويهز النفوس ، فقد يغفل عنه من يسمعه أو ينشغل بغيره ، أو يقابله بعقل فاتر ، ولب شارد ، وقلب موصد ٠

ولقد كانت قلوب كثير منهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، والتكرار جاءهم كهدير المدافع ، ودوى القنابل الذى يفتت هذه القلوب الصلبة « وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله »(١) ، وهكذا جاء التكرار علاجا لمثل هذه القلوب الموصدة ، ولابد لطارق الباب من أن يسمع طرقه فتتفتح له الأبواب

---

(١) من الآية ٧٤ من سورة البقرة ٠

ويلج الصدور ويستولى على الأسماع ، ويثب على العقول التى أراد الله سبحانه وتعالى لها الهداية ·

انظر ما جاء فى سورة المرسلات من قول الله سبحانه وتعالى « ويل يومئذ للمكذبين » (١) فهذه الآيات لها من الوقع القوى العنيف ، والدوى والهدير ، ما يزلزل القلوب ويملأها هلعا وفزعا وخوفا وخشية ، فالتوعد بالويل بألوانه وما فيه ، للمكذبين ووقوعه عليهم فى اليوم الآخر ، يوم الصاخة ، يوم الحاقة · « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٢) ·

وتكرار هذا التوعد مرة بعد أخرى ، وكونه يأتى فى هذا الثوب من الانذار الالهى ، ووعيد القادر القوى ، بعد تصوير ما عليه الحال فى الآخرة ، ووضوح الحق ، وانكشاف حال المكذبين الكافرين ، وسوقهم الى جهنم « انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، انها ترمى بشرر كالقصر ، كأنها جمالت صفر » (٣) ·

بعد الحديث عن كل هذا [illegible] وصف هذا الموقف العصيب وبيان حال جهنم وخطرها ، يأتى الانذار والوعيد ، كأنه الصاعقة على الكافرين والجاحدين ، « ويل يومئذ للمكذبين » ·

ولو أن هذا الوعيد اختلفت ألفاظه فى هذه السورة من مكان ومن موقف الى آخر ، لوهن وقعه ، وقل تأثيره ، لأن انتقال السامع بين لفظ

---

(١) تكررت هذه الآية من سورة المرسلات عشر مرات ·
(٢) الآيات من ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس ·
(٣) الآيات من ٢٩ - ٣٣ من سورة المرسلات ·

وآخر ، قد يشغله اختلاف الصوت ، ويوهن من تأثره النفسى ، بل قد يجد بعض الراحة النفسـية ولو لحظات ، حين ينتقل الذهن بين معانى الألفاظ المختلفة التى تطرق أذنه أو تخاطب عقله ·

ومثل هذا الذى وجدته فى تكرار قول الله سبحانه وتعالى «ويل يومئذ للمكذبين» هو ما تجده فى تكرار قول الله سبحانه وتعالى « فكيف كان عذابى ونذر » (١) ·

فلقد تكررت هذه الآية مرات عدة فى سورة القمر ، وجاءت على هيئة سؤال من الله سبحانه وتعالى مقصود به الانذار والتخويف لهؤلاء الذين كذبوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وجحدوا دعوته وأذوا أصحابه · جاءت هـذه الآيات ، انذار بعد انذار ، ووعيد بعد وعيـدا ، بالعذاب تلو العذاب ، لهؤلاء ان استمروا على ما هم عليه من فعل قبيح وكفر وضلال يقول الله سبحانه وتعالى لكل هؤلاء وغيرهم ، « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر » كذبت عاد رسولهم مثلما كذبتم رسولكم ، فانظروا كيف أنذرناهم فلم يرجعوا الى الحق ، فجاءهم عذابنا ، انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجـاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » (٢) ·

وهكذا يقول الله سبحانه وتعالى للكافرين والمعاندين وغيرهم ولقد يسرنا لكم القرآن وجئناكم فيه بأخبار السابقين ، وما كان منهم وما وقع

---

(١) الآية ١٧ ، من سورة القمر ·
(٢) الآيات من ١٩ ، ٢٢ من سورة القمر ·

لهم فهلا أنتم مقبلون على القرآن ، مؤمنون به ، عاملون بأحكامه ، متعظون بما فيه ، متبعون هديه ، سامعون نصحه ٠

فان لم تستجيبوا للقرآن ودعوته ، فهلا أجبتم على هذا السـؤال : فكيف كان عذابى ونذر ، لمن كفر وعاند وجحد ٠

ولما كانوا لا يستطيعون الاجابة ، لجحودهم ، وعنادهم ، وقلة ادراكهم وضعف تفكيرهم ، أجاب الله سبحانه وتعالى ، بالاجابة الشـافية الحقة . الثابتة التى لا تنكر ، ولا مراء فيها ولا جدال ٠

ثم كرر الله سبحانه وتعالى ، نفس السؤال عليهم ، ليقرع سمعهم ويؤكد مصيرهم ، وما سيكون من أمرهم ان هم استمروا فى عنادهم وكفرهم وفى هذا التكرار شحذ لأذهانهم ، وجذب لعقولهم ، وايقاظ لانشدتهم بهذا الطريق من الخطاب ، وبهذه الألفاظ المكررة المحكمة البليغة على غير ما ألفوه فى الخطاب واعتادوه ٠

وهكذا أتت السورة الكريمة بما جاء فيها من تكرار لبعض العبارات وسوق قصص الهالكين الغابرين ، وبما جاء فيها من الجزالة والفخامة وقصر حجم الآيات والتزامها فاصلة واحدة مختومة بحرف الراء ، القوى الجرس، العالى الرنين ، من أول السورة الى آخرها ٠

فالسورة فى جملتها وتفصيلها بمثابة قرع العصى ، لأهل مكة — ومن سار فى ركبهم — مرات ومرات ٠

كم تكرر فيها قوله تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟
وكم تكرر فيها قوله تعالى « فكيف كان عذابى ونذر » ؟
وكم جاء فيها لفظ التكذيب بما يستتبعه من هلاك ودمار !
وكم تكرر فيها قوله تعالى « فهل من مدكر » ؟

وكم جاء فيها لفظ الآية والآيات ، وكم من التخريف ، والتبديد في مثل قوله تعالى عنهم « ولقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر » وقوله تعالى ، لهم ولقد أهلكنا أشياعكم » وقوله تعالى ، لهم « أكفاركم خير من أولئكم » وفوق ما في السورة الكريمة من براعة الاستهلال ، وروعة الأساليب والوحدة الفكرية ، والموضوعية وترابط المعاني والآيات ، وأخذ بعضها بحجز بعض فان في السورة الكريمة كذلك من الظواهر البلاغية ، والصور البيانية وطرق التعبير والأداء ، واختيار الألفاظ ، وأحكام وضعها ما لو ذهب الدارس ليستقصيه لوجد فيه الشيء الكثير (١) ٠

ثم هذه أيضا سورة الرحمن ، الجنة الغناء ، الحافلة بنعم الله سبحانه وتعالى ، شاهدة على كمال قدرته ، وواسع رحمته ، وعظيم جلاله ، وبديع كماله ، اذا ما طاف بها القارىء ، وتصفح أنعمها المشاهد ، دون أن يكون معه هاد يهديه ومرشد يأخذ بيده ويرشده ويوقفه على نعمة مما فيها مبينا لها شارحا أوصافها كاشفا أسرارها ، لو لم يكن مع من يطوف بها هذا الدليل لخرج من هذه الجنة الفيحاء ولم يعلق بفكره مما فيها ، الا النذر اليسير ، والا الألوان الباهتة والصور العابرة ، التى لا تلبث أن تنسى وتتلاشى ٠

ولم يجن من ثمار هذه الجنة الا قدرا ضئيلا لا يسمن ولا يغني من جوع حسب رؤيته للنعم وعلى قدر معرفته بها ٠

والله سبحانه وتعالى يريد لعباده الخير كله ، لذا ذكرهم بنعمه ولفت نظرهم اليها والله سبحانه وتعالى يحب من عباده أن يعرفوا هذه النعم ويقدروها حق قدرها لذا جاءهم ، بهذا المرشد الهادى الموقظ ليشرح لهم

---

(١) انظر مجلة منبر الاسلام عدد شعبان سنة ١٣٩٠ هـ ص ٢٨ مقالة الأستاذ الدكتور عبد الغنى الراجحى ، براعة الاستهلال وروعة الأساليب ٠

يوبين ويوضح ويفسر وجاء بالدليل والمرشد واحد فقط لم يتغير ولم يتبدل وجهه ولم يختلف أسلوبه ولم تتغاير نبراته ومخارجة ، بل هو هو نفسه الدليل بعينه ٠

وفى هذا ما يؤثر فى النفس ، ويطمئن القلب ، لحديث هذا الدليل الذى ألفه وعرفه ، وصاحبه طوال رحلته ، اقرأ قول الله سبحانة وتعالى « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وله الجوار المنشآت فى البحر كالاعلام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (١) ٠ ترى فى تكرار هذا الدليل زيادة على ما ذكر ، جذب القلوب ، والاستيلاء على الأفئدة وشحذ الأذهان وبيان لكل هذه النعم الالهية ، والمنح الربانية ٠

قال القرطبى : « أى بأى قدرة ربكما تكذبان » ، فان له فى كل خلق بعد خلق ، وقدرة بعد قدرة ، فالتكرير فى هذه الآيات للتأكيد والمبالغة فى التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما أوقفهم عليه من خلق بعد خلق ٠

وقال القتبى : ان الله تعالى عدد فى هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم اتبع كل خلة وصفها ، ونعمة وضعها ، بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقرهم بها » (٢) ٠

وهكذا جاء التكرار فى هذا كله وما ماثله ، ايقاظا للأفئدة وشحذا للأذهان نجذب العقول بحسنه ودلالته ، واستولى على القلوب بجميل وقعة وأحكام عرضه ، مخالفا كل ما ألفته العرب فى الخطاب من تكرار ٠

ثالثا : جاء التكرار فى الأدب العربى قليلا نادرا ، وجاء فى الشعر على وجه خاص لأن للشعر من الأوزان والقوافى ، ما يجعلان غثاثة التكرار وثقله

---

(١) الآيات من ١٩ ــ ٢٥ من سورة الرحمن ٠

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن القرطبى ، طبعة الشعب ص ٦٣٢٩ ٠

أمرا مقبولا بعض الشيء ، واذا كان هذا فى الشعر فما بالك بالنثر من خطابه وكتابة ، وغير ذلك ، لا شك أن التكرار سيسقطه ويذهب بجمال لفظه ومعناه · لكن القرآن الكريم تكررت فيه الكلمة والجملة ، والآية ، وكشف هذا التكرار عن دليل آخر من دلائل اعجاز القرآن الكريم ، وبيان بلاغته ، وما سمت اليه عبارته ، فى لفظها ، وروعة نظمها وجمال وقعها ، وبديع نغمها ، وأحكام مؤداها ·

فالتكرار فى القرآن الكريم ، وســـام من الأوسمة البلاغية العالية الرفيعة يزهو بالقرآن ، كما يزهو القرآن به ·

مما جاء مكررا فى القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى فى سورة القمر « ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عـــاد فكيف كان عـذابى ونذر » (١) ·

وقوله سبحانه وتعالى فى سورة الرحمن « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكمـا تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكمـا تكذبان فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٢) ·

وقوله سبحانه وتعالى فى سورة المرسلات « فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين » (٣) ·

واذا نظرت الى هذه الآيات البينات التى جاءت مكررة فى هذه السور

---

(١) الآيات من ١٥ – ١٨ من سورة القمر ·
(٢) الآيات من ٤٦ – ٥١ من سورة الرحمن ·
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة المرسلات ·

الثلاث مثلا ، وجدتها آيات مستقلة جاءت تعقيبا لما سبقها ، فهي الشطر الثاني للآية الأولى السابقة لها ، كالمصراع الثاني لبيت الشعر ·

لكن الذي يتكرر غالبا في الشعر العربي هو المصراع الأول من البيت ، كي يخفي الشاعر العيوب الناتجة عن التكرار ، بما للقافية من وزن وتلوين، ووقع جميل وتعبير منمق مزوق ·

ولو أن التكرار في الشعر جاء في الشطر الثاني للبيت من القصيدة التي وقع فيها التكرار لفسد نظمها ، واختل وزنها ، وظهرت عيوبها وسمج لفظها ، وعابها كل من سمعها ·

وهكذا ، يأتي القرآن الكريم ، بالحياة الوارفة الظلال ، لنظم كلماته وآياته من المواضع التي تأتي بالهلكة ، والضياع لقول البشر ·

ويأتي القرآن الكريم بالسمو والارتفاع والتطاول لنظم آياته وسوره من أماكن سقوط كلام أدباء العرب وغيرهم ، ومزالق عباراتهم ومع هذا كله ، فالقرآن الكريم أيضا لم يأت بذلك الثوب الشعري المزركش ليكسو به تكراره ، كما لم يأت أيضا بهذا التكرار في صدر الآية وأولها حتى يسهل وقعه كما جاء في الشعر ·

وهذا لون من ألوان الاعجاز القرآني ، اذ جاء النثر بطلاوة وحلاوة لم يستطع الشعر أن يرقى اليها أو يدانيها ، مع أن للشعر أوزانه وقوافيه التي تنقص النثر ، ومع أن النثر قد أوصدت أمامه أبواب جمال الوزن والقافية ، وفتحت أمامه أبواب الوهن والضعف على مصراعيها الا أن الأمر قد تغير واختلف فجاء الضعيف قويا والقوى ضعيفا ، وأصبح الفقير غنيا ، والغنى فقيرا ، فسبحانك يا من تغير وتبدل « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء

بيدك الخير انك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » (١) ٠

فانظر كيف جاء التكرار فى القرآن الكريم متخيرا المواطن التى يتجنبها أساطين البيان وعباقرة البلاغة فى الأدب العربى فارين من ثقل التكرار وسقوط مقالته ، فلم يأتوا بالتكرار فى النثر ٠ وقل ما أتوا به فى الشعر ، فاذا جاء فى شعرهم ، جاء فى الشطر الأول من البيت ، لما ذكر ٠

لكن القرآن الكريم جاء بالتكرار ، وفى غير ثوب شعرى ، وفى غير الصدر من الآية ، فكان ذلك من القرآن الكريم اعجازا ، اذ قام النثر فى التأثير بما لم يقم به الشعر ، كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته . فجاء أخف وقعا والطف مدخلا على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من الوان النغم والموسيقى » (٢) ٠

الى غير ذلك من أسرار التكرار القرآنى البليغ المحكم : من التثبيت والتقرير والتأكيد ، والزيادة فى التنبيه على ما ينبغى وما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول ، وايضا اذا طال الكلام وخشى تناسى الأول أعيد ثانيا تطرية وتجديدا للعهد به ، وكذا المبالغة فى تحقيق المعنى وتصويره ، وأيضا اظهار القدرة على ايراد المعانى المختلفة فى عبارات متجانسة فى الفاظها متحدة فى مخارجها ونظمها ، الى غير ذلك مما لا يمكن أن تلم به أقلام الكتاب والباحثين ، والله تعالى أعلى وأعلم ٠

---

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران ٠

(٢) انظر اعجاز القرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، طبع دار الفكر حـ١ ص٣٩٢ ، انظر التقرير فى التكرير للسيد محمد أبو الخير الشهير بابن عابدين تحت رقم ٣٠٣ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية ٠

وانظر الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى الطبعة الثالثة سنة ١٩٤١م حـ١ ص ٦٠ ٠

الفصل الثالث

تكرار القصة فى القرآن الكريم

يقول الله سبحانه وتعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) ٠

يقول الله تعالى : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرى » (٢) ٠

قال ابن منظور : « قص آثارهم يقصها قصا ، وقصصا ، وتقصصها تتبعها بالليل وقيل وهو تتبع الأثر أى وقت كان ، قال الأزهرى : القص اتباع الأثر ، ويقال القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر ، وسوقه الكلام سوقا » (٣) ٠

قال الأصفهانى : « القص تتبع الأثر ، يقال قصصت أثره وقال تعالى ٠ فارتدا على آثارهما قصصا ، وقالت لأخته قصيه ، والقصص الأخبار المتابعة قال تعالى : ان هذا لهو القصص الحق » (٤) ٠

قال الامام الرازى « القصص اتباع الخبر بعضه بعضا ، وأصله فى اللغة المتابعة ٠ قال تعالى « وقالت لأخته قصيه » أى أتبعى اثره ، وقال

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود ٠

(٢) الآية ٩٩ من سورة طه ٠

(٣) انظر لسان العرب لأبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى المعروف بابن منظور المصرى ٦٣٠ — ٧١١هـ الطبعة الأولى المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠١هـ جـ ٨ ص ٣٤٣ مادة قصص ٠

(٤) انظر مفردات القران للراغب الأصفهانى طبعة الحلبى ص ٤٠٤ مادة قصص ٠

تعالى « فارتدا على آثارهما قصصا » أى اتباعاه وانما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا »

ثم يقول : والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدى الى الدين ، ويرشد الخلق ، ويأمر بطلب النجاه » (١) ٠

من هذا يتضح الاشتقاق اللغوى للقصة ، ويظهر معناه بأنه بيان لأحداث وآثار قد تكون ماضيه نسيها الخلق أو لم يعرفوها ، وقد تكون أحداثا حاضره يشاهدها الخلق ويعايشونها ولكنهم قد يغفلون عن جانب من جوانبها أو حقيقة من حقائقها فتوضحها القصة وتبينها وتلفت الأنظار اليها ، وقد تكون أحداثا مستقبلة يحيط بها الغيب لكن الله سبحانه وتعالى فى مثل هذه القصص أو الأخبار الغيبية قد أخبر الرسول بها وحدثه عن نتائجها وملابساتها فيما قصه من مثل هذه القصص والأخبار فى القرآن الكريم ٠

والذى تتناوله هذه الدراسة المختصرة الوجيزه من هذا الموضع هو جانب من جوانب القصة فى القرآن الكريم من ناحية اعادة عرض القصة القرآنية ، مرة بعد أخرى ، وذكرها فى سور مختلفه بغرض تذكير الناس بأحداثها لتكون عظة لهم وعبره ونصحا وارشادا قال تعالى : لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (١) ٠

وان كان تناول موضوع تكرار القصة فى القرآن الكريم بالحديث عنه وبيانه هو الهدف من هذه السطور فانى قبل أن أبدأ فيه أحب أن

---

(١) انظر التفسير الكبير للامام الرازى ح٢ ص ١٨١ ح٣ ٧٠٣ ٠
(١) الآية ١١١ م سورة يوسف ٠

أبين ان هذا القصص القرآنى الكريم هو الحقيقة بعينها لا يشوبها تدليس أو تغيير أو تلفيق مما ينسجه الخيال فيما يكتب من القصص هربا من الوهن والسقوط الذى يتردى فيه كثيرون من كتاب القصص والمحدثين الذين تجبرهم الأحداث أن ينسجوا من وحى خيالهم ما يكمل هذا القصور الذى قد أصابهم ·

والقصص القرآنى الكريم بعيد كل البعد عن هذا النسج البالى لأنه احكام من عليم خبير « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » فأحداثه لم يدخلها شىء من تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقصان ، وصدق الله العظيم اذ يقول « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » (١) ·

آراء فى تكرار القصة فى القرآن الكريم

كثيرا ما تأتى القصة الواحدة مكررة فى سور عدة من القرآن الكريم ، وهذا التكرار اقتضاه الهدف من ذكر القصة بوجه عام فى القرآن الكريم وكذا الاعتبار بما فى قصص القرآن الكريم من أحداث ، والايقاظ بما شملته من وقائع ونتائج هذا وغيره اقتضى ذكر هذه الأحداث والوقائع مرات عدة فى كل مرة من هذه المرات تتناول القصة جانبا معينا تركز عليه وتوضحه وتظهره ، لأمر ما اقتضى هذا الجانب وتوضيحه ، وليس هذا فى حقيقته من باب تكرار القصة الواحدة انما هو اظهار لجوانب مختلفة فى القصة الواحدة حسبما اقتضى اظهار هذا الجانب موضع سياق القصة ، ومناسبة ذكرها ·

ولقد تناول هذا الموضوع وتحدث عنه كثير من علماء العربية والمشتغلين بدراسة آدابها وعلوم القرآن واعجازه ·

---

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم ·

يقول الامام البقاعي : « أن مناسبات السورة توقفنا على نكات عظيمة تدل على اعجاز القرآن الكريم ، وتكشف عن غامض معناه ؛ وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات في القرآن ، فان كل سورة أعيدت فيها قصة ، فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة ، غير المعنى الذي سيقت له في السورة الثانية ؛ ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض ، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم ، والايجاز والتطويل ، مع أنه لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت منه القصة ، وعلى قدر غموض تلك المناسبات يكون وضوحها بعد انكشافها (١) » وهكذا يكشف الامام البقاعي النقاب عن سر من أسرار تكرار القصة في السور المختلفة في القرآن الكريم •

يقول ابن تيمية : « ذكر الله القصة في عدة مواضع من القرآن ، ليبين في كل موضع منها من الاعتبار ، والاستدلال ، نوعا غير النوع الأول ، كما يسمى الله تعالى رسوله وكتابه بأسماء متعدده ، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الأخر ، وليس في هذا تكرار ، بل فيه تنويع للآيات •

الى أن قال « فهذا في الاسماء المفردة وكذلك الشأن في الجمل التامة يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها ، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان آخر ، وان كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة ، فصفاتها متعددة ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأخرى » (٢) •

وهذا أيضا يكشف عن سر من أسرار هـذا التكرار ويدل على جانب من جوانب الحكمة من تكرار القصة في سور القرآن الكريم، مع التركيز

---

(١) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للامام البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ بمكتبة الأزهر تحت ٥٩٠ تفسير جـ ١ الورقة رقم ٦ •

(٢) انظر مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية جـ ١ ص ١٨٩ الرسالة الثانية •

على جانب من جوانب القصة فى سورة ، وفى السورة الأخرى على جانب آخر من جوانب القصة نفسها ، في كل سورة ما يناسبها وما تستلزمه العظة فيها والغرض منها ، وما يثبت قلب النبى صلى الله عليه وسلم ويذكر المؤمنين ويعظهم « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » (١) •

ويقول الامام الغزالى : لاتكرار فى القرآن الكريم فان رأيت شيئا مكررا من حيث الظاهر ، فانظر الى سوابقه ولواحقه لينكشف لك مزيد الفائدة فى اعادته ، وصدق الله العظيم اذ يقول : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » وان كان هذا هو رأى الامام الغزالى فهو أيضا ما حكاه وارتضاه الشيخ عبد الوهاب النجار (٢)

والتكرار بهذا المعنى هو موضوع حديث للكرمانى ومن حذا حذوه واتبع طريقه حيث بين قضية التكرار ، وأفاض فى الحديث عن كل ما تشابهت الفاظه فى كتاب الله سبحانه وتعالى ، وتناوله بالتوضيح والشرح وبيان سبب تكرار كل ما تكرر سواء اكان كلمة أو أية أو قصة ، وذكر أن السر وراء كل هذا التكرار كامن فى سوابق الآية أو لواحقها او هدف السورة وغرضها أو مناسبة اقتضت ذكر القصة مرة ثانية لبيان جانب من جوانبها والتنبيه عليه والاستدلال به •

ولقد تحدث الكرمانى عن لون هذا التكرار بين رأيه فى هذا الموضوع عندما تحدث عن قول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه « وهل أتاك حديث

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود •

(٢) انظر قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار الطبعة الخامسة دار الكتاب العربى ص ٣١ •

موسى ، اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » (١) •

وقوله تعالى فى سورة النمل : « اذ قال موسى لاهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » (٢) •

وقوله تعالى فى سورة القصص : « فلما قضى موسى الأجل وسار باهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله مكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » (٣) •

قال الكرمانى هذه الآيات الثلاث تشتمل ذكر رؤية موسى النار وأمره أهله بالمكث، وأخباره اياهم أنه آنس نارا واطماعهم أن يأتيهم بنار يصطلون بها ، أو بخبر يهتدون به الى الطريق الذى ضلوا عنه • لكن نفص من النمل ذكر رؤية موسى النار ، وأمرهم بالمكث اكتفاء بما تقدم • وزاد فى القصص قضى موسى الأجل المضروب ، وسيره بأهله الى مصر • وبين الكرمانى أمر هذه الزيادة وهذا النقصان بقوله « لأن الشىء قد يجمل ثم يفصل ، وقد يفصل ثم يجمل ، وفى طه فصل ثم أجمل ، وأجمل فى النمل ثم فصل فى القصص وبالغ فيه •

وقوله فى طه «اواجد على النار هدى» أى من يخبرنى بالطريق فيهدينى اليه وانما آخر ذكر الخبر فيها وقدمه فى النمل والقصص مراعاة لفواصل الآى فى السور جميعا •

---

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة طه •
(٢) الآية ٧ من سورة النمل •
(٣) الآية ٢٩ من سورة القصص •

وكرر لعل في القصص لفظا وفى طه والنمل معنى ، لأن « أو » في قوله « أو أجد على النار هدى » نائب عن « لعل » وسآتيكم تتضمن معنى لعــل .

وفى القصص « أو جذوة من النار » وفى النمل « بشهاب قبس » وفي طه « بقبس » لأن الجذوة من النار خشبة في رأسها قبس له شــهاب .

فهى فى السور الثلاث عبارة عن معبر واحد ، وهذا برهان لامع (١) وان كان الكرمانى ها هنا قد ركز حديثه على ما فى الايات من اختــلاف بعض الفاظها . وبين أن دلالتها واحدة ، الا أنه ذكر مذهبه فى تــكرار القصة حيث قال « فى طه فصل ثم أجمل ، وفى النمل أجمل ثم فصــل فى القصص » فهو بهذا يعبر عما اقتضاه الموقف فى كل سورة وما يتطلبه سياق الايات من اظهار للجوانب المختلفه من القصة الواحدة ، وهذا في حقيقته ليس تكرارا وانما بلاغة قرآنية عالية طابقت مقتضى الحال فجاءت القصة محكمة في سياقها .

ولقد تحدث الخطيب الاســكافى عن ورود القصة الواحدة ، فى مواضع شتى من سور القرآن الكريم ، وبين أن الســبب فى ذلك هو :

ان كل موضــع ذكرت فيه قد بينت جانبــا من جوانبها واظهرتــه ووضحته . وجاء أيضا فى كل موضع من هــذه المواضع ما يناســبه ، وما يقتضيه سياق السورة ، والجانب الموضح من القصة .

وان كان الخطيب فى حديثه يهدف الى بيان أسباب اختلاف بعض الألفاظ فى الآيات التى تكــررت ، الا أنه أجاب في طي ذلــك عن تكرار

---

(١) انظر حديث الكرمانى عن الآيتين ٩ ، ١٠ من سورة طه .

القصة : حيث يقول · قال الله تعالى فى سورة الانبياء · « وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين فاستجبنا له نكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » (١) ·

وقال تعالى فى سورة ص : « واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب » (٢) ·

يقول الخطيب : للسائل أن يسأل عن الفرق بين موضعى قوله « رحمة من عندنا » و « ورحمة منا » وقوله « وذكرى للعابدين » « وذكرى لأولى الألباب » ·

وهل فى كل مكان من المكانين ما يختص ذلك دون غيره ؟

والجواب أن يقال : أخبر الله تعالى فى سورة الأنبياء عن أيوب عليه السلام بأنه نادى ربه ، وشكا اليه ما مسه من الضر ، وسوء الحال بالمرض الذى طالت أيامه ، ثم بالفقر الذى ناله واجتاح ماله ، وكان الله تعالى ، ابتلاه بجميع ذلك ، وأحدث فيه المرض الذى أضعفه عن تعهد حاله ، حتى زال جميع ما له ، ليعطيه على صبره الثواب العظيم الجزيل ، وليعوضه من نعيم الجنة ما هو خير له مما سلبه من ماله ، وصحة بدنه ·

وكأنه لما قال مسنى الضر ، قال مسنى من عندك يارب ما تعلم وأنت الأكرم الأرحم ، فقال : وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا أى كما كان الضر من عندنا كان كشفه ، والرحمة مكانه من عندنا ·

---

(١) الآيتان ٨٣ ، ٨٤ من سورة الأنبياء ·
(٢) الآيات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ من سورة ص ·

ومعنى من عندنا أى من حيث لا تناله قدر العباد ، وكل مكان اختص بقدرة الله وحده يطلق عليه عند الله .

وأما قوله « وذكرى للعابدين » فالمعنى فعلنا به ما فعلنا رحمة له منا وتذكرة لمن عبد الله وحده ، باخلاص منه ، فلا يحول عن حمده وطاعته مع ما تصرف عليه من شدائد الدنيا ومصائبها التى ينزلها الله به ، بل يثبت معها على ادامة العبادة ، وامدادها بالزيادة كما فعله أيوب عليه السلام .

وأما فى سورة ص فان الله تعالى لما أخبر فيها عنه بأنه قال « واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاباً » وشكايته الى الله تعالى ما يلحقه من أذى الشيطان بوسوسته اليه ، وفنون احتياله عليه ، ليضيق صدره وينقص حمده وشكره ، فهان عليه المرض الذى ينقص من الابـــدان فى جنب ما يـؤثر فى الأديان ، ويخل بالطاعات ويشغل من الزمان بمدافعه الوساوس ، فلما كان هذا أهم ، وخاف من جهته الضرر الأشد ، أعانه الله برحمة منه مضافة اليه ، مختصة بارادته وأنعم عليه نعمة ، لا يجرى أمثالها على أيدى خلقه ، بل هى مما يختص بفعله ولا يوليه مقربا من ملائكته وان كان ما يقدرهم عليه من مثل ذلك مضافا الى قدرة الله تعالى .

فهذا فرق ما بين قوله « رحمة من عندنا » « ورحمة منا » .

وأما قوله « وذكرى لأولى الألباب » فلأن أولى الألباب أعم من العابدين واستدفاع وساوس الشيطان ، أعم من الاستشفاء للأبدان ، فخص كل آية ما اقتضاه صدر الكلام ، وتعرض أيوب عليه السلام بالسؤال (١) .

---

(١) انظر درة التنزيل ، وغرة التأويل للخطيب الاسكافى الطبعة الأولى مطبعة السعادة س ١٩٠٨ م ص ٢٣٩ وما بعدها .

والخطيب قد أجاب ضمن ذلك عن تكرار قصة أيوب عليه السلام فى الأنبياء و ص اجابة وافية قاطعة ، تبين أن أيوب عليه السلام كان له فى قصته فى سورة الأنبياء ،غير المناسبة فى ص ، وأن ما أظهرته القصة التى فى الأنبياء من جوانب غير ما ركزت عليه القصة من جوانب فى سورة ص ٠

وهكذا يظهر فى وضوح أنه لا تكرار وانما اظهار جوانب مختلفة وذكر ما اقتضاه حال السائل ، وما تطلبه سؤاله ٠

ومن هذا اللون أيضا ما ذكره المرتضى بقوله :

ان سأل سائل فقال ٠ ما تقولون فى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ، « فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين » (١) ٠

وقال فى موضع آخر « وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب » (٢) ٠

والثعبان هو الحية العظيمة الخلقة ، والجان الصغير من الحيات ٠

فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة ؟

كيف يجوز أن تكون العصا فى حالة واحدة من صفة ما عظم خلقه من الحيات ، وبصفة ما صغر منها ؟ وبأى شئ تزيل التناقض عن هذا الكلام ؟ والجواب : ان الذى ظنه السائل من كون الآيتين خبرا عن قصة واحدة باطل ، بل الحالتان مختلفتان ، فالحال التى أخبر عن العصا فيها بصفة الجان ، كانت فى ابتداء النبوة ، وقبل مصير موسى عليه السلام الى فرعون ٠ والحال التى صارت العصا فيها ثعبانا كانت عند القائه فرعون وابلاغه الرسالة ، والتلاوة تدل على ذلك ، واذا اختلفت القصتان

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الشعراء ٠

(٢) من الآية ٣١ من سورة القصص ٠

فلا مسالة . (١) وبهذا الذى قاله المرتضى يمكن أن يفهم ما جاء من مثل هذا فى القرآن الكريم، أنه قد جاء فى أحوال مختلفة وليس فى حال واحدة .

وبهذا ينتفى التكرار فيه ويثبت احكامه ومراعاته حالته التى جاء فيها ، ولقد ذكر الدكتور أحمد كمال المهدى عند حديثه عن قول الله سبحانه وتعالى فى سورة طه « وهل أتاك حديث موسى .. » (٢) .

وقوله تعالى فى سورة النمل « اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم .. » (٣) وقوله تعالى فى سورة القصص « فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا .. » (٤) .

ذكر ان الخطيب الاسكافى قد حاول أن ينفى وجود تكرار فى هذه الآيات ، ثم قال : وأزيد عليه . أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يصور لنا هذا الموقف بعدة أساليب وألفاظ مختلفة ليعطينا صورة كاملة للموقف بجميع أبعاده وزواياه فالله تعالى الذى يعلم خواطر النفس وما يجـــول بداخلها قد أعطانا صورة تحليلية لما كان يجول بخاطر موسى فى هذا الموقف الجديد الذى فوجىء به وهو سائر فى الصحراء مع أهله ، فموسى قال لأهله عبارة واحدة، ولكن كان يجول بخاطره ما لم يفصح عنه، فأخبرنا الله سبحانه وتعالى بالموقف مع بيان الحالة النفسية التى كان عليها موسى فى ذلك الوقت انظر قوله تعالى « اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا انى آنست

---

(١) انظر امالى المرتضى تحقيق الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم طبعة دار احياء الكتب العربية القسم الأول ص ٢٥ .

(٢) الآيات من ٦ ـ ٢٤ من سورة طه .

(٣) الآيات من ٧ ـ ١٢ من سورة النمل .

(٤) الآيات من ٢٩ ـ ٣٢ من سورة القصص .

نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » فى سورة طه « اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون » فى النمل ·

« وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » سوره القصص ·

فموسى عليه السلام لما رأى النار أمر أهله أن يمكثوا فى مكانهم لايبرحونه حتى يأتيهم بخبر يسرهم ، أو يأتيهم بقطعة من النار يستدفئون بها ·

فهذان مطلبان لكن تارة يقدم هذا ويؤخر ذلك تبعا لحالته النفسية ، وفى مثل هذا الموقف العصيب لرجل مهاجر فى الصحراء ومعه أهله ، والليل ليل قر ، والمكان موحش وقد رأى على البعد نارا موقدة ، ومثل هذا الموقف لابد أن تتحرك فيه نفسه ويدور بخلده معان فتنقبض نفسه تارة ، وتنبسط تارة أخرى ·

هذه النار التى رآها وقد ظنها نارا عادية ، هل هى عند قوم كرام ؟ أم عند قوم لئام قطاع طرق فلا يرجى منهم خير ·

كان الجو المحيط به يبعث فيه روح التشاؤم ، ولذلك استخدم أسلوب الترجى مرتين ، وهل هذه القطعة من النار التى يريد احضارها ، هل هى جذوة أو شهاب ، أو قبس ، كل ذلك تبعا لما يدور فى رأسه من احتمالات متعدده ·

فهل سيحضر لهم من عند القوم بقية حطب بعد الاشتعال « جذوة » أو يحضر لهم شعلة ساطعة من النار ملتهبة « شهاب » أو شعلة من النار يقتبسها من « قبس » لعلهم بها يستدفئون » ·

فبيان الموقف مع بيان الحالة النفسية التى كان عليها موسى يستدعى هذه العبارات الثلاث حتى ينقل الينا القرآن ذلك الموقف بكل لقطاته ومعانيه فمنطوق موسى أمر واحد ، ولكن ما كان يجول بخاطره ونفسه عدة أمور ٠ واستطرد الدكتور كمال المهدى فى حديثه عن ذلك الى أن قال « وهكذا نجد الأساليب الثلاثة التى صورت لنا هذا الجزء من قصة موسى عليه السلام ، أعطتنا تحليلا دقيقا لهذا الموقف من جميع جوانبه وزواياه ٠

ثم يقول ، والله سبحانه وتعالى ذكر فى كل سورة من السور الثلاث التى تحدثت عن هذا الموقف ما يناسب هدفها ، حيث ذكر كل موقف بأساليب والفاظ تشير الى مواضع العبرة بما يناسب جو السورة وسياقها » (١) ٠

من هذا كله يتضح أنه لا تكرار فى الحقيقة فى القصص القرآنى وانما اظهار لجوانب مختلفة من القصة الواحدة ، وبيان لما صاحب أحداث القصة من انفعالات نفسية مختلفة ٠

آراء وتساؤلات فى موضوع القصص القرآنى

أثير كثير من الآراء والتساؤلات حول القصص القرآنى من زواياه المختلفة وأدلى فيه كثير من الباحثين بآرائهم ، فكان منهم المنصفون ، الذين قالوا الحق للحق وأقروا به ، وكان منهم غير هؤلاء ، جانب قوله الصواب وافترى على الحق زورا وبهتانا ٠ هذه بعض آراء جانبت الحق وافترت عليه، أعرضها من باب أنها قيلت وأثيرت حول القصص القرآنى، وان كنت لاأطيل

---

(١) انظر وحدة الهدف فى السورة القرآنية رسالة دكتوراه الدكتور أحمد كمال المهدى المدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر طبعة آلة كاتبة سنة ١٩٧٣ م ٠

البحث فيها والرد عليها تفصيلا ، لأن هذا الموضوع يتطلب بحثا مطولا خاصا به ، تذكر فيه جوانبه المتعددة ، ويبسط القول فيها وان طال العمر وأمدنى الله سبحانه وتعالى بالتوفيق ، فسوف أتناول ان شاء الله هـذا الموضوع بالكتابة والبحث ٠

اول هذه الآراء :

ما قاله الأستاذ الفاضل أمين الخولى فى تقديمه لرسـالة دكتوراه الأستاذ الدكتور محمد أحمد خلف الله « الفن القصصى فى القرآن » حيث قال : « وبهـذا التفريق بين الغرضـين ــ الفنى والتـاريخى ــ للحادثة والواقعة تبين فى وضوح قريب أن عرض القرآن لأحداث الماضين ، ووقائع حياتهم ، والحديث عن تلك الأحداث ، والأشخاص ليس الا العرض الفنى الأدبى ــ لا العرض التاريخى التحقيقى » ٠

ثم يقول الأسـتاذ « الخولى » مبينـا رأيه « وفى الغرض الأول » أى الفنى ــ قصـد القرآن الى الاخلال الواضـح بمقومات الغرض الثانى ــ التاريخى فأغفل قصدا تحديد الزمان ، وذكر المكان ، وتسمية الأشخاص ، والتعريف المعتاد بمن قد يذكر اسماءهم من هؤلاء الأشخاص » ٠

وهذا ما ردده الأستاذ الدكتور خلف الله ، حين تحدث عن قصة لوط ووورودها فى سورتى هود والحجر ، حيث قال : ان القصد من القصتين مختلف ، وان القرآن قد خالف بينهما فى الترتيب ليشعرنا بأن هذه قصة مستقلة ، وتلك قصة مسـتقلة ، وان ترتيب الأحداث يختلف باختلاف المقاصد ، حتى ولو أدى هـذا الاختلاف الى اهمال أهم مقومات التـاريخ والأدب » (١) ٠

---

(١) انظر الفن القصصى فى القرآن الكريم للدكتـور محمد أحمد خلف الله ، مكتبة النهضة سنة ١٩٥٧ م ص ١٢٢ وما بعدها ٠

وللاجابة على هذه التساؤلات وتفنيد هذه الآراء ، أحب أن أذكر أولا ما قاله الأســتاذ الامام محمد عبـده ، وان كان يوجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى الى التأثر ٠

اذ يقول : ان كثيرين من أعـداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب فى القصص ، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارا فى قصص الأنبياء والأمم الواردة فى القرآن ، وهو انه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحســب أزمنة وقوعها ، وانما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم المتصلة بأســبابها لتطلب بها ، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها ، ومتى كان هـذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى الى التأثير » (١) ٠

ومع أن هذه القصص والوقائع لم يقصد بها التاريخ كما قال الأستاذ الامام وانما قصد بها الاعتبار والعظة الا أنها صادقة كل الصدق فى عرضها للأحداث والوقائع حسبما كانت عليه فى التاريخ والواقع ٠

أما هؤلاء الذين رأوا فى القرآن عدم ترتيبه للوقائع كمـا حـدثت واغفاله مقومات الأدب والتاريخ ، فقد جانب قولهم الصواب وافتروا على القرآن كذبا ، لأنهم قاسوا القرآن الكريم بالأعمال الأدبية والفنية للبشر ٠ وان جاز ذلك على الأعمال الانســانية العاجزة عن التأثير والاقناع الا اذا أغفلت الجوانب التاريخية المرئية ، فان قولهم هذا غير جائز على كلام العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ٠

---

(١) انظر تفسير الامام محمد عبده جـ ١ ص ٣٢٧ ٠

لأن هؤلاء البشر الذين خالفوا الترتيب التاريخى فى أعمالهم مغلوبون على أمرهم فهم يحاولون الوصول الى هدفهم بأى ثمن ومن أى طريق حتى ولو كان بالتلفيق للتاريخ والكذب عليه ، ومع ذلك فأعمالهم لا تعمر طويلا ولا يكتب لها الخلود لأن سيف التاريخ مسلط عليها ، نافذ الى أعماقها حتى تتهاوى أمامه فى يوم ما ٠

أما من خلق التاريخ وعلم الانسان ما لم يعلم من كل فنون العلم وألوانه فهذا غير جائز على كلامه لأنه كلام « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١) ٠

ان هذا الوهم الخاطىء الذى وقع فيه هؤلاء ما هو الا نتيجة ايمانهم بما قاله المستشرق جولد تسيهر ، فى دعواه الباطلة « ان تبشير النبى العربى ليس الا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية ، عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها ، التى تأثر بها تأثرا عميقا ، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه » (٢) ٠

ان هذه الدعوى الباطلة فى جوهرها ما هى الا محاولة تشكيك فى القرآن الكريم وطعن فيه ، وادعاء بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأتى بما يعجبه من أخبار يهودية أو مسيحية يرى فيها أنها توقظ العاطفة الدينية وتحركها ٠ أما علم هذا المستشرق ومن ينهج منهجه أن القرآن الكريم ليس من عند الرسول صلى الله عليه وسلم بحيث اذا أعجبه شىء ، قصة أو حكاية حسبما يراه ٠ وانما هو كلام العليم الخبير .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت ٠

(٢) انظر العقيدة والشريعة فى الاسلام لجولد تسيهر ٠ ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٢ ٠

ومحمد صلى الله عليه وسلم مبلغ لما ينزل عليه من عند ربه لا يزيد عليه ولا ينقص ولا يجور ولا يرتب ولا يلفق .

«وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى» (١) وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين (٢) .

ولقد حسم الله سبحانه وتعالى القول فى قصص القرآن من نواحيه المختلفة سواء من ناحية التاريخ أو الترتيب أو غيرها مما ادعاه هؤلاء وغيرهم « والله يحكم لا معقب لحكمه » (٣) اذ يقول سبحانه وتعالى « ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم » (٤) .

فهذه القضايا الثلاث التى ذكرتها الآية وقرنت كل منها بالأخرى صادقة لا محالة لا شك فيها ولا ارتياب .

ثانى هذه التساؤلات التى أثيرت حول القصص القرآنى : ما أثير حول ورود القصة الواحدة فى مواضع مختلفة من سور القرآن الكريم ، بصيغ مختلفة يقول الدكتور خلف الله « سؤال سأله العقل الاسلامى نفسه فيما يخص هذا التكرار ، وهو أنه على فرض قد رتبه على الوقوف على الأسرار التى من أجلها كان التكرار ، فلماذا هذا الاختلاف ؟

لماذا اختلف ايراد القصة الواحدة فى موطن عنه فى آخر ؟ (٥) .

---

(١) الايات ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة النجم .
(٢) الآيات من ١٩٢ — ١٩٥ من سورة الشعراء .
(٣) من الآية ٤١ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٦٢ من سورة آل عمران .
(٥) انظر الفن القصصى فى القرآن الكريم ، طبع مكتبة النهضة سنة ١٩٥٧ ص ٣٢ .

ولقد أجاب الدكتور خلف الله نفسه على هذا السؤال عند حديثه عن قصة سيدنا لوط وورودها في سورتي هود(١) والحجر(٢) حيث قال:

« ان القصد من قصة لوط في سورة هود هو تثبيت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن أجل ذلك عنى القرآن بما ينال لوطا من أذى ، ومن هنا عنى القرآن بحالته النفسية ، وقصد الى أن يبرز عواطفه ويصور انكاره ، وهذا هو صنيع القرآن في كل القصص الذي ورد في هذه السورة، وهو الذي يتلاءم مع بدئها والختام .

أما القصد في قصة لوط في الحجر ، فقد كان بيان ما ينزل بالمكذبين من أذى ، وهنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطا بما سيحل بالقوم من مصائب ، وما سينزل عليهم من عذاب . وهذا هو الذي يتلاءم وحالة النبي محمد عليه السلام ، وهو ما صرح به القرآن في ختام سورة الحجر قال«فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون»(٣)

وفي هذا القول الذي أجاب به الدكتور خلف الله على تساؤله ما يكفي مع ما سبق من حديث عن التكرار .

ثالث هذه الآراء أو الدعاوى :

ما قاله : أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ، وتابعه فيه الجاحظ ، والرافعي ، حيث قال : « وقد رأينا الله تعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي ، واذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا .. وقل ما تجد قصة لبني اسرائيل

---

(١) في الآيات من ٧٧ — ٨٣ من سورة هود .
(٢) في الآيات من ٦١ — ٧٥ من سورة الحجر .
(٣) الآيات من ٩٢ الى آخر سورة الحجر انظر الفن القصصي ص ١٢٢ وما بعدها .

في القرآن الا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة ، لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم (١) ·

وهذه الدعوى غير صحيحة مردودة على أصحابها لأن الباحث في القرآن الكريم يجد أن التكرار جاء كثيرا في الكلام الموجه الى العرب والأعراب أيضا ، والسور المكية شاهد على هذا حتى أن القصص القرآني يكاد ينحصر في السور المكية ، والخطاب فيها موجه الى العرب ، والحديث فيها مبسوط معاد ·

بل ان سورا كاملة مثل الأنعام والأعراف ، ويونس ، وهود ويوسف والنحل ، والاسراء ، والكهف وكلها سور مكية ، الخطاب فيها للعرب والأعراب حكاية عنهم أو توجيها لهم ، وليس لبني اسرائيل ذكر في شيء منها الا شيء قليل مما كان في سورة الأعراف في قصة موسى وقومه ·

والآيات في هذه السور غاية في البسط والطول (٢) ·

بعد هذا يمكن القول في اطمئنان « أن طائفية المخاطبين أو المتحدث عنهم عربيتهم أو عبريتهم ، ليست هي الأمر الذي يدور عليه فلك التكرار في القرآن ، والبسط فيه ، لكنه دائر على ما سبق ذكره ، من سمو المعاني القرآنية وجزالتها وسامتها ، وجذبها للأسماع ، وطرقها لقلوب الناس محاولة هدايتهم والأخذ بيدهم الى ما فيه خيرهم ، عاجلا وآجلا ، مع ما في ذلك من الامعان في تعجيز العرب ، واظهار الاعجاز القرآني بتكرار المعنى

---

(١) انظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري : الحسن بن عبد الله ابن سهل العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ · طبعة محمد على صبيح طبعة ثانية ص ١٨٤ وكذا كتاب الحيوان للجاحظ جـ ١ وكتاب اعجاز القرآن للرافعي الطبعة الرابعة ص ٢٠ ·

(٢) انظر متشابه النظم في قصص القرآن الكريم للأستاذ الدكتور عبد الغنى الراجحى عميد كلية أصول الدين بأسيوط ·

الواحد فى وجوه مختلفة ، لسياقات ومقامات مختلفة لأنه ذو عبر ووجوه تظهر فى لقطاته المختلفة •

وهذا قدر مشترك بين آى القرآن ، قصصه وغير قصصه ، اسرائيلية وغيرها حتى آيات الجهاد والأحكام ، والأخلاق ، واليوم الآخر وقدرة الله سبحانه وتعالى فى الأنفس والآفاق » •

من كل ما سبق يتضح . أنه لا تكرار فى القرآن الكريم آيه وقصصه من حيث الحقيقة ومناسبة المعانى بعضها لبعض ، واتساق الآيات والقصص مع السور وسياقها ومناسبتها ومقتضاها •

وأن ما يرى مكررا من حيث الظاهر ، لو نظر الى سوابقه . ولواحقه لوضحت حقيقة وفائدة تكراره فى الظاهر واعادته •

ولو تعمقت فى مناسبته ومقتضاه ، وسبب اعادته ، لوضح لك أمر معجز ينفى التكرار ويثبت الأحكام •

فالقرآن تنزيل من حكيم حميد ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، لذا تتبع كل داء من جميع أعراضه وأسبابه ، وملابساته ومضاعفاته ، وأسراره الخفية ، وما قد ينتج عنه من الأدواء الأخرى •

ثم وضع لذلك كله العلاج الشافى ، والبلسم الواقى ، بالطرق المختلفة التى يراها شافيه عافيه •

وما ذلك الا تكرارا للعقاقير والأدوية المتشابهة ، وان كان بعض المرضى قد ينكر ذلك لضعف عقله وقلة ادراكه ، ان الحكيم الخبير قد علم داء وعلته ، فأتى له بكل ما يقطع أسباب هذا الداء ويأتى على أعراضه ومضاعفاته ، ويقضى عليها القضاء التام الذى لا يترك للمرض جذورا

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٤ •

ولا آثارا ، فيشفي منه ، ولا يعود اليه أبدا • سبحان الحكيم العليم بأسرار آيات كتـابه ، الخبير بعلاج صـدور خلقه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور •

من أسرار تكرار القصص القرآني

جاءت القصة في القرآن الكريم لفوائد ومزايا كثيرة واستكمالا للفائدة وتماما للميزة وعناية من الله سبحانه وتعالى بخلقه ، كان تكرار القصة في القرآن الكريم فهذا التكرار مزاياه لا تحصى ، وفوائده لا تعد ولا تستقصى لكنها اشـارات عابرة لبعض أسرار تكرار القصص القرآني الكريم •

أولا : ان القصة الواحدة تشمل أمورا كثيرة وجوانبا متعددة ، ولها مناسبات ودلالات مختلفة ، لذا ذكرت القصة تارة ، وقصد بها بيان بعض الجوانب المعينة ، وكشف أستار بعض حقائق محددة • ثم أعيد ذكر القصة لبيان بعض الجوانب الأخرى حسبما اقتضى الحال والسياق •

ثانيا : القصة عنـد العرب ضربا من ضروب الحسن والأدب ، فجاء القرآن بها ــ وهو ديوان العرب ــ تأليفا لقلوبهم ، فالنفس الى ما ألفت أميل ، وفي الوقت نفسه تعجيزا لهم ، واظهارا للقدرة على ايراد المعنى الواحد بعبارات مختلفة في الايجاز والأطناب قوية في ايجازها بديعة في إطنابها ، كل ذلك على يد أمي لا يقرأ ولا يكتب ، لكنه أعجز القوم بما جاء به من هذا كله بلسان عربي مبين •

ثالثا : القصة لها مجالها الواسع حيث تتبارى فيها العقول والأفهام لاستخلاص ما فيهـا من عبر وعظات ، كل يدلي بدلوه فيخرج ما قدر عليه عقله وما اهتدى اليه بصره ، ثم يعيد النظر والامعان كلما تكررت القصة

وفي كل مرة يتكشف له الحق وتتضح أسراره ، وفي هذا من القربى لله سبحانه وتعالى ، وتفاوت الدرجات برسوخ العبرة والعظة في نفس الباحث وعقله ، الشيء الوافر والمنزلة العالية .

رابعا : كان نفر من الصحابة يسمع القصة من القرآن الكريم ثم يذهب في تجارته أو يعود الى موطنه وأهله ، أو يهاجر الى مكان آخر وكان أكثر من آمن بالقرآن من المهاجرين ، فلولا تكرار القصة في سور متعددة لوقعت قصة موسى مثلا الى قوم ، وقصة نوح الى آخرين ، وكذا سـائر قصص القرآن الكريم .. لذا أراد الله سبحانه وتعالى ، اشتراك جميع المهاجرين والأنصار ، المقيم منهم والمرتحل ، في كل قصص القرآن زيادة للتأكيـد والتقرير وعموم الفائدة وتبصير الحاضرين .

وان كان في قصص القرآن ما لم يكرر مثل قصة يوسف عليه السلام حيث سيقت مساقا واحدا في موضوع واحد ، وكذا قصة أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، وقصة موسى مع الخضر ، وقصة الذبيح .

والسبب في ذلك يرجع الى أن قصص الأنبياء عليهم السلام انما كررت لأن المقصود بها افادة اهلاك من كذبوا رسلهم ، والحاجة داعية لمثل هذا ، لأن الكفار كرروا تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم المرة بعد الأخرى ، فكلما كذب الكفار سيد المرسلين محمدا صلى الله عليه وسـلم أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب على هؤلاء المكذبين من كفار قريش ومن معهم ، كما حل على المكذبين قبلهم ، وقد قال الله تعالى « فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن (١) .. الى آخر الآية ، وكذا قوله تعالى « فانما يسرناه

---

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الأنعام .

بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » (١) أو كأن الله سبحانه و تعالى يقول لهؤلاء الكفار الذين ادعوا أن القرآن من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، كأن الله تحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به من تلقاء نفسه على حد زعمهم ، وأن يفعلوا فى قصة يوسف وما شابهها من القصص التى لم تذكر الا فى موضوع واحد ، مثل ما جاء فى القرآن من سائر القصص الأخرى التى وردت فى مواضع عدة ·

خامسا : القصة سجل ناطق يخلد آثار الأولين السابقين ووسيلة من وسائل اقناع النفس بحقيقة من الحقائق الثابتة عن طريق لا شعورى لا تشعر النفس معه ممانعة ولا تستطيع له دفعا ، ولا تجد معه طعم السآمة ، وانما تشويق واثارة وحرص على استقصائها واستيعابها الى غير ذلك من أسرار تكرار القصص القرآنى الكريم ، وما ذكرته منها ما هو الا جهد المقل ، وعمل الضعيف · أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يهبنى القوة على العودة الى الكتابة فى هذا الموضوع انه نعم الموفق والمعين ·

والحمد لله فى أوله وآخره

---

(١) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة مريم ·

فهرس

الفصل الثاني

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٥/٢٠٥٧